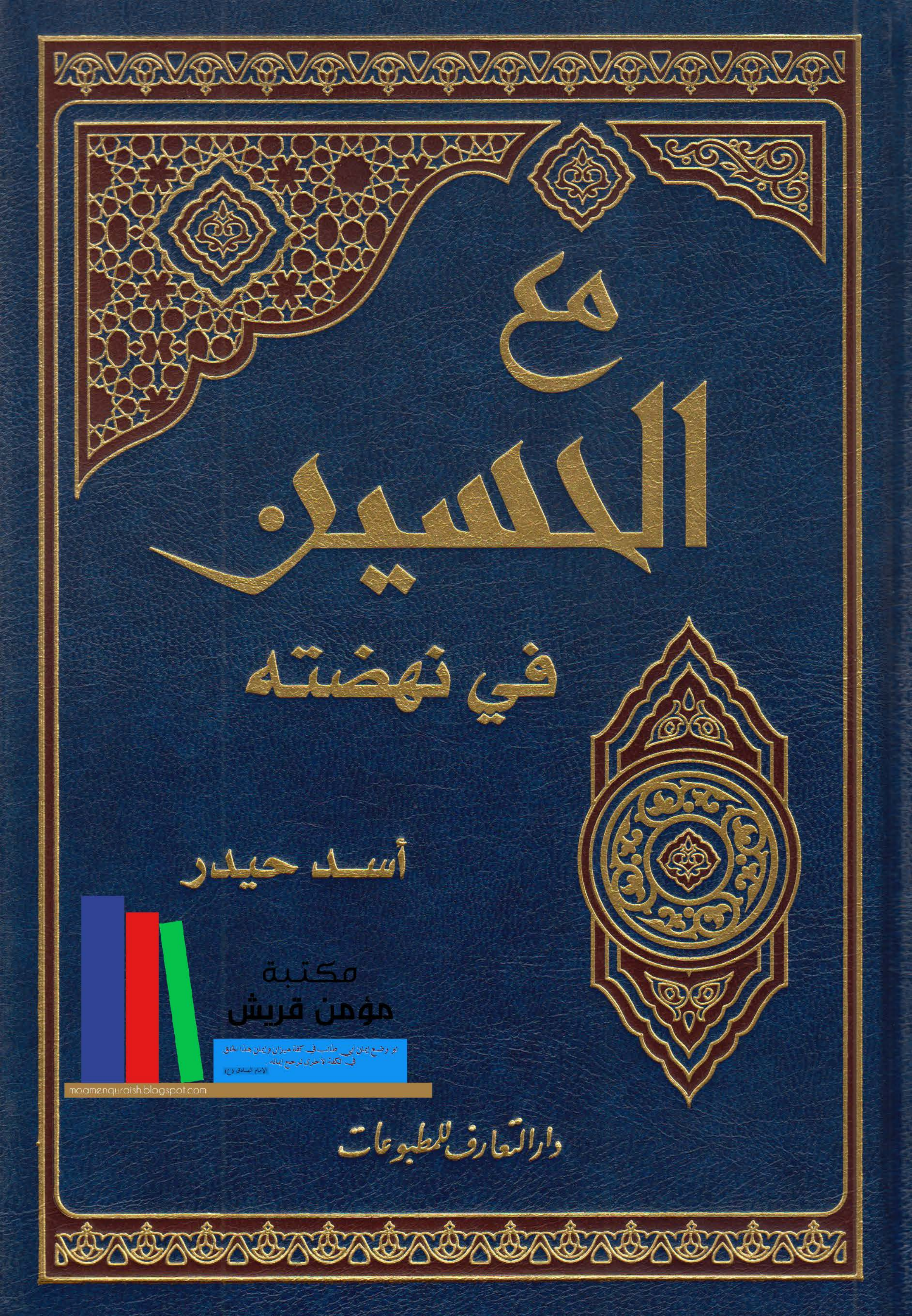
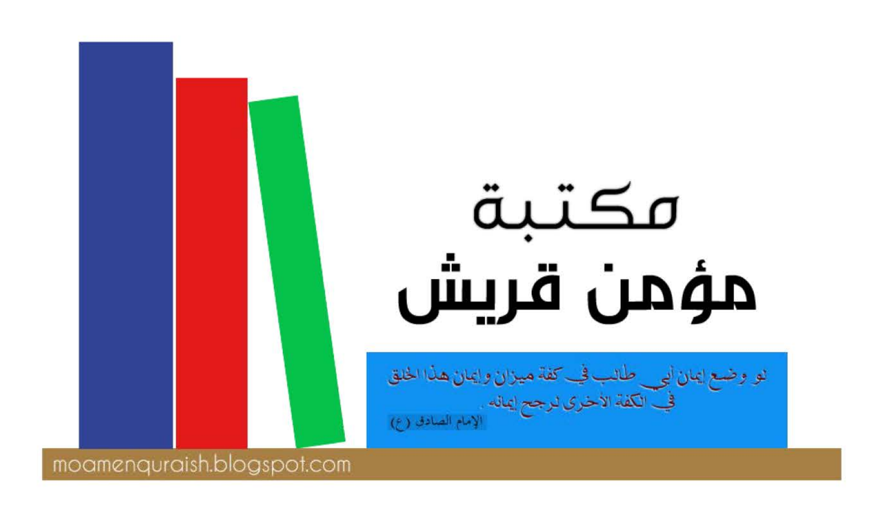

مع
الحسين
في نهضته
أسد حيدر
مكتبة
مؤمن قريش
maomenquraish.blogspot.com
دار التعارف للمطبوعات

مع الحسين في نهضته

مع الحسين في نهضته

أسد حيدر



دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الثانية
١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

دار التعارف للمطبوعات

العنوان: بيروت ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين
ت: ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٧ ـ ٠٠٩٦١٣٨٢٣٦٢٠
المستودع: حارة حريك ـ خلف كنيسة مار يوسف ـ بناية دار الزهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1]

صدق الله العلي العظيم

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ ـ ١٧٠.

الإهداء

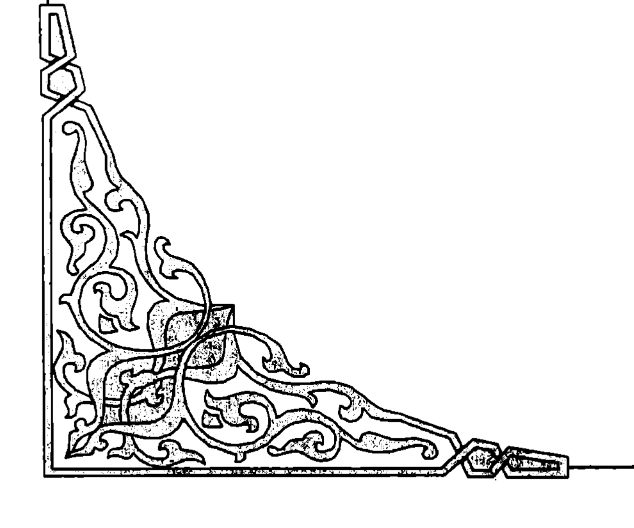
إلى بضعة الرسول الأعظم ﷺ

فاطمة الزهراء عليها السلام

أُقدّم كتابي هذا

مع الحسين في نهضته

أسد حيدر



كلمة الناشر

أرسى معاوية حكمه وأقام دولة البأس والبطش والخوف، وأصبحت الأمة، كل الأمة، كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من أبنائه، ملك يرثه الأبناء عن الآباء، وهذا الأمر الذي استحدثه معاوية في الاسلام، حيث أدخل تغييراً خطيراً من السنة الموروثة وكتب بذلك إلى الآفاق، حيث أعلن عزمه تولية يزيد ولاية عهده. وجنّد في سبيل إتمام هذا الأمر كل طاقاته، واستعمل أساليب غير مشروعة لاستكماله، من ترغيب وترهيب حتى أجابه الناس إلى ما أراد. إلاّ نفر من قريش أبوا عليه ذلك وفي مقدمهم الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان الناس مغلوبين على أمورهم، مستكرهين غير أحرار في تدبير شؤونهم حيث كان مبتغاهم صلاح دينهم ودنياهم، ولكنهم ابتلوا بمعاوية بلاءً عظيماً وراحت أمورهم تنحدر بسرعة وتصير إلى شرّ عظيم، فقد سيقوا بالخوف وسيسوا بالرعب والقتل على الظنّة، بعيداً عن تعاليم الإسلام وقيمه ومبادئه الثابتة والراسخة في كتاب الله وسنة رسوله.

وذهب معاوية غير مطئمن إلى الأوضاع، وغير مرتاح لولده يزيد، حيث استقبل المسلمون ملكاً مسرفاً على نفسه في طلب اللذة والعكوف عليها والاستهتار بشؤون الدولة والناس.

ولم يكن يزيد يحتمل معارضة أحد ولا يقبل الاعتراض من أيٍّ كان. .

وكان الحسين بن علي قد أعلن رفضه بيعة يزيد، وأقام بمكة. . ثم جعلت الرسل تتصل بينه وبين أتباعه ومناصريه وشيعته. . . فاستقر به الرأي، بعد تقديره الأمور، على الخروج إلى الكوفة مع رجال حرصوا على نصرته وتأييده،

ولم يكن الحسين بحاجة إلى من يثير عزيمته فإن الواجب حتّم عليه القيام بمسؤولياته مهما كلفه الأمر في الجهاد لحماية الدين.

أعلن الحسين ثورته ورفع شعار المطالبة بالاصلاح والسير بسيرة جده، وأوضح طريق ثورته قائلاً: إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر.

لقد كانت نهضته للحقّ من حيث الحق لم يثنه قلة الناصر وكثرة الواتر.

هذا الكتاب «مع الحسين في نهضته» يرافق الحسين في قراره ويتتبع بموضوعية حركته وتحركه من مكة إلى الكوفة. . . دفاعاً عن الحق وأصالة الاسلام وقيمه.

يضعنا أمام نظام تجرّد من كل القيم وتعرّى من كل الأخلاق، حيث لجأ جيشه ومرتزقته إلى كل ما هو من العار ومخالفة العادات والأخلاق المعهودة.

لقد وقف المؤلف على طبعة الكتاب الأولى ناقداً حيث قام بتصحيحات مهمة فحذف وزاد وصوّب كثيراً من العبارات والفقرات والنصوص، وأفاض بشروحات جديدة وافية وأضاء على مفاصل كانت مبهمة أو غير واضحة.

ثم أضاف إلى الطبعة الأولى فصلين بيّن فيهما حقيقة استمرار المبادىء الثورية التي حملتها نهضة الحسين، وبقاء جذوة روح النهضة مشتعلة وضاءة تنير طريق السائرين في دروب الحق والعدل. تحدث في الفصلين:

١ ـ ثورة التوابين.

٢ ـ حركة المختار بن أبي عبيد.

عن ابراز هذه الثورة في إطارها التاريخي، وأن الإصرار على رفض الظلم ومقاومة الفساد والتعسف والجور تمثل قاعدة إحياء العملية النهضوية واستمرارها ودوامها طالما وُجد حقد وعنف وهتكٌ للقيم والمبادىء والأخلاق.

هذا الكتاب: «مع الحسين في نهضته» نقدمه اليوم للقارىء الكريم بهذا السياق الجديد الذي يرعى تطلعات الحسين عليه السلام إلى إقامة دولة الحق والعدل.. دولة الإسلام التي تحترم الإنسان وتعمل لسعادته وحريته أينما وجد في كل مكان وزمان.

نسأل الله التوفيق

الناشر

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من كتابنا «مع الحسين في نهضته» في ظروف كانت فيها شعائر إحياء الذكرىٰ ومواكب الولاء ومجالس العزاء معالم ثابتة تتجدد سماتها بتقادم الأيام ومرّ السنين، ولم يتمكن الحكام عبر مراحل التاريخ من تغيير واقعها أو التخفيف من تأثيرها فقد كانت مواسم إحياء ذكرىٰ الثورة وتخليد النهضة تجمعات صاخبة قد يغلب عليها التفجع والتألم إلا أن مظاهرها وصيغ إحيائها كانت مجالات خصبة لتجديد الولاء والعهد لتلك الدماء الزكية التي أهدرت والحرمات الكريمة التي انتهكت على الثبات والسير بهدي الثورة ومتابعة للنهضة.

فما بين دموع وعبرات الموالين وابتهالات وأدعية الزائرين تعيش أرض المأساة في كربلاء على مدىٰ شهرين مظاهر من المواساة والعزاء متعددة وكثيرة، وتشهد أرض الطف جموعاً لا تحصىٰ فتقام مهرجانات تبدأ من أول محرم الحرام حتى نهاية صفر حيث في العشرين منه تفد المواكب وتتوالى الوفود بعشرات الآلاف وتحت راية الانتصار للحسين وإحياء ذكرىٰ ثورته تنطلق الأصوات هادرة تعبر عن مشاعر الولاء وأحاسيس الناس لا يرهبها

حاكم ولا تخشى من ظالم، فكانت الجموع تهدر بمطالبها وتصرخ بشكواها جامعة بين مغزى الذكرىٰ وبين واقع الحال.

وبعد صدور الطبعة الأولى انتقلت إلى عوالم أخرى لفتني فيها الغربة عن العراق، فكنت إذا حل الموسم أشعر بثقل البعد عن تلك المواطن والربوع وتمر الذكرىٰ بما يصحبها من مشاعر ومظاهر لإحيائها ثقيلة حزينة والنفس في تلهف لمعاودة المسيرة، وتجديد آيات العهد.

لقد كتبت «مع الحسين في نهضته» بوحي تلك الأجواء وبأسلوب يحتفظ بمعالم الصورة ويسعىٰ للإبقاء على عناصرها وهو ما يناسب المألوف في إظهار معالم النهضة وإبراز وقائع الثورة.

ونقدم اليوم الطبعة الثانية من الكتاب، وهي مزيدة بفصلين:

الأول: عن ثورة التوابين.

والثاني: عن المختار بن أبي عبيد.

وقد حاولت فيهما بيان حقيقة استمرار الثورة وبقاء نهضة الحسين، وإن كانت ثورة التوابين تدخل في باب النتائج المباشرة لثورة الحسين على واقع الجماعات التي عرفت بولائها لآل البيت وبإخلاصها في العقيدة وكونها «ثورة ندم» إلّا أن بقاء روح النهضة ودوام النفوس على الولاء والإصرار على رفض الظلم هو قاعدة إحياء النهضة واستمرار مبادىء ثورة الحسين.

وكما قلت فإني حاولت أن تبرز الثورة في إطارها التاريخي وأن أقدم ـ هنا ـ صوراً من استمرارها ودوامها.

وما زلت أعمل على انجاز ما بيدي من بحوث عن «العلوي الثائر»

الذي يظل حاملاً لواء العدالة مهدداً عروش الطغاة والظالمين ومن الله استمد العون وأسأل التوفيق.

والسلام على شهيد الإباء وغريب الغرباء أبي عبد الله الحسين وعلى الأرواح الطاهرة التي امتزجت دماؤها بدمائه وحلت بفنائه.

ورحمة الله وبركاته.

أسد حيدر

المقدمة

منذ زمن وفكرة وضع هذا الكتاب تخامرني، ولكن لا بهذه الصورة المقتضبة، والبيان الموجز.

إنها فكرة تدعو لوضع كتاب، عن تاريخ حياة الحسين عليه السلام وثورته، ببحث شامل عن الأدوار التي مرّ بها في حياته، والأحداث التي واكبها منذ نعومة أظفاره، من حين ولادته إلى يوم استشهاده، فحياته مليئة بأحداث هامة ومواقف تمثل أروع صور البطولة وأسمى حالات الإيمان والتضحية في سبيل الله والذود عن كيان الإسلام.

كما أن ثورته عليه السلام في نطاقها الديني قد أضعفت وجود الردة ووجوه العودة إلى الجاهلية وأرست مبادئ الدعوة الإسلامية من جديد، على أسس وأركان غذيت بالدماء وافتديت من أجلها الأرواح. وثورة الحسين في إطار التاريخ الإنساني تقف بصفحاتها البطولية ووقائعها الخالدة في مقدمة التوازن والنهضات التي تمثل الإصرار على المبادىء والبقاء على العقيدة في مواجهة الظلم وانحراف المتسلطين والمستبدين.

وقد كان بودي تحقيق مثل هذا العمل بوضع كتاب يستوفي أغلب جوانب ثورة أبي الشهداء ولكن وجدت نفسي لا أملك من الوقت ما أستطيع

به تحصيل ما أريده فاقتصرت على مرافقته عليه السلام في مسيرة النهضة منذ البداية، ولم استوعب في حديثي كلما يتعلق بالحادث، إذ تركت الكثير اختصاراً وأعرضت عن أمور كان الإعراض عنها أولى.

وهذه الصفحات التي سجلتها ليست دراسة تحليلية وإنما هي لمحات خاطفة صيغت بأسلوب يناسب إحياء الذكرىٰ.

وقد أجهدت نفسي أن أتناول الموضوع بمزيد من الجهد والأمانة التاريخية، لإثبات أهم الوقائع من طرق متعددة، ومصادر مختلفة، أشبه ما تكون بالعرض الموجز لنهضة الحسين عليه السلام كما التزمت خطة التدقيق، والتمحيص كشرط من شروط المسايرة لموكب الأحداث؛ لأجلو ما يحيط بجوانبها من غموض جهد الإمكان وقدر المستطاع، وحاولت الابتعاد عن التعرض للحديث عن الفجائع المؤلمة والحوادث المروِّعة، التي عبَّرت عن أبشع أنواع الحقد، وجسَّدت مبلغ ما يصله الإنسان من القسوة، كما أنها أوضحت جانباً من ردود الفعل الذي كان في نفوس أعداء الإسلام، ولكن لم أستطع التخلي عن ذلك، ووجدت نفسي ملزماً بأن أتعرض لبعض منها، لإعطاء صورة عما تجسده وحشية أولئك القوم وجاهليتهم.

وإن تلك الحوادث تملي علينا دروس العبر، وتكشف جوانب من العصبيات القبلية، التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، فهي تتحكم في مشاعرهم وتفكيرهم.

ومن الواضح أن حادثة الطفّ هي مأساة الأمة وفاجعة الإسلام الكبرى والحديث عنها هو حديث الشجون والعبرات، وأنها مدرسة العبر والشواهد التي تظل دائماً بحاجة إلى الوقوف عليها، والاتعاظ بها، واستلهامها؛ لتكون دليلاً لنا في مسيرتنا دوماً؛ فهي عبرة الزمن، ومدرسة الأجيال؛ يستمد منها المسلمون دروس التضحية.

ولقد سرت مع البحث حسب ما يقتضيه الوقت فالتزمت الموضوعية في كلِّ ما تعرَّضت له من أحداث. وحاولت أن تبرز الثورة في إطارها التاريخي طبقاً لمواقعها من دون دخل للعواطف والميول.

وبرغم كلّ ما بذلته من جهد لا أجد نفسي مهيئاً للادّعاء بشيء جديد.

كما أن هذا الحادث العظيم لم يزل بحاجة إلى بحث شامل، ودراسة متواصلة من قبل حملة الأقلام ورجال الفكر، فهي شديدة الروابط والصلة بحياة المسلمين، وهي في كلّ حين مادة نستمد منها كلما يمكن أن يستمده المسلمون مما يساعد في توجيه الأجيال للخير، وحضّهم على الالتزام بسير الأبطال، الذين استهانوا بالحياة، اعتزازاً بدينهم وحرصاً على كرامة أُمتهم.

وختاماً، أملي يا أبا الشهداء أن تقبل مساهمتي المتواضعة في حمل راية الثورة معكم، ومسيري في طريق نهضتكم، وأن أوفق فيما عرضته وتطرقت إليه في حديثي عن نهضتك، وإن كان كلّ ما بذلته من جهد لا يفي حقها من البيان، فسلام الله عليك وصلاته. وأشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهَّرة لم تنجسك الجاهلية بأرجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها وأشهد أنك من دعائم الدين وأركان المسلمين.

أسد حيدر

الحسين (عليه السلام)

لمحات من حياته

(حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا حسين سبط من الأسباط)

الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)



الحسين

هو سبط رسول الله وريحانته، أبوه علي بن أبي طالب، بطل الإسلام، وأمه فاطمة الزهراء بضعة الرسول محمدﷺ، وهي أم النسل الطاهر والذرية الطيبة، فكان له أشرف نسب، وأطيب عقب.

ولدعليه السلام في الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة.

كنيته أبو عبد الله وألقابه كثيرة أشهرها: سيد الشهداء، وسيد شباب أهل الجنة، وقد لقّبه النبي بذلك كما جاء في الحديث عنهﷺ: من عدة طرق:

«من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي.

واشتهر عنهﷺ من عدة طرق قوله في الحسن والحسين: أنهما سيدا شباب أهل الجنة، كما لُقب الحسينعليه السلام بالسبط وأنه سيد الأسباط.

أخرج الترمذي في صحيحه ص٣٠٧ بسند عن النبيﷺ أنه قال:

حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط.

وفيه بسند عن حذيفة عن النبي ﷺ: أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

وكان الحسين عليه السلام منذ ولادته يرعاه جدُّه بعطفه وحنانه، ويعلن للناس بمحله منه وحبه له، ويظهر فضله للأمة ويكثر من وصاياه فيه وفي أخيه الحسن وبلغ من حبه له ولأخيه الحسن عليه السلام أنه كان يخطب على المنبر، فأقبلا يتعثران فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر وقال: صدق الله العظيم ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

وكان يلفت الأنظار إلى علو شأنه وجلالة قدره فيحمله ويضمه إلى صدره ويخرج إلى الناس، فإذا جلس وضعه على فخذه، وإذا مشى لحظه بعينه، ويحدثنا شاهد عيان أنه رأى النبي ﷺ كان يحمل الحسين ويقول افتح فاك ثم يقبله ثم يقول: اللهم أحبه فإني أحبه. وشاهد العيان هذا هو أبو هريرة فيقول: أبصرت عيناي هذه وسمعت أذناي رسول الله... الحديث.

وكان أبو هريرة يجهر بهذا الحديث وبغيره، حتى وجد عليه الأمويون مع حبهم له، فهذا مروان بن الحكم يقول لأبي هريرة عند مرضه حين جاء مروان لعيادته: يا أبا هريرة ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلاّ في حبك الحسن والحسين. فتحفز أبو هريرة فجلس وقال: أشهد لقد خرجنا مع رسول الله فسمع الحسن والحسين يبكيان فقال: ما شأن ابنيّ؟ فقالت فاطمة: العطش.. إلى أن قال لمروان: كيف لا أحب هذين وقد رأيت من رسول الله ما رأيت[2].

وقال أبو هريرة: ما رأيت الحسن والحسين إلاّ فاضت عيناي وذلك

---

(١) أخرجه ابن كثير في ج٨، ص٣٣ وابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان ص٣٠٨.
(٢) ابن عساكر ج٤، ص٢٠٨.

إني رأيت رسول الله يدخل فمه في فمه ثم يقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه. يقولها ثلاث مرات.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحمل الحسين ويقبل شفتيه وثناياه[1]

* * *

وكان الحسين خلال السنوات التي أدرك فيها جده ملازماً له في كلّ أوقاته في إرشاده، وأداء فرائضه، حتى في ساعات فراغه، فقد نال رعايته وعطفه وجلّله بحنانه، فهو موضع عطفه ولطفه، وكان يقرع الأسماع وينبه الأذهان موقفاً بعد موقف بما يدل على عظمة الحسين واهتمام النبي به، حتى اعتبره جزءاً لا يتجزأ منه، فقال ﷺ: حسين مني وأنا من حسين.

فهذا منتهى ما يوجب على المسلمين رعاية حقّ الحسين والاهتمام بأمره فهو من النبي لحمه ودمه، والنبي منه في امتداد دعوته، وبقاء رسالته في جهاده ونضاله.

وقد رافق الحسين موكب الدعوة الإسلامية، وعاش وسط ذلك المجتمع الذي وجهه الرسول الأعظم بإرشاده وهدايته، وشاهد مواقف جده وخلص أصحابه في سبيل نصر الإسلام ونشر مبادئه، واستقبل أيام حياته الأولى وهو يحظى بتلك الرعاية من جده العظيم، وتربية أبيه أمير المؤمنين، وحنان أمه فاطمة الزهراء فكان الحسين موضع احترام الصحابة، وحبهم له، ويحدثنا التاريخ عن الخليفة عمر وهو على المنبر في المسجد يخطب ولعلها أول خطبة يقوم بها أو أول مرة يراه الحسين فيها.

---

(١) التذكرة، ص٢٣٢.

فمر الحسين به وناداه بكل جرأة وثبات وقوة فقال له: إنزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك.

فأجابه عمر بكل هدوء: لم يكن لأبي منبر، ثم أخذ بيد الحسين بلطف ولما ذهب إلى بيته أخذه معه[1]

* * *

لقد شهد الحسين وقائع الإسلام، ووعى تعاليم جده وشهد عدة حوادث وله مع الخلفاء مواقف، من يوم السقيفة وما رافقها من أحداث، وما خلفته من حوادث.

وعاش مع أبيه علي أمير المؤمنين يتلقى تعاليمه وينهج نهجه، وحضر معه حروبه في الجمل وصفين، والنهروان، وفي تلك الفترة شاهد حكومة الإسلام العادلة ورأى تطبيق النظام السماوي، في ظل ذلك الخليفة العادل، والذي لم يكن لأحد فيه مطمع ولا لقائل فيه مغمز «فعلي مع الحق والحق مع علي» يدور معه أينما دار، فلا يهمه تفرق الناس عنه ما دام محقاً.

وأقام بعد أبيه مع أخيه الحسن سبط رسول الله والمصلح الأعظم، والصابر في جنب الله صبراً لا يتحمله سواه، والممتحن في ذات الله، وهو شقيق الحسين وهما رضيعا لبن الطهر فاطمة، ترعرعا في أحضان الإمامة، ودرجا في ربوع الوحي، ونشآ في ذلك البيت الطاهر الذي رفع الله قدره، فأنزل فيه قرآناً يتلى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

فعاش معه باحترام فلا يخالف له رأياً ولا يقطع دونه أمراً ولا يتقدم عليه.

* * *

(١) الإصابة، ج١، ص٣٣٣.

أتى رجل للحسن بن علي يسأله فقال الحسن: إنّ المسألة لا تصح إلاّ في غرم فادح، أو فقر مُدقع، أو حمالة مفظعة.

فقال الرجل: ما جئت إلاّ في إحداهن، فأمر له بمائة دينار، ثم أتى الرجل الحسين بن علي عليه السلام فسأله، فقال له مثل مقالة أخيه، فرد عليه كما رد على الحسن، فقال: كم أعطاك؟ قال: مائة دينار، فنقصه ديناراً. كره أن يساوي أخاه. ثم أتى الرجل عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء، فقال الرجل له: إني أتيت الحسن والحسين، واقتصَّ كلامهما عليه وفعلهما به، فقال عبد الله: ويحك؟ وأنّى تجعلني مثلهما! إنهما غُرّا العلم غُرّا المال[1]. أي زقا العلم زقا، يقال: غر الطائر فرخه إذا زقه ومنه قول معاوية: كان النبي غرَّ علياً بالعلم غرا[2].

واختفت الأحداث وراء ستار الإهمال في عهد أبي بكر وعمر، فقد عاشرهما الحسين مدة من الزمن وشاهد وقائع تلك الفترة، ولأن خفيت حوادث عهد الحسين في أيام الشيخين ولم يظهر إلّا اليسير منها فلم تستطع يدُ الضّياع إخفاء ماكان يتمتع به الحسين في عهدهما من سموّ منزلة، وشمول رعاية وتقدير فائق، واحترام وتبجيل منهما ومن جميع الصحابة في عهدهما، وقد حملوا للناس أحاديث عن صاحب الرسالة، تدل على منزلة الحسين وأخيه الحسن وقد جاءت بها كتب الصحاح والسنن ولا مجال لذكرها هنا.

ولقد أكدت الروايات احترام أبي بكر للحسن والحسين بصورة خاصة.

---

(١) عيون الأخبار ابن قتيبة ج٣، ص١٤٠.
(٢) نفس المصدر الهامش.

وكان عمر يحترمه ويحبه ويأذن له بالدخول قبل أن يأذن للعلية والمتقدمين من الأنصار والمهاجرين.

أما في عهد عثمان فقد اصطدم بتلك الحوادث وشهد ذلك العهد المليء بالمنازعات، والمشاحنات، والعصبية القبلية، وقد ظهرت فيه الأثرة وحب المال، بما لا عهد للمسلمين به من قبل، وكانت بينه وبين مروان وغيره من دعاة الفتنة، وأبطال إثارتها، مشادّة ومقابلة، حتى حقد عليه مروان فوق ما كان يحقده على أهل هذا البيت، ولا زال حاقداً عليه حتى قتل عليه السلام شهيداً، وأظهر مروان الشماتة في قتله حتى أنكر عليه أخوه وقال:

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد ... وتهتزّ بشراً والسبايا كرائم

ولقد وقف عليه السلام لمعاوية بالمرصاد، وحاسب ولاته أشد الحساب ولم يستطع معاوية بدهائه وتصنعه في حلمه ومخاتلته في سياسته أن يجلب ودّ الحسين ويكسبه إلى جنبه، أو يهدئ ثورة غضبه عليه.

ولقد رأى الحسين عليه السلام تخاذل الأنصار عن أبيه وخيانة من كان يدعي الإخلاص له وكيف قامت الحرب بينه وبين عائشة في البصرة، تلك الحرب التي أوقد نارها جماعة لهم أغراض خاصة. كما رأى كيف لعبت يد التمويه والدجل بعقول الناس وكيف عاثت الفتنة في المجتمع الإسلامي في بدايته وعهده الأول.

وكان هو عليه السلام أحد القادة، ومن باشر الحرب بنفسه يوم الجمل.

وحصر معركة صفين، واشترك فيها وتولى قيادة بعض القطعات وأدرك كيف امتدت لجيش أبيه المتماسك أيدي عابثة تثير غبار التخذيل وتوقد نار الفتنة، باسم الإصلاح، والمطالبة بالحق أو المحاكمة للقرآن فحدث ذلك الانقسام الشائن، فكان تحكيم بغير ما أنزل الله، وتكونت جبهة قوية انفصلت من جيش أبيه وكانت حرباً عليه حتى كان من نتائج انقسامهم في

صفين أو بعد التحكيم تدبير المؤامرة التي أدت إلى استشهاد والده الإمام علي عليه السلام في محرابه.

* * *

ثم واصلت تلك الفئات مسعاها باستمالة عناصر بعيدة عن الإسلام وكسب جماعات تتحكم بها المصالح والقيم القبلية والنزعات الشاذة التي تنافي الإيمان لتنفذ غدرها وتحدث في صفوف جيش الإمام الحسن رجة تخاذل وهزة تكاسل فكان الصلح أسلم الطرق وكانت المعاهدة بين الإمام الحسن وبين معاوية بشروطها وبنودها أضمن عمل يحمي المسلمين ويجنب دعوة الحق ما كانت ستوفره محاولات الغدر والانهزام من فرص لمعاوية والعهد ـ لو لم ينقضه عملياً معاوية ـ من أعظم وسائل دفع الخطر عن الأمة بطريق عهد الله وأيمانه ولكن من أين للطلقاء أن يصدقوا عهد الله ويرعوا الأيمان.

وعايش الإمام الحسين تلك الأحداث وشهد آثارها في المجتمع ولم تكن أساليب الغدر والتحليل لتمر بشكل عابر أو تذهب آثارها سريعاً لأن موقف الإمام الحسين كان متسماً بالصلابة في الحق وعدم التساهل في مصالح الدين وشؤون الأمة الإسلامية فجعل من الصلح حقيقة وعهداً يتقيد به ما دام طرفه الآخر على قيد الحياة لأن العهود والمواثيق يجب أن ترعىٰ من قبل أهل الدين ويقوم أتباع الحق بواجبهم في الالتزام بما يصدر عنهم في مواجهة نوايا الغدر وهكذا مر الإمام الحسين بتجربة عظيمة الخطر ومحنة قاسية ولكنه كان بصلابة إيمانه وثبات عزيمته يمد بناظريه إلى المستقبل في ضوء مسؤولياته الدينية وواجباته الاخلاقية فلم تؤثر عليه الأحداث وما ازداد أمام استشراء خطر الانحراف الأموي إلّا صلابة وتصميماً واختار منذ اللحظات الأولى من خلافة معاوية منهج الإصلاح وطريق النهوض بأعباء الرسالة فقد وضحت ملامح الردة وظهرت بوادر الانتقام والثأر من الفئة التي

دحرها الإسلام بالأمس وأجبرها على الاستسلام فلجأت إلى وسائل وأعمال لا تمت إلى الإسلام بصلة وتهيأت إلى إرساء سلطانها وبناء حكمها على أُسس تخرج عن قواعد النظام الإسلامي وتجافي قيمه العادلة.

وبدأ معاوية بتنفيذ سياسته في إقامة سلطته على الملوكية وتحويل الدولة إلى الأمويين كبيت مالك يسير على نظم الدول السابقة التي ثلَّ الإسلام رؤوسها وقضى على نفوذها ويظهر الأمويون بزعامتهم القبلية وقيمهم الجاهلية ملوكاً وحكاماً فتنتهي إليهم نتائج الفتوحات وانتصارات جيوش الإيمان والرسالة ويستحوذون على سلطان الإسلام بمؤامرة مكشوفة وردة مفضوحة.

فكانت ولاية العهد بمضمونها الملكي الذي يرفضه الإسلام ويتبرأ منه هي الخطوة الأولى التي قام بها معاوية ولم يكن أمامه إلّا أن يزيد من الإرهاب ويستخدم القوة والعنف. وهنا تبلغ المواجهة مستوىٰ جديداً فكان متوقعاً أن يقف الإمام الحسين بوجه سعي معاوية إلى الملوكية لأن تحقيق مبدأ ولاية العهد بهذا الشكل كاف لإثارة الحمية الدينية في نفوس أهل الإسلام وأصحاب العقيدة فكيف إذا كانت ولاية العهد تعييناً ليزيد وإسناد الخلافة إليه فذلك يعني انتصار العناصر المعادية للإسلام، واستيلاء التجمع المعادي لدعوة محمدﷺ على مقاليد الأمور وجمع شتات تلك الفئات الشريرة التي فرقها الإسلام بانتصار دعوته. فكانت ثورة الإمام الحسين هي قاعدة انطلاق دعوة الحق لصد هجمة الباطل ومنع عودة الجاهلية بثوب يتهدد المبادىء والقيم ومصالح الناس فكان لا بدّ من اتخاذ موقف يكون الحد الفاصل بين نجاح تلك العناصر في سعيها ومراميها التي كانوا يعملون لتحقيقها منذ خلافة أبي بكر ولتكن المعركة التي هي معركة تصفية ومقابلة الفناء والإبادة الموجهين لكلّ عوامل الخير في المسيرة الدينية ومبادئ الحق في نشر الدعوة الإسلامية.

وبقدر حقد تلك الفئات المغلوبة والمهزومة في ظل قيم الدين كان تحمسها لفكرة ولاية العهد وتأييدها لتنصيب يزيد وقد أخذت تستعد لخوض المعركة في سبيل تحقيق أهدافها والقضاء على المعارضة لولاية العهد لأن فشلها يعني خيبة أمل لهم وتقويضاً لصرح أحلامهم فكان موقف الحسين وهو يتصف بالشجاعة والصلابة في الحق هو الخطر الذي يفزعهم بقاؤه كما يفزعهم كتاب الله ودعوة نبيه الهادي ﷺ.

فحاولوا أن يستلوا من الحسين اعترافاً بولاية يزيد أو يضمنوا سكوته ويتجرأ مروان فيقول لأبي عبد الله الحسين: يا أبا عبد الله إني لك ناصح فأطعني ترشد. فقال الحسين عليه السلام: وما ذاك قل حتى أسمع فقال مروان: إني آمرك ببيعة يزيد بن معاوية فإنه خير لك في دينك ودنياك فقال الحسين: إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد ولقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان.

فوجدوا أن أمرهم في خطر أمام هذا الثبات والتصميم على القيام بما يمليه الكتاب والسنة فاستخدموا كلّ السبل لحمل الإمام الحسين على الاستسلام والاعتراف بما نهى عنه النبي محمد فضربوا الحصار حوله بأساليب الحكم ووسائل التهديد والمضايقات المختلفة ولكنه وقف بوجه كلّ تلك المحاولات وكان يرد: «إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة وبنا فتح الله وبنا ختم الله ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحرمة يعلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله».

ومن هنا نرىٰ كيف أجج موقف العقيدة والإيمان أحقاد أميّة وارت نيران بغضها لآل محمد فكانت أحداث مأساة كربلاء وفجائعها التي يندى لها جبين كلّ إنسان على مختلف الشرائع والأديان فما حدّث التاريخ بمثل

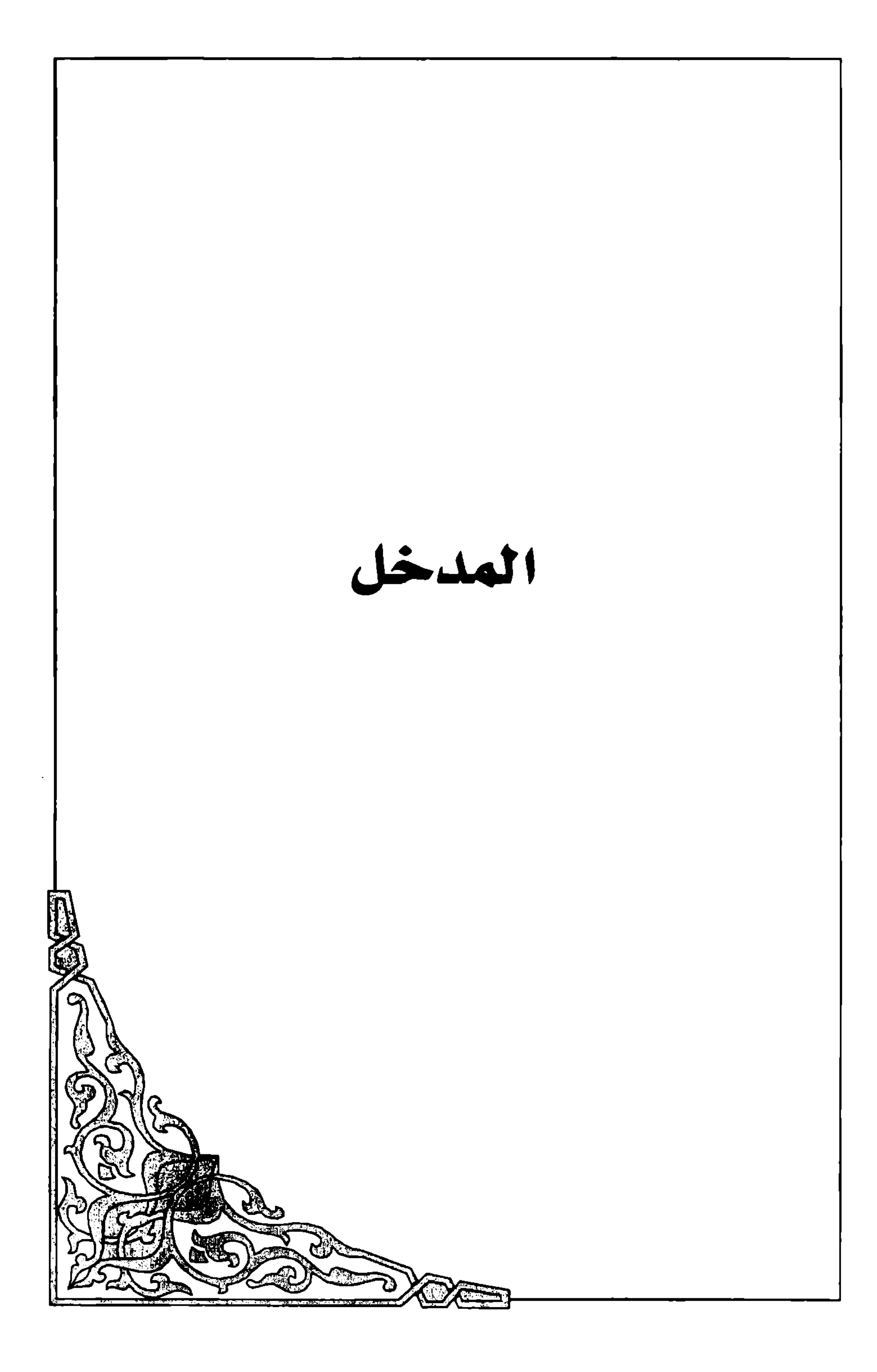
وقائعها وما شهدت الأيام مثلها بمرور الزمن وقد كان واضحاً إنما كانوا ينفسون عما في نفوسهم تجاه صاحب الرسالة ودين الإسلام ولقد تجمعوا بصورة تتجاوز متطلبات الحرب وحدود تصور موازنة القوىٰ المتحاربة فكانت صفحة جديدة من الصراع العنيف بين الإسلام وخصومه فشمل حقد المرتدين الأطفال وذبحوا الرضع منهم وسبوا نساء النبي. فأي ضمير له من الحياة بعض شيء يرتضي جرائم أولئك الأمويين؟ وأي مسلم له من الإيمان ذرة يرتضي لنفسه أن يشرك الأمويين بأفعالهم فيتردد في الحكم عليهم بالكفر ولعنهم والتبرؤ منهم؟

لقد اتجه الحسين بكل شعوره إلى خالقه يستنزل النصر ويطلب العناية التي طالما رافقته في كلّ أدوار حياته فكلما اشتدت حراجة الموقف كشفها بقوة الإيمان وثبات العزيمة فكانت نهضته امتداداً لدعوة جده في نشر الإسلام وتجسيداً لقوله ﷺ:

(حسين مني وأنا من حسين)

ولذلك لا عجب أن يبقى الحسين خالداً وأن تظل ثورته مصدراً للوقوف بوجه الطغاة والجائرين وأن نرىٰ الطغاة من حكام اليوم يستفزهم ذكر ثورة الطفّ ويثيرهم التمسك بشعارها الذي أطلقه سيد الشهداء:

(لا أرىٰ الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً).



المدخل

نشبت الحرب وحمى وطيسها بين أهل العراق وأهل الشام، ودامت زمناً لا يقل عن سنة ونصف السنة، وكانت الحرب سجالاً، ظهرت فيها البطولات، من الجانبين، وأبلى العراقيون، بلاء حسناً وكان جيشهم يضم عدداً كبيراً من الصحابة: بدريين وغيرهم وقد كشف مقتل عمار ابن ياسر حقيقة موقف معاوية وأتباعه، وأنهم البغاة على إمام الحق، لما اشتهر عن النبي إذ قال لعمار: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية»:

ورجحت كفة العراقيين، وكان النصر حليفهم، في أكثر المواقف حتى مرت الحرب بأعنف ما شهدته الحروب من بسالة وإقدام. وتغلب جيش الإمام علي، وكاد معاوية أن يخسر المعركة، ويلوذ بالهزيمة لولا خديعة رفع المصاحف، وطلب التحكيم إلى القرآن.

* * *

إنها لخديعة ماكرة، استطاع بها ابن العاص أن يحدث الانقسام في صفوف العراقيين خداعاً وتضليلاً، إذ انطلت هذه الخدعة على البسطاء، فقبلها أولئك السذّج وهم قلة، فأحاطوا بالإمام علي﵇ وقابلوه بشدة يطلبون إيقاف القتال، وإرجاع الكتائب الزاحفة نحو مقر القيادة، وقد قاربت الاستيلاء عليه فكانوا يطلبون بإلحاح عودة الجيش الذي زحف بقيادة مالك الأشتر.

وقابلهم الإمام علي عليه السلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان بالإمكان ردهم بالقوة ولكنه عليه السلام كان أبعد نظراً، وأعلم بالعواقب، إذ يصبح الأمر معكوساً، عندما يموه به معاوية على الناس بأن علياً يقتل من يطلب تطبيق أحكام القرآن، وإن معاوية لا يتعدى ذلك، وهناك تصاغ الأحاديث فيصبح «معاوية مع القرآن. .» طبقاً لمنطق الخداع، ونتائج التضليل، وعواقب الجهل الوخيمة.

فوقع التحكيم على خلاف الحق. وأثر النفاق والمخاتلة أثراً أدى إلى أسوء العواقب فوقع الانقسام، وانعزل الخوارج، وكونوا جبهة ثالثة، تشارك أهل الشام في بغض علي وأعدائه، وتفارقهم بعداء معاوية.

ولم يحاربهم الإمام عليه السلام إلاّ بعد أن ركبوا رؤوسهم، واستعملوا العنف فأرسل إليهم عبد الله بن عباس لإطفاء نار الفتنة، ولكنهم أصروا على موقفهم العدائي وأجمعوا على البيعة لواحد منهم اسمه: عبد الله بن وهب الراسبي، وقد عرفوا بالحرورية نسبة إلى حروراء: بلدة خرجوا إليها. وتجمعوا هناك لإحكام خططهم.

وساروا بنشاط وعنف وتطرفوا إلى درجة استحلال دماء النساءوالأطفال ومن أمثلة أعمالهم الإرهابية أنهم قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم.

ومما يدل على تعطشهم لدماء المسلمين والعفو عن غير المسلمين: أن واصل ابن عطاء وقع في أيديهم مرة فادعى أنه غير مسلم وكانت وجهة نظره أن ذلك أدعى للحفاظ على حياته؛ مما لو عرف عنه أنه مسلم مخالف لهم وقد صح ما توقعه فقد كان ادعاؤه الشرك «تقية» سبباً في نجاته منهم.

كما أنهم قتلوا عبد الله بن خباب بصورة بشعة، وكان في عنقه المصحف ومعه امرأته، وبعد حوار طويل جرى بينهم يفيض بالحكمة من

جانب ابن خباب والغلظة من جانبهم، فعمدوا إليه فقتلوه وبقروا بطن امرأته، وهي حامل.

وكثر فسادهم في الأرض فخرج إليهم الإمام علي عليه السلام وأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وفي هذه الموقعة قتل زعيمهم ابن وهب، وكاد الإمام علي عليه السلام أن يقضي على الخوارج قضاء مبرماً، لولا أن تربصوا به، وتآمروا عليه. بالاشتراك مع معاوية بن أبي سفيان، وشاء الله أن يمضي الإمام علي شهيداً في ليلة القدر، بمحراب مصلاه، في مسجد الكوفة، عند إداء فريضة الصبح، فسلام الله عليه من إمام عادل وشهيد مجاهد في سبيل الله.

* * *

تولى الإمام الحسن عليه السلام إمرة المؤمنين بعد أبيه، وكانت البلاد مرجلاً تغلي من القلق والاضطراب، والكوفة بصورة خاصة تعجّ بالخلافات، وتموج بالفتن والخصومات، إذ الخوارج اتخذوا دعاية الفرقة سلاحاً للنقمة، فهم موتورون يعملون بكل جهد لأخذ الثار ممن شارك في النهروان، ولما كانوا أقلية في ذلك المجتمع المزيج بالعناصر الغريبة عن الإسلام، والتي تسللت إلى مجتمعه لتحقيق مآرب لها وتنتقم من المسلمين الذين أسقطوا عزَّ دولهم وثلُّو عروشهم.

لقد كانت هناك جماعات نصرانية، ومجوسية، وزرادشتية، ومانوية ويهودية، وهم الذين أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة إلى الكوفة فكانوا العنصر القوي الذي لعب دوراً في حوادث الكوفة، وتغيير اتجاهاتها وكان جهد الخوارج منصباً على تفرقة الناس عن الإمام الحسن، وهذا الأمر هو الذي يسعى إليه معاوية، إذ كان يسعى إلى تخويف الناس وتفرفة أنصار الحسن وأتباعه، فإن تم له ذلك نجح في امتداد نفوذه على

العراق، لتصبح الكوفة تحت سلطانه ونفوذه، وقد لمس جانب الضعف في بعض الجوانب.

* * *

وتقدم الحسن عليه السلام بذلك الجيش الذي كان في حياة الإمام علي عليه السلام معداً لمواجهة معاوية بحرب طاحنة، استعد معاوية للمواجهة المروعة، ولكنه استعمل الحرب النفسية، واتخذ الخداع وسيلة ناجحة فأرسل من يتحدث في جيش العراق: أن قيس بن سعد قد صالح معاوية، وكان قيس من أعظم المخلصين للحسن وأكبر القواد في المعركة.

ثم استعمل معاوية التخذيل بالأموال، فبذل لعبيد الله بن العباس مالاً جزيلاً، فترك الحسن والتحق بمعاوية، وكان من قواد جيش العراق، المبرزين.

كما أرسل معاوية وفداً يتكون من: المغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عامر، وابن أم الحكم، فدخلوا على الحسن عليه السلام ثم خرجوا بعد مدة وأشاعوا بين الناس: بأن الحسن وافق على الصلح، وكل ذلك لم يكن، بل كانت غالبية الجيش مصممة على خوض المعركة، وكاد الموقف أن يتفجر عن حرب طاحنة بين الفريقين. ولكن الإمام الحسن عليه السلام كان على علم من تصدُّع وحدة جيشه، لما داخله من دعايات المغرضين وما قام به معاوية من أساليب إغراء ووسائل تضليل.

* * *

وقد أدرك الإمام الحسن خطر الموقف، ولمس جانب الضعف الذي ينذر بالخذلان، فوقف على مفترق الطرق، وهنا تبرز الحنكة السياسية، والتجربة المستفادة، فعلم أن دخوله الحرب مع تفكك القوى وتصدُّع الوحدة، وانتشار البلبلة، التي أوجدتها دعايات معاوية، سيؤدي إلى خسران

المعركة، ونجاح معاوية في إبادة رجال الإسلام والمنافحين عن العقيدة والموالين لأهل البيت.

ولا بدّ أن يبرز القائد بمثل هذه الظروف بدقة الملاحظة وشمول الهدف بمراعاة العواقب، والحساب الصحيح لنتائج المعركة، ورد خطر الحرب، التي أصبحت على وشك الانفجار، وليس وراء ذلك إلّا نقمة ماحقة، من قبل فئات تتربص به الدوائر لتضرب الإسلام ضربة حقد يأكل قلوبهم، وعداء متأصل، يدفعهم للانتقام فأراد الحسن عليه السلام أن يظهر ما كان مختبئاً في النفوس، فصعد المنبر وخطب الناس وقال:

(الآ وقد أصبحتم بين قبيلين، قبيل بصفين يبكون له، وقبيل بالنهروان يطلبون ثأره، أمّا الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، وأن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت، رددنا عليه، وحكمناه إلى الله.

وإن أردتم الحياة قبلنا وأخذنا لكم الرضا، فصاح الناس: البقية الباقية.

* * *

وكان معاوية هو الذي طلب الصلح من الحسن، وأرسل له صحيفة بيضاء يمليها بما يريد أن يشترطه الحسن لنفسه.

وكلما حاول الحسن عليه السلام مع خلص أصحابه إنجاح المهمة، وأبعاد شبح الخذلان لم يتأت له ذلك، فكان وقوع الصلح أو إيقاف القتال نتيجة حتمية، لرعاية المصلحة، ويتم هذا الإجراء نتيجة مدلولات استمرت مدة من الزمن، وإن لم يرق ذلك لبعض الزعماء، فوجهوا اللوم على الحسن في إيقاع الصلح وعرضوا له أن ينقض ذلك فأباه وأجابهم بخلاف ما أرادوا[1].

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف (خطي).

وتجرع خواصُّ أصحاب الحسن مرارة النكسة بقوة إيمان وعقيدة ثابتة ولكن فكرة الثورة لم تبرح أذهانهم وبقيت تخامرهم بين آونة وأخرى، لأن الظروف الحرجة والحوادثِ المؤلمة تدعو للاندفاع بفكرة الثورة مرة أخرى، فإن إيقاف القتال ودخول معاوية إلى الكوفة كفاتح منتصر أشعل في قلوب العراقيين الحماس والاستعداد للثورة، رغم انقلاب ميزان المعركة، التي خاضها العراقيون لصالح أهل الشام.

وتقدم البطل العربي المشهور حجر بن عدي قتيل مرج عذراء وكان أشد الناس تحمساً فقال للحسن عليه السلام:

(خرجنا من العذاب ودخلنا في الجور، وتركنا الحق الذي كنا عليه ودخلنا في الباطل الذي نذمه، ورضينا بالخسيسة وطلب القوم أمراً فرجعوا بما أحبوا مسرورين، ورجعنا بما كرهنا راغمين.

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام: ليس كلّ الناس على ما أحببت إني قد بلوت الناس فلو كانوا مثلك في نيتك وبصيرتك لأقدمت)[1].

وانطوت النفوس على الحسرة والتأثر من استيلاء معاوية بعد وقف القتال فالغالبية من أهل العراق يحاولون الخروج من هذا النطاق الضيق وكانت الكوفة تمثل أغلبية المعارضة، وتتمثل فيها الروح الثورية أكثر من غيرها وأراد معاوية أن ينتقم من العراقيين فأرسل زياداً والياً على الكوفة ومهمته القضاء على المعارضة التي يتزعمها حجر بن عدي الطائي.

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف ١ ـ ٢٣٨ مخطوطة مصورة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين في النجف الأشرف، تسلسل ٢٩٦٥ مخطوطات.

فكان أول إجراء اتخذه هو مطاردة الزعماء، ومضايقتهم فوقفوا في وجه تعسفه واستبداده، وصدوا هجمات حقده، ببطولة وبسالة فانفجر بركان أول ثورة بقيادة حجر بن عدي، ولكنها أخمدت بالقوة والمكر، ولقي حجر ابن عدي حتفه محكوماً عليه قتلاً بالسيف في مرج عذراء، مع ستة من أنصاره المخلصين، من زعماء الكوفة وذلك في سنة ٥١.

وقامت موجة سخط من الصحابة وأعيان الأمة على معاوية وفي طليعتهم الحسين عليه السلام بن علي إذ وجه إليه رسالة شديدة اللهجة.

ومن الصدف الغريبة أن حجر بن عدي هو الذي فتح عذراء، والعذراء هي الرملة التي لم توطأ، والدرة العذراء:

هي التي لم تثقب، وعذراء قرية بغوطة دمشق وإليها ينسب المرج فيقال مرج عذراء فتحها جيش المسلمين في حرب القادسية بقيادة حجر فكان جزاؤه أن يقتل فيها.

* * *

وأمام موجة العنف المتصاعد، وتحت ضغط سلطان الاستبداد الذي استعمله معاوية مع أنصار علي كان من المحتم الركون إلى التكتم واللجوء إلى العمل والتخطيط للثورة حفظاً على المبادىء التي كانت تلك الفئات ترى فيها تعبيراً عن إيمانها وعقيدتها وتجدُ في شخصية الحسين عليه السلام بعد أخيه تحقيقاً لآمالها المنشودة، فشخصت إليه الأبصار واتجهت إليه الأنظار فعقد أول اجتماع في الكوفة حضره زعماؤها، وقرروا إرسال وفد للمدينة لمواجهة الحسن عليه السلام وطلبوا أن يعاود الكرة في حرب معاوية، وإعلان الثورة من جديد، فإن امتنع الحسن فإلى الحسين عليه السلام.

وخرج الوفد من الكوفة فلم يجدوا عند الإمام الحسن جواباً لما يطلبون

وجاؤا للحسين عليه السلام يطلبون منه أن يدفع بالإمام الحسن إلى المعركة من جديد.

فقال الحسين: قد كان صلح وكانت بيعة كنت لها كارهاً فانتظروا ما دام هذا الرجل حياً «يعني معاوية» فإن يهلك نظرنا ونظرتم فانصرفوا عنه.

قال البلاذري: فلم يكن شيء أحب إليهم ـ أي الشيعة ـ من هلاك معاوية[1].

* * *

فكان هذا الموقف من الحسين عليه السلام أولى لأنه يرى من غير اللائق نقض ما أبرم والخروج على الاتفاق، ونقض العهود وبهذا فهو يمثل أسمى آيات الالتزام بالمواثيق التي تبرم.

كما أنه يكشف بذلك غدر الأمويين، ونقضهم لكلّ بنود الصلح وعدم التزامهم بكل عهد.

* * *

وعاد الوفد من المدينة ولم تنقطع الاتصالات بين أهل الكوفة وبين الإمام الحسن عليه السلام عن طريق إرسال الوفود التي تمثل الأكثرية من وجهاء الكوفة يفاتحونه في الأمر ويحثونه على النهضة، وإعلان الثورة ضد معاوية، فكان جوابه سلبياً، فاستعانوا بأخيه محمد ابن الحنفية فلم يتأثر بذلك، لأنه لا يريد مخالفة أخيه، الحسن، ولا يتعجل في أمر قبل إحكامه.

فلما مات الإمام الحسن عليه السلام قويت العزائم في توجيه الطلب من الحسين عليه السلام في الإجابة لما يطلبون، فقد أصبح هو الإمام بعد أخيه عليه السلام

---

(١) أنساب الأشراف. خط.

وعقدوا اجتماعاً قرروا الاتصال بالحسين فكتبوا له كتاباً مزجوا فيه تعزيته بوفاته أخيه واستنهاضه على عدوه وقالوا فيه:

إن الله قد جعل فيك أعظم الخلف ممن مضى، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك والمسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك[1].

وكان بنو جعدة بن هبيرة قد حضروا الاجتماع، ولصلتهم بالحسين عليه السلام من جهة الرحم، أسرعوا بالكتابة إليه يخبرونه عن هذا الاجتماع، ورأي أهل الكوفة فيه، وحبهم لقدومه. وتطلعهم إليه، وأنهم قد وثقوا من أنصاره ممن يرضون هديه، ويطمئن إلى قوله، فأفضوا إليهم ما هو عليه من شنآن آل أبي سفيان، والبراءة منهم، ويسألونه الكتابة إليهم برأيه.

فكتب إليهم عليه السلام: إني لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة ورأيي في جهاد الظَّلَمة. رشداً وسداداً، فالصقوا في الأرض، واخفوا الشخص والتمسوا الهدى ما دام ابن هند حياً. فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله)[2].

وبهذا يرسم الإمام عليه السلام خطة الدعوة السرية ويؤكد ضرورة التكتم، فامتثل أولئك الرجال المتحمسون لإعلان الثورة، وتحولوا إلى التكتّم قدر الإمكان، وواصلوا إلحاحهم على الحسين في الاستجابة وأخذوا يبعثون إليه الكتاب تلو الكتاب، يعرضون عليه التأييد له والبيعة، ولكنه كان عليه السلام مصراً على رأيه في التريث والانتظار، فكان جوابه عليه السلام على آخر كتاب لهم مع محمد بن بشير الهمداني وسفيان بن ليلى الهمداني مع وفد من أهل الكوفة أن أوصاهم بقوله:

---

(١) أنساب الأشراف

(٢) المصدر السابق، وتاريخ ابن عساكر ج٥٥ مخطوط.

ليكن كلّ امرىء منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الرجل حياً، فإن يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يخير الله لنا، ويأتينا رشدنا ولا يكلنا إلى أنفسنا فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.[1].

وقدم إليه المسيب بن نجبة على رأس وفد من الكوفة وهم يدعونه لخلع معاوية وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك.

فقال: إني لأرجو أن يعطي الله أخي على نيته، وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين[2].

وكان ورود وفود الكوفة بصورة علنية يبعث أعوان السلطة على الحذر من وقوع أمر يخشونه، فرفعوا الأمر إلى معاوية يخبرونه: بأن الحسين عليه السلام يعد العدة، وينتظر الفرصة للوثبة عليه، فبادر معاوية فكتب للحسين عليه السلام كتاباً يقول فيه:

وقد أُنبئت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جربت قد أفسدوا على أبيك وأخيك فاتّقِ الله، واذكر الميثاق فإنك متى تكدني أكدك[3].

والكتاب يعتبر تهديداً للحسين وتخويفاً له، فعبارات التمويه والمخاتلة تعرب عن سوء نية بحزم وقوة، ولا تخفى على أبي الشهداء الحسين بل تنهار أمام صمود الحسين عليه السلام وعزمه، وثباته وإقدامه، وكان رد الحسين بكل صراحة معبراً عن واجبه الديني تجاه معاوية وسلطانه، فقد جاء في الرد قوله عليه السلام:

---

(١) البلاذري ٢٣٧ مخطوط.
(٢) الذهبي تاريخ الإسلام ج٢، ص٣٤٠.
(٣) نفس المصدر.

أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عني جدير وما أردت لك محاربة، وما أظن لي عند الله عذراً في ترك جهادك وما أعظم فتنة من ولايتك هذه الأمة[1].

ويظهر لنا أن الإمام الحسين قد حرص على إمضاء الصلح وتطبيق العهد وآثر إرجاء أمر المواجهة إلى حين نهاية الطاغية وكما يتضح لنا أن معاوية بدهائه عمل على دفع الحسين إلى التحرك لإظهاره بموقف الناكث ومعاوية وهو على رأس السلطان يستطيع أن يوجّه الآراء كما يريد وأن يؤثر في جماعته وجنده كما يشاء، لأنهم لم ينتبهوا إلى ما عليه معاوية من غدر وخروج على الصلح ولم تحرك أعماله فيهم ساكناً.

وبقي الإمام الحسين يراقب أحوال الناس باهتمام ويأمرهم بعدم تجاوز النقمة والسخط على معاوية إلى مجال العمل الذي يعطي لمعاوية الذريعة في ارتكاب جرائم جديدة فكانت وصيته أن يكون أحدهم حِلساً لا يتحرك لأن تحرك الحلس يؤدّي إلى اضطراب البيت وقد كان واضحاً أن ارتقاب موت الطاغية يؤذن بالتحول من التكتم والسرية إلى النهضة من أجل عز الإسلام والثورة بالظالمين والبغاة.

* * *

وعاشت الكوفة أشد مراحل المحنة، وأعنف مواقف الاضطهاد ولاقت أقسى أنواع الظلم، لأنها ذات طاقات ثورية لا يؤمن انفجارها بين حين وحين.

ولكن معاوية حاصرها بجندٍ قساة، تحت أمرة زياد، وهو أقسى رجل عرفه قاموس رجال الظلم والاستبداد.

---

(١) المصدر السابق.

وأقام أبطال الكوفة وزعماء مصرها على وهج الانتظار يتحمسون لاستجابة الحسين في قيادة الثورة.

وبينما كانت الأمة في محنتها تتجرع كأس الالآم إذ فاجأهم نبأ إعلان ولاية العهد ليزيد بن معاوية، وأخذها بالقسوة والقهر من دون الرجوع إلى رجال الأمة واستشارة زعمائها.

فأثار النبأ ردود فعل عنيفة؛ لما عرف عن يزيد من تردٍّ في الخلق وانحطاط في السلوك، وخروج على الدين وهتك للقيم، ولكنها أمنية معاوية وهو أول مَن يقرُّ نظام ولاية العهد لحصر السلطة في البيت الأموي.

ولاية العهد

إقرار نظام ولاية العهد من محدثات عهد معاوية فقد فكر زماناً بأن يفرض هذا النظام ويصبح يزيد بحكم ذلك النظام خليفة المسلمين بالوراثة رغم نظم الإسلام وإرادة الأمة. فلا شيء أعظم على المسلمين من أن يتولى أمرتها شاب عرف بالنزق، والعزوف عن جميع القيم. لا يقين له ولا إيمان بعقيدته بتعاليم الإسلام، وهذا أمر يصعب تحمله وليس من الممكن الرضوخ له أو تقبله.

ولم يكن معاوية بذلك الرجل الذي يجهل الصعوبات التي تعترض فكرته؛ فالمجتمع الإسلامي حديث عهد بنظام الخلافة التي استقرت على أصولها وعادت إلى جذورها على عهد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، إذ هي تجسيد للعدل الإسلامي، ومثالٌ لتكامل شخصية الحاكم الذي يرعى الأمة بوعي وسداد.

ومعاوية أدرى بنفسه وأعرف الناس بولده يزيد، فلا ينسى معاوية الأسباب التي أوصلته للحكم، فهي بعيدة كلّ البعد عن شروط الخلافة وتولي هذا المنصب.

أما يزيد فهو أدرى به من كلّ أحد، ولكنه الحب والطمع في تخليد الملك وإعادة الزعامة الأموية في العهود الجاهلية إلى الوجود.

ويزيد لا تخفى حاله على سائر الناس، فلقد عرفه المجتمع بوفور اللعب واللهو والقنص، والنساء، وكلاب الصيد؛ إذ كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه[١].

ومن الخروج عن الواقع، أو التجني على الحقائق، وصف يزيد بما يؤهله للخلافة وتحسين الأمر لمعاوية وما ذلك إلّا من بواعث الحقد على الإسلام فيزيد قد عرفه الناس بأنه فاجرٌ مستهتر لا يتصل إلاّ ببطانة السوء، من خمارين وعازفين، وقد عرف بشرب الخمر[٢] مع تهاونه بالدين وكان يسكر ويترك الصلاة[٣] ويتصيد بالفهود، ويلعب بالنرد، ويدمن الخمر ومن شعره فيها:

أقول لصحبٍ ضمت الخمر شملهم ... وداعي حبابات الهوى يترنمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكلّ وإن طال المدى يتصرم[٤]

كما وصفه التاريخ وصوره بأنه لا يتصف بصفات المسلمين ولا يعرف إلّا التمرد والخروج على القيم كما احتفظ التاريخ وسجل أعماله التي هي صحائف سوداء من معاقرة الخمر ومنادمة القينات، وأكثر ما يرد ذكره على ألسن المغنين في أندية الهوى، ويغني بشعره على نغمات العود، وله النصيب الوافر من الأشعار التي سجلها التاريخ، ورددتها المغنيات في مجلس الشرب، وكان هو يرددها في مجالس لهوه وساعات طربه، كما غلب على أصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب[٥].

---

(١) العلائلي الإمام الحسين.

(٢) أخبار الدول للفرماني ص١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) الطبري ج٧، ص٤.

(٤) الدميري حياة الحيوان، ج٢، ص١٥٧ مادة الفهد.

(٥) المسعودي مروج الذهب ج٢، ص٧٤ بولاق.

كل هذا كان يقع بعلم من معاوية، واطلاع من خاصته وأنصاره إذاً كيف يجرأ معاوية على اقتحام عقبة المعارضة لفكرته في أخذ البيعة لرجل هذا بعض عمله، ولا يستغرب من يزيد تهاونه بالدين وعدم مبالاته بالمؤاخذة فإنه نشأ نشأة مسيحية، تبعده كثيراً عن عرف الإسلام وذلك لأنه يرجع بالأمومة إلى بني كلب، ومن بديهيات علم الاجتماع، أن انسلاخ شعب عن عقائده يستدعي زمناً طويلاً، على أن طائفة من المؤرخين ترجح أن من أساتذته بعض نساطرة الشام، من مشارقة النصارى وإذا صح هذا نعثر على سبب خطير يساعده على أن يظهر بهيئة الساخر من الأوضاع، التي ألزم المجتمع بها نفسه كما أن القبلية عملت فيه عملها، فخرج جافياً ذا عصبية قاسية[1].

وعلى أيّ حال فإن معاوية أعلم الناس بسيرة يزيد كما إنه على علم بالمجتمع الإسلامي وطبيعته في عدم تقبل البيعة وردها، وهو على علم من وجود كتل سياسية تتطلع لكسب المعركة، والاستيلاء على الحكم بعده عندما يعود الأمر شورى بين المسلمين في اختيار الأصلح للأمّة.

فابن الزبير قد كوّن حزباً سياسياً، وهو يتهيأ للوثبة. والأمويون أنفسهم وهم الحزب الحاكم قد رشحوا منهم من يتولى الخلافة بعده، وكان مروان ابن الحكم يطمع في ولاية العهد، لأنه كبير البيت الأموي[2] بعد معاوية وهو أبو عشرة، وجد عشرة ـ وأهم من ذلك أن الأكثرية الساحقة من العراق والحجاز وبعض الأقطار العربية كان اتجاههم مع الحسين عليه السلام وكانوا يختلفون إليه، ويدعونه للبيعة، ويقولون إنا لك عضد[3].

إذن لم يكن يزيد في الحسبان ولم يدخل في قائمة المرشحين أبداً لبعده عن كلّ المؤهلات فسقط من قائمة الحساب.

---

(١) العلائلي سمو الذات في سمو المعنى الحلقة الأولى.
(٢) المقدسي البدء والتاريخ، ج٥، ص٦.
(٣) أنساب الأشراف خطي ص٢٤٢.

ومعاوية لم يكن، بالرجل الذي يجهل مكانة أهل البيت من نفوس الأمة.

وقد وصلته أنباء استياء العراقيين بعد وقوع الصلح، وأنهم قد اتصلوا بالحسن، لإعادة الكرة إلى الحرب؛ لمحو آثار النكسة التي كانت من صالح أهل الشام وخسران أهل العراق، وكانوا دائماً على استعداد للوثبة وإعادة الحرب فواصلوا اتصالهم بالحسين وهم يلحون عليه كما أشرنا له من قبل، وهذه الأمور كان معاوية على علم منها واتصال دائم بأجهزة إعلامه، وهو يقدر تلك الظروف، فكان بين إقدام وإحجام حتى قوى عزمه بأناس لا يهمهم أمر الأمة، كاهتمامهم بمصلحة أنفسهم، كالمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه، وأحزابهم وقد تقدم إليه المغيرة بن شعبة يحثه ويغريه بولاية العهد لولده يزيد، وهو بذلك يطلب رضا معاوية فقد حصلت بينهما جفوة خشي المغيرة سوء عاقبتها، فوجد الطريق لعودة الأمور إلى حالها في إغراء معاوية لأخذ البيعة ليزيد ويتعهد المغيرة بأخذ البيعة من أهل الكوفة، وإن زياد بن أبيه قادر على أخذ البيعة من أهل البصرة، وإذا بايعه أهل العراق لم يختلف عليه أهل الحجاز، وأما أهل الشام فهم أنصار الدولة وجند الأمويين.

* * *

نشط معاوية في أخذ البيعة، عندما وجد أعواناً يناصرونه فالمغيرة بن شعبة داهية من دهاة العرب وزياد معروف ببطشه ونفوذه وأهل الشام أعوانه وأنصاره والمجتمع لا يخلو من أناس يتخذون الدين وسيلة لمآربهم، ومع هذا فلم يتسرع معاوية بل اختار التريث لدرس الفكرة، وعرضها على المخلصين من أعوانه، وأعاد المغيرة إلى ولاية الكوفة بعد أن فكر في عزله، والاستعاضة عنه بغيره، ولكنه جلب وده فاستعاد منزلته وثبت في ولايته عند عرضه لفكرة البيعة.

ومات المغيرة وضم معاوية الكوفة إلى زياد مع البصرة، فأصبح زياد والي العراق، وملحقاتها ولم يسرع زياد في الاستجابة لفكرة ولاية العهد بل أشار على معاوية بالتريث.

بعد مدة وبعمل متواصل استطاع معاوية أن يعلن للرأي العام فكرته ليرى مدى تأثر الناس بذلك.

فأعلن فكرته هناك بمجتمع من المؤيدين والمعارضين، وهو يعلم أن الشام لا تتأخر عن البيعة، وإن كان هناك بعض من لا يستجيب فالسيف يسوقه للالتحاق بركب الأموات بسرعة، كما أعرب الخطيب الذي يمثل معاوية بقوله:

أمير المؤمنين هذا . . . . وأشار لمعاوية

وولي عهده هذا . . . . وأشار ليزيد

ومن أبى فهذا . . . . وأشار للسيف

وبهذا المنطق افتتح دور إقرار نظام الوراثة للسلطة بولاية العهد الذي لا عهد للإسلام به.

وليس المهم اعتراف أهل الشام فإنهم يستجيبون لكلّ ما يأمرهم معاوية، وقد حمل التاريخ قول بعضهم معبراً عن الأكثرية الساحقة.

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نسميها أميرة مؤمنينا

إنما المهم في نظر الواقع وهو موضع اهتمام معاوية هو اعتراف أهل المدينة بولاية العهد، ومن بعدها الكوفة، فالمدينة هي مصدر التشريع الإسلامي ومهبط وحي السماء، وفيها أصحاب النبي، وهم أهل الحل والعقد، وأبناء المهاجرين والأنصار.

نعم إن المدينة في غاية من الأهمية فإذا استطاع معاوية أن يذلل

الصعاب التي تعترضه هناك فلا شيء يهمه إلّا الكوفة الثائرة والقاعدة العسكرية الهامة وهم الذين لا يقرون على ضيم ولا يخضعون للولاة. وللشيعة فيها شوكة وقوة وهو على علم بالتحركات ضده وباتصالهم بالإمام الحسين للثورة على معاوية منذ وقوع الصلح ومدة حياة الحسن وبعد وفاته وهذا أكبر شاغل يشغل باله. فأراد معاوية أن يسبر غور مجتمع المدينة، فأرسل زياد ابن أبيه وهو الظالم المتعسف إلى المدينة وعند وصوله خطب الناس:

وقال: «يا معشر أهل المدينة إن أمير المؤمنين حسُن نظره لكم وإنه جعل لكم مفزعاً تفزعون إليه، يزيد ابنه»[1].

وهذا يعتبر أمراً صارماً وتحدِّياً صريحاً لمقام الخلافة، فيزيد معلوم أمره مشهورة سيرته

فأثارت هذه الكلمة موجة سخط واشمئزاز، وتداول في الآراء وكيف يكون تدارك هذا الخطر، وظهر لمعاوية مقدارما تحمله هذه الفكرة من القبول والرد، فحاول أن يلبس فكرته صبغة الشورى أو الانتخاب الشعبي، فبذل جهده في تذليل الصعاب بكل ما لديه من الوسائل، حتى طريق القوة والإرهاب والخديعة والتحايل، وأجرى الاختبار مرة ثانية على يد مروان فأمره أن يقوم بهذه المهمة، وأن يموه على الناس بأن البلدان استجابت لولاية العهد، وبايعوا يزيداً وهو يريد أن يبايعوا له أسوة بغيرهم وكان مروان يطمع بولاية العهد فغضب مروان إذ لم يجعل إليه الأمر، لأنه كبير هذا البيت بعد معاوية، وهو مرشح البيت الأموي لكبر سنه، فكان يعد العهد ليزيد تحدّياً لمقامه واستهانة به، فغضب مروان من ذلك، وتعجل في

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٥٧.

المفاوضة فسار إلى الشام وكلم معاوية فترضاه بأن جعله وليَّ عهد ليزيد ورده إلى المدينة[1].

فأرسل مروان إلى وجوه أهل المدينة فجمعهم في المسجد الأعظم.

ثم صعد المنبر وتكلم بما أراد من وصفه معاوية في العدل والمحافظة على مصالح الأمة وأنه قد كبر سنه، وقد أراه الله رأياً حسناً وقد أراد أن يختار لكم ولي عهد يجمع الله به الألفة، ويحقن به الدماء، وأراد أن يكون ذلك عن مشورة فيكم وتراض فما تقولون؟

وهذا الكلام يبعث في النفوس أملاً قوياً في إجراء الشورى ورجوع الاختيار للأمة، وبالطبع إنها لا تختار إلاّ من له أهلية الخلافة، وهو المتحلّي بصفات الإمامة، وانمحت من خواطرهم فكرة بيعة يزيد، وزال التخوف من ولاية عهده، فإن زياد بن أبيه قد كدر صفو عيشهم من قبل إذ أعلن بيعة يزيد في ولاية العهد.

وانتظر الناس الإفصاح عن تلك الشخصية التي أرادها معاوية للأُمة جمعاً لشملها وحفظاً لمصالحها ويكون تعينه برضا الأُمة واختيارها.

فقال مروان: فإنه قد اختار لكم الرضا الذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهتدين وهو ابنه يزيد[2].

وهنا تظهر على ذلك الجمع موجة التأثر العظيم لهذه المهزلة وهذا التحدي لمجتمع عاش تحت ظلال الدعوة الصالحة، وعايش الخلافة الراشدة، فمروان هنا يقدم مهزلة لعقول صقل جوهرها الإسلام، فأصبح

---

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ج٥ ص٦.
(٢) أنساب الأشراف والخوارزمي ج١، ص١٧٢.

مروان يهزأ بذلك المجتمع ويحتقر القيم الخلقية وقامت ضجة إنكار، وتكلم وجوه أهل المدينة في رد هذه الفكرة، وطال الحوار وكان عبد الرحمن بن أبي بكر حاضراً فقال:

كذبت وكذب من أمرك بهذا والله ما يزيد بمختار ولا رضًى، ولكن تريدون أن تجعلوها هرقلية، ويزيد هو يزيد القرود ويزيد الفهود ويزيد الخمور[١].

وتفرق الجمع وهو ساخط على معاوية، والناس تتحدث عن هذه المهزلة التي مني بها الفكر الإسلامي، وأصبحت في المدينة موجة إنكار وأحاديث استغراب.

تدارك الوضع

ووصلت أنباء المدينة لمعاوية وهو يتطلع إلى النتائج بفارغ الصبر، وبلغة استياء الناس ومعارضتهم لفكرته، وحاول أن يتدارك خطر هذه المعارضة، فقدم المدينة واستقبله الناس، فأغلظ للمنكرين على مروان، ولقيهم بغلظة وقساوة، واشتد معهم في التأنيب. وهو يحاول أن يهيئ جواً ملائماً لقبول فكرته التي صمم على تنفيذها رغم المعارضة القوية.

وكان أكبر همه معارضة الهاشميين، وكان زعيم المعارضة هو الحسين ابن علي عليه السلام وهو سبط رسول الله والناس لقوله أسمع وله أطوع.

وبدون شك إن معاوية يقتنع من الحسين بالسكوت، أو البيعة الصورية ليتم له ما يريد، فأجهد نفسه في حمل الحسين على البيعة الصورية، ولكنه عليه السلام أعلنها غضبة وثورة، وقال كلمته في يزيد أمام جماهير المسلمين في المدينة، توهيناً لرأي معاوية وتكذيباً لما يقول، وذلك عندما قام معاوية

(١) الخوارزمي ج١، ص١٧٢.

خطيباً أمام ذلك الجمع يمدح يزيد ويصفه بما يقربه إلى القلوب، ويحببه إلى الناس، فكان رد الحسين عليه السلام بقوله:

«كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص وقد دل يزيد على موقع رأيه، فخذ من يزيد مما أخذ به من استفزازه الكلاب الهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن. والقينات ذوات المعازف. وضروب الملاهي تجده ناصراً. ودع ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية».

واستمر الحسين عليه السلام في تأنيب معاوية وتعداد جرائمه وفضح أعماله، ولما انتهى عليه السلام من خطابه، نظر معاوية إلى ابن عباس فقال:

ما هذا يابن عباس؟! ولما عندك أدهى وأمرّ.

فقال ابن عباس: لعمر الله إنها لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء، من البيت المطهر، فاله عما تريد فإن لك في الناس مقنعاً[1].

ورغم هذا كله فقد تحدى النواميس وتجاوز مقدرات الأمة وتنكر لمؤهلات الخلافة واستهان بمكانتها في المجتمع الإسلامي، وكلّ ذلك ينبعث عن نفسية لا تؤمن إلّا بالقبلية، ولا ترى إلّا طريق الوراثة من غير رشد، وقد صرح معاوية مراراً بقوله: «لولا يزيد لرأيت رشدي»[2].

وحيث لم يظفرمعاوية بما يريد فقرّر أن يأخذ أغلب الشخصيات المعارضة للبيعة معه إلى مكة، ويستعمل هناك حيلة في إظهار نجاح البيعة

---

(١) المسعودي ج٢، ص٧٤ بولاق.

(٢) تذكرة الخواص، ص٢٩٦.

أمام مجتمع الحجيج، فدخل مكة[1] وبذل الأموال، وأكثر الهدايا للأشراف، ثم جمع الناس في المسجد، وأمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كلّ رجل من الأشراف رجلاً بالسيف وقال:

«إن ذهب واحدٌ منهم يراجعني في كلامي فاضربوا عنقه. ثم صعد المنبر وخطب ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ولا يُقضى أمر من غير مشورتهم وقد بايعوا يزيد فبايعوا باسم الله.

وقد استعمل الحيلة ولجأ إلى التمويه فكان يظهر البشاشة للنفر الذين أبوا مع الحسين أن يعطوا عن يد بيعة لفاسق ويقروا مخطط الملك وتحول مقام الخلافة إلى عرش لجاهلية جديدة وملكية... وقد أصدر تعليماته إلى شرطته وحرسه: إن تكلم أحد من الذين أبوا البيعة بكلام يصدقه أو يكذبه فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه[2].

أما الأشراف فلم يمكنهم تكذيبه ومراجعته، وأما سائر الناس فلا جرأة لهم على الكلام، ولا علم لهم بشيء مما يقول، فأخذت البيعة ليزيد بتلك الصورة التي دبرها معاوية خديعة، ومَدَّ الناس بالأموال لشراء الضمائر، وقصدته الوفود لنيل رفده، وأغلبهم يؤكد البيعة ليزيد.

وقدم عليه أبو منازل وجماعة من العرب فأعطاه أقل مما أعطاهم، وكانت مكانته تعلو مكانتهم، فقال أبو منازل: فضحتني في تميم يا معاوية أما حسبي بصحيح؟ أولست ذا سن؟

---

(١) المقدسي البدء والتاريخ، ج٥، ص٦.
(٢) الإمامة والسياسة ص١٩٠.

أولست مطاعاً في عشيرتي؟

فقال له معاوية: بلى.

قالْ: فما بالك بخست بي دون القوم؟

فقال: إني اشتريت من القوم دينهم.

ووكلتك إلى دينك في عثمان؛ وكان عثمانياً.

قال: وأما أنا فاشتر مني ديني، فأمر له بتمام جائزة القوم[١].

وهذا هو أقوى العوامل التي ساعدته على تحقيق فكرته، وعمل المستحيل في سياسته، إذ أصبح يزيد ولي أمر الأمة، ووريث عرش الخلافة التي مالت بانحرافها إلى أبي سفيان ونزوا على مقاليدها من دون رضا المسلمين، ولا أخذاً برأي أيٍّ منهم.

* * *

في عهد يزيد:

أفاق يزيد من سكرته، وإذا بالبشير يزف التهاني إليه بأمرة المؤمنين فقد مات أبوه، ووطد له الملك، وذلّل له الرقاب فهو خليفته على الأمة، ووارث عرش المملكة، التي أجهد معاوية نفسه في إقامتها، وجعل يزيد من بعده عليها تحقيقاً لرغبته، وبلوغاً لأمنيته.

لقد مات معاوية[٢] وانتقل الأمر إلى يزيد، فأصبح يحمل اسم إمرة المؤمنين وقد عاش مع بطانة سوء، يلهون ويشربون ويعربدون، وعرف

---

(١) الطبري.

(٢) كانت وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠هـ.

بالمجون والصيد، ومنادمة النساء، واللعب بالفهود والقرود، وما أسوء حظ أمة يسوس أمرها رجل هذا عمله وما أضيع الحق في عهده، وما أعظم محنة المسلمين في أيامه.

مات معاوية وقام يزيد من بعده، ولم تبرح مخيلته جهود أبيه التي بذلها في تحقيق رغبته، بأن يصبح خليفته من بعده بمختلف الأساليب التي انتهجها، ووضع أمام عينيه ما أشار أبوه إليه، وأكد عليه في الحذر من المعارضة وأمره بالمسارعة في القضاء على رجالها كما جاء في وصيته له.

تقلد يزيد زمام الحكم، وواجهه لأول مرة، إذ لا سابقة له فيه وهو يختلف عما اعتاده في حياته من لهو وعبث ومجون، فلا بدّ أن يشعر بثقل المسؤولية ولا قدرة له على تغيير خطته فلا بدّ أن يتخذ بطانة سوء تدبر كفة الحكم، ويشاورهم في الأمر.

وقد كان يزيد يتزيد في تقريب المسيحين ويستكثر منهم في بطانته الخاصة، كما أنه يقع بينهم على من يمتزج به وينسجم معه ولقد اطمأن إليهم.

إن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً، مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الإسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي يستغرب أن يكون على غير ذلك[١].

كما ذهب إليه بعض من انحرف عن الواقع فراح يبرر موقف يزيد وأنه تنصل من قتل الحسين، خلافاً لما أجمع عليه المؤرخون: (من أن يزيد أمر

---

(١) العلائلي، ص٥٩.

ابن زياد بقتل الحسين) وأما تنصله من ذلك فإنه وقف أمام غضبة المجتمع على عظيم ما جنت يداه.

ولقد سر يزيد بقتل الحسين ووصل ابن زياد ثم لم يلبث إلّا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم فندم[١]. وسنرى في سيرتنا هذه حقيقة الأمر وواقع الحال.

---

(١) راجع ابن جرير وابن الأثير وابن واضح، وغيرهم



بداية المعركة

فوجيء المسلمون بنبأ خلافة يزيد بعد وفاة معاوية، وأسرع المعارضون لمواجهة الحسين، فقد آن الأوان لتحمُّل مسؤولية تنفيذ ما خطط من قبل للقيام بثورة ضد تلك الأوضاع. التي واجهتها الأمة في حياة معاوية، وقابلوها بالصبر والتحمل وهم ينتظرون عسى أن يتغير الوضع بعده إلى ما هو أحسن، ولكن إسناد الحكم ليزيد أمر لا يمكن تحمله.

ولم يكن الحسين عليه السلام بحاجة إلى من يثير عزيمته، فإن الواجب يحتم عليه القيام بالمسؤولية مهما كلّفه الأمر في الجهاد لحماية الدين، ولا طريق للسكوت فإنه يعرِّض الأمة الإسلامية إلى خطر لا يمكن تداركه، عندما تنشط العناصر المتداخلة تحت ظل الحكم القائم. والذين كونوا من أنفسهم كتائب لنصرة السلطة والقضاء على المعارضة، لأن حساب تلك العناصر أن الانتصار لمبادئهم قد اقترب وأنهم لا بدّ أن ينتقموا من المسلمين. والحسين هو الشخصية المسؤولة عن حماية الإسلام من تحكم المتدخلين وأن المهمة الملقاة على عاتقه مهمة ضخمة، هي انقاذ الأمة، وقد سبق المعارضين اقتناعهم مدة خلافة معاوية، وقد آن الأوان لوفاء الحسين بوعده، إذ حل الموعد وأصبح الحكم بيد يزيد، وسكوت الحسين عن القيام بجهاده معناه إقرار لخلافة يزيد، وفتياً بإباحة ما يرتكبه من المنكرات في

حكمه، وقد أعلن الحسين عليه السلام معارضته لولاية العهد وقابل معاوية بالشدة من قبل.

كان اهتمام يزيد بأمر الحسين أكبر شاغل، وعقبة كأداء تقف أمامه، فاتخذ الطرق التي يسلكها في مقابلة خصمه، وأول شيء فعله أن سلك طريق إثارة الضغائن القبلية، والقوة والتهديد، فأظهر عما ينويه في منهاج حكومته الجديدة بقوله مخاطباً أهل الشام:

نحن أهل الحق وأنصار الدين، فابشروا يا أهل الشام، فإن الخير لم يزل فيكم وسيكون بينكم وبين أهل العراق ملحمة، فإني رأيت في منامي قبل ثلاث ليالٍ: كأن بيني وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم، فجعلت أجهد أن أجوز ذلك فلم أقدر حتى جاءني عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه.

فأجاب أهل الشام بقولهم:

اِمضِ بنا يا أمير المؤمنين حيث شئت فنحن بين يديك وسيوفنا هي التي عرفها أهل العراق يوم صفين.

فقال لهم: لعمري أنتم كذلك(١).

وهذا يدل على أمر مبيَّت وتخطيط للمعركة مسبق، وقد أظهره يزيد تحت ستارٍ من الكذب يثير المشاعر، ويلهب الأحاسيس القبلية والمنازعات الاقليمية فيستعد للطوارىء التي ستأتي ومواجهة الخطر الماثل هناك، فإن أمامه أعظم مشكلة تهدد دولته بالزوال. ففتح بيوت الأموال ووزعها على

---

(١) الخوارزمي ج١، ص١٧٩ والفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي المتوفى سنة ٣١٤هـ ص٢٩٢٧، ج٥/٦.

أهل الشام، والتفَّ حوله أعوانه وكتب إلى جميع البلاد بأخذ البيعة له، وكان على المدينة مروان فعزله، وولى مكانه الوليد، وأول ما فكر به عند ولايته هو إرغام المعارضين لفكرة أبيه من قبل، على البيعة له اليوم طوعاً أو كرهاً، فكتب لعامله الوليد بن عتبة على المدينة المنورة:

من عبد الله يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة. أما بعد: **فإن معاوية كان عبداً من عبيد الله أكرمه واستخلفه...** وكان عهد إليّ وأوصاني أن أحذر آل أبي تُراب وجُرأتهم على سفك الدماء، وقد علمتَ يا وليد إن الله منتقم للمظلوم عثمان من آل أبي تُراب بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق، وطلاب العدل. فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة لي على أهل المدينة، ثم كتب صحيفة صغيرة: أما بعد فخذ الحسين وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً عنيفاً، ليس فيها رخصة فمن أبى عليك فاضرب عنقه والسلام[1].

كانت هذه المبادرة من يزيد في أخذ البيعة من المعارضين بالقوة باكورة حكمه ومنهاج حكومته الجديدة. والمقصود هو الحسين عليه السلام أما ابن عمر فأخذ البيعة منه لا يستغرق طويلاً ولا يكلف كثيراً فهو أسرع الناس لذلك وابن الزبير معلوم بنشاطه المحدود وتأثيره المحصور إلى جنب شخصية الإمام الحسين عليه السلام.

وورد الكتاب على أمير المدينة الذي عرف بالهدوء والسياسة ولا يمكنه مخالفة الأمر والتهاون في القضية، فماذا يصنع لو امتنع الحسين؟ وهو أمر محتم، تقرره الوقائع السابقة، فكيف المخرج من هذا المأزق!!

---

(١) ابن واضح تارخ اليعقوبي ج٢، ص٢١٥ والفتوح لابن أعثم ٥/ ١٠.

وقد جاء عنه أنه قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، يا ويح الوليد بن عتبة في هذه الإمارة ما لي وللحسين ابن فاطمة[1].

فماذا يصنع؟

أيستعمل الشدة طبقاً للأوامر الصادرة من يزيد ونزولاً عند رغبة الكتلة الأموية التي واصلت إلحاحها بأن يسرع الوليد بالأمر بقوة وحزم، وعلى رأسهم مروان بن الحكم، فقد كان يحثه على قتل الحسين عليه السلام وقال للوليد: والله لو كنت في موضعك لم أراجع الحسين في كلمة واحدة حتى أضرب رقبته[2].

أم أنه يترك الأمر لعوامل المداراة والسياسة فيستميل الحسين للبيعة، وهو المستحيل، أو يقتنع منه بالسكوت عن المعارضة؟

وأصبح موقف الوليد بعد ورود الكتاب إليه مرتبكاً ينذر بخطر عظيم، فهل يتعدى كلّ الحواجز التي تقف أمامه عندما يتعرض للحسين بسوء فيكسب رضا أميره وأنصاره ويتحمل سخط الله وغضب الأمة، أم يلتزم بالتريث وسلوك طريق الاستقامة، ولا يتعرض للحسين بسوءٍ إذا لم يغيِّر وجهة نظره في بيعة يزيد.

وأخذت تختلج في نفسه نوازع متباينة، فهو ملزم بحكم منصبه أن ينفذ ما قرره الحكام، وهو يعلم ما سيجري إليه ـ من آثار اجتماعية وسياسية، فرأىٰ أن يحذر من وقوع الكارثة عندما ينفذ أمر يزيد، في استعمال الشدة مكان اللين والمداراة، فأرسل إلى الحسين بن علي عليه السلام يدعوه، وكان الحسين عليه السلام قد بلغه موت معاوية فأحسّ بما عزم عليه الوليد، فأحضر من

(١) الفتوح، ٥/ ١١.
(٢) نفس المصدر/ ١٢.

أهل بيته ذوي النجدة والبسالة لعلمه بما يؤدي إليه الأمر من خطر العواقب، وأمرهم بأن يقفوا على الباب تأهباً للوثبة عندما يعرض له أي خطر؛ لأنه يعلم بحقيقة الأمر، وربما يؤدي الموقف إلى اصطدام عند تمنُّعه من البيعة.

ودخل الحسين عليه السلام على الوليد وأبقى أهل بيته على الباب وهم على أتم الاستعداد، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا الباب[1].

فلما دخل استقبله الوليد بالتبجيل والترحاب، وكان مروان جالساً وعليه مسحة الغدر والغضب، وتعلو سحنته علامات التأثر، وهو مرتبك من خطورة الموقف وسوء الوضع، وخيبة الأمل، عندما يمتنع الحسين من الاستجابة لما طلبه يزيد.

وابتدأ الوليد بأدب ولين فنعى معاوية واسترجع الحسين.

ثم قال الوليد: إن يزيداً استحب اقتراح البيعة عليك فماذا ترى؟

* * *

إنه لأمر غريب وموقف عظيم وقعه. أمن الحسين تطلب البيعة ليزيد؟! فمن هو يزيد؟! وكيف يجرؤ ابن الطلقاء بفسقه وفجوره أن يتطلع إلى ميراث الرسول محمد الديني ومركزه الروحي؟ وهل يعقل أن تمضي خطوات الردة والإساءة إلى الإسلام على مثل ما يريده ويتصوره الأمويون بنزعتهم الجاهلية ولكنه عليه السلام تلقى ذلك بهدوء وتصبر، وكان جوابه طلب اجتماع عام في مسجد الرسول يحضره الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار، لتعرض هناك قضية البيعة ليزيد علناً[2]، وهذا بمثابة استفتاء شعبي أو انتخاب حر لخليفة

---

(١) الخوارزمي ج١، ص١٨٣ وابن الجوزي في تذكرة الخواص، ص٢٣٤ والإرشاد ص٢٠٠.

(٢) الخوارزمي ج١، ص١٨٢. والطبري، ص٦٠.

جديد، ومن يا ترى يقدم على انتخاب يزيد مع وجود من هو أهلٌ للخلافة، ولا أقل من وجود كتل معارضة، وأغلبهم من أهل الحلّ والعقد، وهذا الاجتماع في نظر الواقع يشجع المعارضين لبيعة يزيد. واقتنع الوليد بجواب الحسين حباً للسلامة ودفعاً للخطر.

وخرج الحسين عليه السلام وهو يتهادى بين أهل بيته ومواليه ويقول:

لا ذعرت السوام في فلق الصبح مغيراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطى مخافة الموت ضيماً والمنايا ترصدنني أن أحيدا[1]

اتفق الأمويون بمختلف كتلهم على سياسة: الفتك وقتل من يقف بطريق ملكهم بصفاته الشاذة وسياسته الغريبة عن الإسلام وكان مروان بن الحكم ينتظر نتيجة هذه الضغوط وهو إلى جانب يزيد في قراره وسياسته ولقد خاب أمل مروان عندما اقتنع الوليد بجواب الإمام الحسين فأعلن ما تكنه نفسه وما تضمره من سوء وأراد أن لا يترك الأمر يفلت وقال للوليد: لا تدع الحسين يخرج من عندك بلا بيعة فيكون أولىٰ منك بالقوة وتكون أولى منه بالضعف فاحبسه حتى يبايع أو تضرب عنقه.

وعبر مروان بهذه الفكرة عن حقد يأكل قلبه وعداء أعمىٰ بصيرته وسلبه الرحمة شأنه شأن الآخرين من الأمويين على مختلف فروعهم وأنسابهم الذين سقطوا في شهوات الملك والتحكم فأصبحوا لا يرون سبيلاً إلى الحفاظ على ما حققوه إلّا الدماء.

ولما بلغت كلمة مروان مسامع الإمام الحسين قال بأنفة وإباء: «يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو. كذبت ولؤمت»[2].

وكان يمكن أن تكون هذه الوثبة الحسينية بوجه ابن الزرقاء نهاية لحياة

---

(١) التاريخ الكبير ج٤، ص٣٢٨ ابن عساكر.

(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر، ح٤، ص٣٢٨.

مروان واختتاماً لسجله الذي تفوح منه روائح الغدر والكيد بالمسلمين وأعماله التي لعبت أكبر دور في تشويه نظام الخلافة الإسلامي وحمل أفراد البيت الأموي على رقاب المسلمين ولكن الإمام الحسين كان لا يرغب أن تكون هذه الحادثة سبباً في نتائج توفر الذريعة للأمويين فهو أصوب رأياً وأعلم بعواقب الأمور. ولكن مقالة مروان وعزمه وضع البداية وآذن بقيام المواجهة فقد خرج الحسين وقد صمم على البدء بالعمل للوقوف بوجه هؤلاء الطغاة الذين يرومون جعل الوجود الإسلامي وكيان الدولة الإسلامية نظاماً ملكياً عضوضاً يقوم على خدمة مصالح الأفراد ورعاية مكاسب الأشخاص ويتحول هدي الرسالة وعدل الخلافة الإسلامية إلى تحكم جائر وتعسف دائم وتبدأ أمية التي أخضعها الإسلام بحد السيف واستسلمت تحت وقع حوافر جنود الفتح المحمدي تلبس جاهليتها بثوب من الدين وتضفي على جورها وانحرافها لبوساً من الإسلام فتلك لعمر الله أعظم النكبات وأشد الويلات إذ الدين بات في خطر والرسالة أصبحت في معترك فما يعقب ذلك إلّا التحريف والابتعاد عن روح الإسلام وعقيدة القرآن فليس من هؤلاء أحد إلّا وقد تسربل بالفسق وغرق بسوء الخلق خرج عليه السلام والدنيا ضيقة في عينيه على سعتها فقد آن أوان المحنة وبدت علائم الابتلاء ولم يكن هناك أمر يفاجئه أو شيء يحدث بخلاف توقعه فقد بذل عليه السلام جهده في حمل المؤمنين الذين استفزهم القهر وأثارهم نظام التضليل والغدر على أن يستعينوا بالتكتم ولا يتجاوزوا المشاعر إلى الفعل لأن الصلح الذي أبرم كان عملاً اقتضته مصلحة الإسلام وهو السبيل الوحيد للحفاظ على أرواح الناس من تسلط الأمويين وأنصارهم ولا يجوز أن يبدر من أصحاب الصلح الذين يقفون بوجه الجاهلية المقنعة ما يوميء إلى خروج عنه أو تخلٍّ أو نكث حتى إذا مات معاوية بآثامه وبغيرها آن الأوان وحلَّ موعد العمل.

أعلن الحسين ثورته ورفع شعار المطالبة بالإصلاح والسير بسيرة جده

ومن هنا نعلم كيف كان الحسين عليه السلام على لسان رسول الرحمة منه حين قال: «حسين مني وأنا من حسين» فالظرف ادعىٰ إلى دور يذب فيه عن الرسالة، ويدافع فيه عن المبادىء فما هي إلّا جولة أخرىٰ من الجهاد. فأعلن الإمام السبط منهاج نهضته ووضح عوامل في ثورته في بنود وصيته قبل أن يتحرك إلى ميدان الحرب ومساحة المواجهة العسكرية وقد ضمنها عليه السلام أهدافه وأوضح بها طريق ثورته عندما قال:

«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي أُريد أن آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب.

فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين وهو خير الحاكمين»[١].

وبهذه الوصية يعلن الإمام الحسين عن شيوع المنكر وضياع الأمر بالمعروف وأن الضرورة تقتضي معاودة سيرة محمد وعلي لإصلاح ما أفسده الأمويون وما لحق بالأمة الإسلامية من ويلات ومحن وفجائع من جراء الانحراف.

لقد ضاع الحق وقلَّ أنصاره، وانتشر الباطل، وكثر أعوانه فالحسين أولى من أي أحد في المطالبة بإعادة حقوق الأمة، لأنه يمثل دعوة الحق بأجلى مظاهرها، وبذلك طالب الأمة لمعاونته، وقبول دعوته فهو لم يجعل أسباب قبول دعوته بشرفه الذي لا يجاريه أحد فيه، ولا منزلته التي يعترف بها كلّ مسلم، وإنما طالب الأمة بالحق الذي يجب مناصرته، فالحسين داع للحق وهو ممثله والناس إذا استجابوا له فذلك سعادة المجتمع والخير للأمة.

---

(١) مقتل العوالم ص٥٤ والسيد الأمين في اللواعج ص٢٩ والفتوح.

لقد كانت نهضته عليه السلام للحق من حيث الحق لم يثنه قلة الناصر وكثرة الواتر، كما لم يتعدَّ به قوة خصمه وتعاونِ العناصر الموتورة ضده فأعلن الجهاد على حكومة يزيد الماجن المستهتر، وقرر الهجرة إلى مكة؛ ليعلن الثورة من هناك، وتكون مكة قاعدة انطلاقها ومهد التكتل الإسلامي لأنها كانت مزدحمة بوجوه المسلمين وأبطالهم آنذاك إذ قصدوا البيت الحرام لأداء العمرة في شهر رجب من كلِّ مكان

في مكة المكرمة

هاجر الحسين من دار الهجرة في العشر الأواخر من شهر رجب واتّجه شطر البيت الحرام قبلة المسلمين، ومنزل الوحي ليؤدي فريضة الجهاد التي لا يسوغ له أن يتقاعد عنها أو يتأخر عن القيام بواجبها.

وكانت مكة مزدحمة بالمعتمرين من جميع أقطار العالم فدخلها ركبه في الخامس من شهر شعبان ونزل شعب علي عليه السلام.

وأثارت هجرته من المدينة موجة سخط على الدولة في جميع أرجاء الأقطار الإسلامية وتحدث الناس بهذا النبأ العظيم، والحادث الذي يهمُّ كلَّ مسلم ويلزمه التساؤل عن أسبابه وأخذت وسائل الإعلام الإسلامية تنشر هذا النبأ في الأقطار.

وعندما حلَّ الحسين بمكة أقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق يختلفون إليه، ويجتمعون عنده وتركوا عبد الله بن الزبير وكانوا قبل ذلك يختلفون إليه، ولزم ابن الزبير الكعبة يطوف بالبيت ويأتي إلى الحسين عليه السلام[1].

وتعرَّف الناس على أسباب الهجرة، وأوضح لهم الحسين عليه السلام منهاج

---

(١) الحسين/ علي جلال ج٢، ص١٢.

الدعوة وتصميمه على الثورة وحتمية المعاونة بين جميع المسلمين لردِّ خطر إمارة يزيد على الأمة الإسلامية.

* * *

وكثرت الآراء والتكهنات، وأحاط الخوف بأعدائه ولا يدرون ماذا يكون وراء ذلك، أيجتمع المسلمون على مبايعة الحسين ليتداركوا خطر انتقال الأمر ليزيد، وبهذا سعادة الأمة، ولقد أصبح الأمويون أمام حركة إسلامية كبرى، وتيار ديني يتدفق من جميع الجهات، ليلتحقوا بالحسين استجابة لدعوته، وتخلصاً من العهد الأموي فقد سئم الناس ما يلقونه في ذلك العهد من أمور وأحداث كثيرة خلّفت في النفوس أثاراً مريرة، كما ظهرت في المجتمع الإسلامي عادات غير مألوفة وانتشرت العصبية القبلية.

وليس من الغريب أو المستبعد أن يستجيب الناس لدعوة الحسين كما أن الحسين، لم ييأس من استجابة الناس له، وكل ذلك يهدد الكيان الأموي تهديداً جعلهم يتهيبون اقتحام الحسين بشكل سافر، وكانت ملامح الخطر تبدو في الأفق وتظهر بوادر تلك الحركة الإسلامية فقد بدأ التجمع في مكة، وأطلعهم الحسين على الأمر الذي دعاه إلى الخروج وأوضح لهم منهج دعوته وأسباب ثورته وهي كما أعلنها في بيانه الأول بأنه: لم يخرج إلاّ لطلب الإصلاح والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والسير بسيرة جده.

وأقبل الناس على دراسة هذه البنود، وهم يشجعون الحسين على النهضة ويلتفّون حوله في مكة، وأصبح المعتمرون من جميع البلدان الإسلامية لا يفارقون مجلسه ولم يخلُ الوقت من مفاوضات ومشاورات.

وليس من السهل على الأمويين أن يغضّوا الطرف عن الحسين وهو يخرج من المدينة معلناً غضبه على الدولة بصورة علنية، وليس فيها شيء من السرية والتكتم ثم نزل مكة. وكان فيها جمع من المسلمين لا يستهان به من

المعتمرين والمجاورين فكان نزوله في مكة هو أعظم صاعقة تنزل عليهم؛ إذ وافتهم الأنباء بأن الحسين تعقد عنده الأندية للتشاور، وتكثر الاجتماعات، ويرتاد مجلسه جميع المسلمين من أطراف البلاد من الذين وافوا مكة لأداء العمرة.

وغمرت المجتمع ألوان من التكهنات في النتائج وكثرت الأحاديث حول هذه التطورات في الأحداث.

وارتحل المعتمرون لأقطارهم وهم يحملون أنباء مكة وأخبار هجرة الحسين وغضبه، ومعارضته لبيعة يزيد، وقد أحدث ذلك هياجاً اهتز له عرش يزيد وسلب قراره.

وهكذا بلغ نبأ الكوفة وهي تغلي كالمرجل عندما علمت بنبأ وفاة معاوية فتحركت الفئات المكبوتة والمغلوبة على أمرها، أيام سلطان معاوية وهي ترزح تحت نير المذلة والاستعباد، وكثرت الإشاعات في توجه الحسين إلى مكة، فاجتمع الناس لدعوته كما سيأتي.

* * *

بقي الحسين عليه السلام في مكة أيام الحج فكان وجوده في مكة محفزاً لقدوم عدد لا يستهان به من وجهاء الناس وزعماء الأمة، وذوي الآراء منهم إلى مكة للحج والاجتماع بالحسين للوقوف على رأيه ومعرفة آخر ما وصلت إليه دعوته.

وكان الموسم في تلك السنة مزدحماً بالشخصيات الإسلامية ومن يهمه الوقوف على نهاية هذه المعركة التي نقرر مصير وحدة المسلمين وعزتهم إن استطاعوا الإطاحة بيزيد وهدم سلطانه الذي أُقيم على إثارة النزعات القبلية، فمعارضة الحسين ووجوده في مكة أمر لا يتحمله سلطانهم، ولا تتسع له صدورهم، ولا يمكن التعرض له بهذه السرعة ولو تعرضوا له لعرضوا

أنفسهم إلى ما هو أعظم منه لنقمة المسلمين عليهم، لأنهم يحسبون للموقف ألف حساب، كما أنَّ من المستحيل تحويل الحسين عن رأيه، أو إقناعه بكلّ وسيلة، فلا بدّ من تفكيرٍ في العواقب، ولا بدّ من معالجة الموقف بما يضمن السلامة للدولة، فكثرت الآراء وآخر ما نتج عن تلك الاجتماعات وحصل من ذلك التشاور أنهم قرروا اغتياله وقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، فأرسلوا ثلاثين رجلاً من الأبطال والمعبّر عنهم في الروايات بشياطين بني أمية.

وكانت فكرة اغتيال الحسين سلاحاً ذا حدين، فقتل الحسين هو هدف الدولة وأمنية الأمويين للتأثير على روح المعارضة وموجات السخط التي تنذر بالثورة.

ثم تصبح الدولة بعدها صاحبة الحق في البحث عن مرتكبي الجريمة، وأقطاب المؤامرة، وبهذا تستطيع السلطة أن تسوق لساحات الإعدام أكبر عدد ممكن من أبطال الإسلام الذين لا تود بقاءهم.

وقد أدرك الحسين خطورة الموقف، فأعلن الرحيل وقرر الخروج من مكة يوم التروية وكان يرمي إلى المحافظة على حرمة الحرم. وقدسيّته كما صرح بذلك لمن كان يحاول إقناعه بالتريث وترك الاستعجال في السفر.

في الكوفة:

ماجت الكوفة عندما بلغها موت معاوية بن أبي سفيان وحدثت بها هزة سياسية شديدة، فقد تحركت القوى المعارضةُ للحكم وتنفس المجتمع الذي خيَّم عليه كابوس حكم غاشم، أخضعه لنفوذ سلطان جائر.

والكوفة هي التي تمثل المعارضة الحادة، إذ تشبعت فيها روح الحقد على الدولة الأموية، وكانت الكوفة عرضة لسخط السلطة وانتقامها لما صدر

منها من مقابلة سافرة، ومعارضة مكشوفة وعداء ظاهر وأهم صوره انضمامها لجانب علي عليه السلام في حروبه الثلاثة: الجمل، وصفين، والنهروان، فهي في نظر السلطة تشكل أعظم خطر على الدولة. فكانت موضع الاهتمام والمراقبة ومحلاً للعقوبة الجائرة.

كما أنها كانت تتسم بطابع عدم الاستقرار، لكثرة اختلاف النزعات وتقلُّب الآراء وذلك لتفرُّق عناصرها، وتعدُّد قومياتها؛ واختلاف عقائدها.

وكانت الشيعة على موعد مع الحسين عليه السلام فالاتصالات بينه وبينهم مستمرة وهم يستنهضونه لتفجير الثورة ضد الحكم الأموي، وقد التفَّ حولهم جميع الفئات التي تشاركهم بالتحفز للخلاص من ذلك العهد الغاشم.

وكان الحسين عليه السلام قد أمر شيعته بالتريث، وعدم التسرع ما دام معاوية حياً وذلك رعاية للظروف وإحكاماً لخطط الثورة.

ولما بلغهم موت معاوية وهو بداية التحول إلى عهد الانطلاق من نير العبودية كان أول شيء قاموا به هو عقد الاجتماعات والمداولة حول مراسلة الحسين عليه السلام. ودعوته إلى القدوم إليهم، فقد آن أوان النهضة وحلَّ موعد الاستجابة لمطالبهم، ولكنهم لم يقدموا على المراسلة إلّا بعد أن يلمسوا اتّجاه الغالبية قبل الدخول في هذا الصراع العنيف ولا بدَّ أن يتعرّفوا على القوى التي تشترك معهم في هذا الصراع والإقدام والتضحية كلّ ذلك قد حسبوا له حسابه.

أما النتائج فذلك رهين بأمور أكثرها خارج عن الإرادة، فقد يأتي القدر بما ليس في الحسبان، وإرادة الله فوق كلّ شيء.

وكان لا بدّ من عقد اجتماع عام لطرح الفكرة أمام الأنظار، فعقدوا

أول اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، وهو أحد زعماء الكوفة ومن الصحابة وشجعان العرب المشهورين، حضره وجهاءُ الشيعة وأعيان البلد ورجال المصر.

فقام سليمان فيهم خطيباً وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن معاوية قد هلك وإن حسيناً قد أعلن على القوم خلافه، وخرج إلى مكة وأنتم شيعته وشيعة أبيه.

فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه، ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغروا الرجل في نفسه.

فأجاب أكثرُ الحاضرين وقالوا: لا بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه. قال سليمان فاكتبوا إليه فكتبوا إليه ـ وذلك في آواخر شعبان(1):

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الحسين بن علي عليه السلام من سليمان بن صرد، والمسيب ابن نجبة ورفاعة بن شداد البجلي، وحبيب بن مظاهر وشيعته المؤمنين من أهل الكوفة سلامٌ عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا إلّه إلّا هو، أما بعد، فالحمدُ لله الذي قصم عدوّك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه الأمة، فابتزها أمرها، وانتزعها حقوقها، وغصبها فيئها وتأمَّر عليها بغير رضاً منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبعداً له كما بعدت ثمود وأنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج٥، ص٤٤.

الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد وقد حبسنا أنفسنا عليك، ولو أقبلت إلينا أخرجناه حتى نُلحقه بالشام[1]

وأرسلوا الكتاب مع عبد الله الهمداني وعبد الله بن وائل وأمروهما بالإسراع والنجاة من المراقبة فأسرعا وقدما إلى الحسين في مكة لعشر مضين من رمضان.

وبعد مضي يومين من تسريح الكتاب بعثوا مع قيس بن مسهر الصيداوي، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الكنود، وعمارة بن عبيد الله السلولي، ومعهم نحو من ثلاث وخمسين صحيفة، أو مائة وخمسين صحيفة[2] من الرجل والاثنين والأربعة. ثم بعد يومين آخرين أرسلوا هانئ ابن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي ومعهما كتاب هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي من شيعته من المؤمنين أما بعد فحيا هلا فإن الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم غيرك فالعجلَ العجلَ والسلام عليك[3].

واشترك في مراسلة الحسين ودعوته عناصر من غير الشيعة، كالخوارج فكتب إليه من زعمائهم: شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رويم وعزرة ابن قيس، وعمر بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي.

---

(١) الخوارزمي ٢/ ١٩٤.

(٢) سبط ابن الجوزي ص٢٤٤، التذكرة.

(٣) سبط ابن الجوزي ص٢٤٤، التذكرة. والشيخ المفيد ص٢٠٣.

أما بعد: فقد اخضّر الجناب وأينعت الثمار فإذا شئت فاقدم على جند لك مجندة والسلام عليك[1].

وتواردت الكتب على الحسين من الكوفيين وهي تصرخ بالاستغاثة مما أصاب الأمة من نكبات وانحراف عن الدين، وتلاقت الرسل عنده ووردت عليه الرسائل من مختلف الناس، ولم يحصلوا على الجواب. إلى أن ورد إليه كتاب من خُلَّص شيعته، وهم يؤكدون عليه ويخبرونه باتفاق الناس، واستجابتهم لدعوته، ويقولون: إن الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم غيرك فالعجلَ العجلَ والسلام.

* * *

وهذا الهياج الشامل والصرخة المدوية واستغاثة هذا العدد الهائل ووصول آلاف الكتب من إناس يستصرخون الحسين لإنقاذهم من براثن الظالمين، كما وصلت قائمة بأسماء العشائر الذين ينتظرون قدومه والمناصرين له يبلغ عددهم مائة ألف مقاتل، هو أوضح دليل على حصول الظرف المناسب للإسراع والإستجابة، وأصبحت الإجابة حتمية نظراً لما يقتضيه الوضع في معالجة المشكلة من أقرب الطرق، وأنجح الوسائل، وكان قادة الدعوة هم رجال الشيعة من زعماء الكوفة، ورؤسائها والذين يمثلون كتلاً قوية لها سيادتها، وقد وردت كتبهم بما تطمئن إليه النفس، وكل هذا لم يبعث في موقف الحسين إلاّ التريث وعدم الإسراع في الإجابة، ولكنه قرر عليه السلام أن يرتاد الوضع بمن يثق به من أهل بيته فيكون رائد حق ومخبر صدق، فانتدب لهذه المهمة ابن عمه مسلم بن عقيل.

ولا نغفل أهمية هذه السفارة، ومكانة مسلم من هذا الاختيار، فهو يدلُّ على سموه وعلو شأنه، في تدبير الأمور فقد منحه الله موهبة عظيمة، نال بها

---

(١) مقتل أبي مخنف مخطوط.

اختيار الحسين له واعتماده عليه كما جاء في كتابه. بأني باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل.

ولا شك من قيام مسلم بن عقيل بمهمته خير قيام فسار بما يحتمه عليه واجبه الديني، ولكن التاريخ ظلم حقه فأسدل الستار على مواقفه الخطابية، وتوجيهاته مدة بقائه في الكوفة، وكما يأتي أن هناك حلقة بل حلقات ـ من تاريخ حياة هذا البطل المجاهد مفقودة وسيكشفها التحقيق، ويزيل غموضها التتبع، فقد أخذ الكتَّاب يوجهون الأضواء على حادثة الطفّ التي هي أهم حادثة في التاريخ الإسلامي.

مسلم بن عقيل

أنيطت بمسلم بن عقيل بن أبي طالب مهمة السفارة ومسؤولية اكتشاف واقع الحال في الكوفة، بعد أن تواترت الكتب على الحسين عليه السلام بالدعوة وإعلان البيعة له، فأرسل عليه السلام رائداً صادقاً ونائباً محنكاً يسبر غور ذلك المجتمع، ويقف على حقيقة أمر الدعوة، وأن يكتشف الحال، ويعرف الأوضاع وزوّده بكتاب منه، معتمداً عليه واثقاً بكفاءته، لهذه المهمة، جاء فيه:

أما بعد فقد فهمت كلما اقتصصتم. وقد بعثتُ إليكم أخي وابنَ عمي، وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليَّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على ما قدمت رسلُكم، وقرأتُ في كتبكم فإني أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بالحق، الحابس نفسه على ذات الله[1].

وهذا الكتاب يعتبر وثيقة سياسية لها أثرها في كشف حقائق لا غنى للباحث عن الوقوف عليها، لإيضاح بعض ما أبهم من جوانب سيرة مسلم، وحسن قيادته لأن هذه الوثيقة تحدد مسؤولية مسلم في سفارته، فهو رائد

---

(١) الطبري ج٦، والشيخ المفيد ص٢٠٢. وتذكرة الخواص ص١٩١.

يتعرف أوضاع ذلك المجتمع الهائج في الدعوة لاستنهاض الحسين عليه السلام والاستغاثة به. فلم يؤمر مسلم بثورة ضد العناصر المعارضة لقدوم الحسين ولم يعهد إليه إقامة حكومة موقتة إلى أن يقدم الحسين، وإنما أنيطت به مهمة استطلاع الآراء، والوقوف على حقائق الأمور، من معرفة اتجاهات الناس وأوضاعهم، فهو رائد حق ورسول صلاح.

* * *

وسار مسلم بن عقيل نحو الكوفة. حاملاً أعظم مسؤولية، وممثلاً لأكبر شخصية إسلامية في عصره، فهو رائد حق، ورسول إمام حق، استغاث به الناس لينقذهم من براثن الظلم والاستعباد.

وكان الناس بانتظار قدوم الحسين عليه السلام وهم يتطلعون أخباره والكوفة تغلي كالمرجل في حالة من التأهب لما سيحدث عند قدوم الحسين، من معارضات، أو خلاف من بعض الفئات المعارضة.

وكان قدوم مسلم يُعد انتصاراً وفتحاً جديداً للشيعة، ومن وافقهم في دعوة الحسين من العناصر الأخرى.

وعندما دخل الكوفة أحدث دخوله موجة فرح وتباشر، ودخل الناس من مختلف الطبقات أفواجاً أفواجاً للسلام عليه، والترحيب به وبعد عقد اجتماع حضره وجوه البلد، تلا عليهم كتاب الحسين عليه السلام وأنه استجاب لدعوتهم وأرسل ابن عمه مسلماً ممثلاً عنه وسفيراً يتحمل المسؤولية إلى أن يقدم الحسين عليه السلام. وهذه أمنية حققتها الكوفة بعد عناء طويل فقد بذل زعماؤهم كلما في وسعهم ليستجيب الحسين لمطالبهم في حياة أخيه الحسن وبعد وفاته، والآن وبعد مضي زمن طويل يستجيب لدعوتهم ويوعدهم بتحقيق أمنيتهم بعد أن يأتيه جواب رسوله مسلم بن عقيل.

وبعد تلاوة الكتاب علت الأصوات بالاستجابة، وهتفوا بالبيعة ورحبوا

بالسفير القادم وتبادروا نحو مسلم بن عقيل لبيعة الحسين عليه السلام على السير تحت لواء الإسلام والتضحية دونه مهما كلفهم الأمر، وقد عمهم الفرح وتباشروا بتحقيق الأمنية، وانتشر الخبر في الكوفة، فتهافت الناس على مسلم، وازدحمت وفود العشائر في دار المختار بن أبي عبيد.

وهذه الظاهرة تبعث على الاطمئنان والثقة من حسن الوضع، ونجاح المهمة، ولم يهمل ابن عقيل ناحية الاجتماعات الخاصة لمداولة الرأي في جواب الحسين. فكان يختص بأهل الرأي والحجى من زعماء الكوفة حول الأوضاع وقدوم الحسين، ويكون الجواب بالترحيب وطلب الإسراع في القدوم.

كما أنه أعطى حالة البلد العامة أهمية فقد لمس الاستقرار الشامل إذ الكوفة يسودها هدوء وليس فيها حركة مقاومة لدعوة مسلم، ولا معارضة لقدوم الحسين، واطمأن مسلم بعد بذل الجهد في التعرف على الأوضاع وكانت الجموع تروح وتغدو وهم يكررون عبارات الولاء، والتضحية والفداء، بما يبعث على الأمل بالنجاح، واعتماداً على ما لمسه من هذه الظاهرة، وما وقف عليه من إقبال المجتمع ظاهراً، وما تكنّه الصدور فأمره إلى الله بادر بالكتابة إلى الحسين عليه السلام يخبره باجتماع الرأي وانتظار الجميع لقدومه فأرسل كتاباً يقول فيه: الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني ثمانية عشر ألفاً فعجّل بالإقبال حين يأتيك كتابي هذا[1].

وأرسل الكتاب مع وفد من أهل الكوفة وعلى رأسهم عابس بن شبيب الشاكري، وهو بطل من أبطال العرب، معروف بإخلاصه وولائه لأهل البيت عليهم السلام، وقدوم الوفد يزيد الموقف وضوحاً ويعطي فكرة التوجه جلاءً فلا غموض في الموقف إلاّ ما يحدث من قدر مما لا سلطان للإنسان في رده.

---

(١) التاريخ الكبير لإبن عساكر ج٤، ص٣٣٤.

المعارضة:

ويقف أنصار الأمويين، ومن كان على شاكلتهم في الخط المعاكس فوجدوا الخطر محيطاً بهم والحكم الأموي مهدداً بالإطاحة، عندما انتشرت الدعوة للحسين عليه السلام بالكوفة، وتهافت الجموع للبيعة، وتصدر الزعماء لقيادة الحركة، وكان النعمان بن بشير يتجاهل الوضع، ولم يبدُ منه أيّ عمل ضد تلك الحركة، وربما كان تريثه عن مكيدة ودهاء، فهو سياسي اتخذ السكوت وسيلة لنجاحه. في تدبير الأمور إلى أن يعرف رأي السلطة الحاكمة في الشام.

وقداختاره الأمويون لكبر سنّه وصحبته، وبرودة مزاجه، بعد أن تعاقب على الكوفة ولاة قساة، أثقلوا كاهل العرب بأفعالهم واشتطوا في الإهانة فكانت الثورات تتفجر بين آونة وأخرى فتخمد بقوة وبمنتهى القسوة، وكانت الخطة التي سار عليها النعمان بن بشير لم ترق لأنصار الأمويين وأحلافهم فتجمعوا لدرء خطر وجود مسلم وانتشار نبأ قدوم الحسين، وراحوا يستنهضون السلطة الحاكمة فطلبوا من النعمان بن بشير تدارك الأمر وإبداء رأيه حول هذه المشكلة، إذ الناس في هياج عندما دخل مسلم بن عقيل مزوداً بكتاب الحسين وبايعه الكثير منهم وظهرت الحرورية بصورة علنية ضد الأمويين.

وهنا لا بدَّ أن يعلن الأمير عن رأيه في مقابل هذه الأمور التي تجري بسرعة نحو انهيار الدولة.

فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني لا أقاتل إلّا من يقاتلني، ولا أثب إلاّ على من يثب عليّ، ولا آخذ بالظنة أحداً.

فأجابه أحدهم: هذا رأي المستضعفين.

فزجره النعمان قائلاً :

لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله خير من أن أكون من الجبارين في معصيته .

وهذا البيان من الأمير يعلن عن حيادٍ تام، وحب للسلامة وفيه خيبة أمل لأنصار الأمويين، كما أنه في الوقت نفسه تضيّع للفرصة على بعض الفئات المندسة، والتي تقف وراء الحوادث لوقوع الخلافات. واتساع الشقة والوثبة وانتظار الوقت لينتهوا إلى غايتهم على جناح الانتهازية .

وقد صدر عنه كلام يتهدد به ويتوعد من خالف أمره وخرج عن طاعة إمامه[1] .

وكان موقف الأمير في حبه للسلامة هو أنفع من التسرع في إثارة الحرب، لأنه يعلم ضعف الجانب الأموي، فكان منهجه منهج مداراة، حتى تقوى الجبهة الأموية بإرسال من يتولى إدارة كفة شؤونها .

وهنا قرر زعماء التكتل الأموي رفع الأمر إلى يزيد وإطلاعه على الأمر، وإخباره بموقف الوالي وضعفه، ووقّع الكتاب جماعة، منهم عمر بن سعد وعبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي، وعمارة بن عقبة بن أبي معيط، وغيرهم .

وأسرع البريد إلى الشام فوافى يزيد بهذا النبأ الهام فضاعف تخوفه من الحسين، إذ كان يعير قضيته أكبر اهتمام، وهو في مكة والآن أصبحت الكوفة وهي ذات السيادة تقف إلى جنب الحسين عليه السلام علناً .

فاضطرب حبل استقراره، ولجأ إلى أهل الرأي والمشورة من كبار أنصاره ومعاونيه، وكان أبرز مشاوريه سرجون مولى معاوية، وهو رجل

---

(١) الفتوح، ٥/ ٥٨.

مجوسي يحقد على العرب فأشار عليه بعزل النعمان، وتولية عبيد الله ابن زياد، ويقال: إن سرجون كان يرعى الرابطة التي بينه وبين ابن زياد، لأن سرجون مجوسي العقيدة وكانت مرجانة على عقيدته، فأراد أن يقدم ابن مرجانة، ويوليه المصرين، ليفتك بالعرب، ويوقد بين المسلمين نار حرب يكون وقودها المسلمون. فكتب إلى عبيد الله بن زياد.

«أما بعد فإنه كتب إليَّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل يجمع الجموع ويشق عصا المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة، فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه[1].

استلم ابن زياد عهده، وأصبح أمير المصرَين، البصرة والكوفة فأقام أخاه عثمان على البصرة وخطب الناس وهددهم إن خالفوه.

فقال:

يا أهل البصرة إنَّ أمير المؤمنين يزيد قد ولاني الكوفة، وأنا سائر إليها غداً، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان ابن زياد، فإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إلَه إلّا هو، لو بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه، ولأقتلن عريفه، ولآخذ الأدنى بالأقصى، حتى تستقيموا لي، فاحذروا أن يكون لي فيكم مخالف فأنا ابن زياد الذي لم ينازعني عمٌّ ولا خال[2].

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٠٠.
(٢) ابن أعثم، ٥/ ٦٤.

نحو الكوفة

تجهّز ابن زياد من ساعته ليرحل عن البصرة، وفي تلك اللحظات قدمها رسول الحسين عليه السلام سليمان مولاه، ومعه كتب لأشرافها منهم مالك بن مسمع البصري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمر، وقيس بن الهيثم، تتضمن دعوتهم لنفسه واستنهاضهم لمؤازرته ضد الوضع القائم الذي أضر بصالحِ المسلمين.

وكان المنذر بن الجارود شديد الحذر من ابن زياد بالرغم من مصاهرته له، فخشي أن يكون الرسول مدسوساً إليه، من قبل ابن زياد، فقدمه إليه لتبرأ ساحته، وكان ابن زياد على أهبة الترحال، فقدم الرسول ضحية قبل سفره بقليل فقتله، وصلب جسده، وأول شيء فكر فيه ابن زياد لتحقيق مهمته في الكوفة هو سلوك طريق التخذيل عن مسلم بشتى الوسائل، ووجد أقوى عامل لتحقيق ذلك هو جلب رجال من البصرة لهم مكانتهم في الكوفة، ولهم منزلة مرموقة بين القبائل، فهم عندما ينزلون الكوفة ويقدمون على أبناء عمومتهم لا بدّ أن يلقوا التكريم والتبجيل، وبعد ذلك يسيرون في الخط الذي رسمه لهم فانتخب من وجهاء البصرة وزعماء المصرَين جماعة يستطيع بهم أن يسند قوته، وأن يرسلهم في مهمة التخذيل ومجالس المفاوضات مع أبناء عمومتهم في الكوفة، وبالطبع فإن هؤلاء كان لهم

أثرهم في الاستجابة لما يطلبون (ولكلٍّ قادم كرامة)، كما أنه صحب من أبطال الجند المدرب خمسمائة فارس.

وسار ابن زياد بسرعة فائقة ومعه حراس أقوياء وجيش بكامل عدته وجماعة من أشراف البصرة، فكان لا يمر بحيّ من أحياء العرب إلّا وظنوا أن هذا الركب هو ركب الحسين عليه السلام وهم يستبشرون بقدومه إذ سبق أن علموا بدعوة أهل الكوفة له، وكان استبشار الأعراب في البادية يبعث فيه نشاطاً لدخول الكوفة، قبل أن يدخلها الحسين عليه السلام فسار بسرعة عجز عن مسايرته أصحابه، ولم يلحقه إلّا مولى من مواليه اسمه مهران وقد أعياه النصب في القادسية، فقال ابن زياد: يا مهران على هذه الحالة إن أمسكت حتى تنظر إلى القصر فلك مائة ألف. قال: لا والله ما أستطيع[1].

وتأخر مهران وسار ابن زياد بمفرده حتى دخل الكوفة

كيف دخل الكوفة:

يحيط الغموض بكيفية دخول ابن زياد الكوفة وتكتنف هذا الموضوع جهالة تدعو إلى كثير من التساؤل:

فهل دخلها في وضح النهار بهيئة أمير جديد تحوط به حراسه ويتبعه جنده ويستقبله أعوانه؟

أم دخلها متنكراً لا يعرف من هو؟

وهل صحيح أنه دخل بزي أهل الحجاز مُعتماً بعمامة سوداء فظن الناس أنه الحسين؟.

وهل وقعت مصادمات عند دخوله كما في بعض النصوص؟ أم أنه دخل بصورة سلمية؟

---

(١) الطبري ج٦، ص٢٠١.

والذي يظهر من التتبع ويوضحه سير الحوادث؛ هو أن توجه ابن زياد إلى الكوفة، وتولية أمرها قد سبق خروجه من البصرة، وذلك عن طريق جهاز الدولة، ليكون أنصار الأمويين على أهبة الاستعداد لقدومه، خشية من الطوارئ التي تعترض دخوله.

وعندما شاع نبأ توجهه قويت عزائم العثمانية، ونشط الأمويون وأصابت الخوارج خيبةُ أمل لعلمهم بعداء ابن زياد لهم، إذ عاملهم في البصرة بشدة حيث قتلهم بدون رحمة وشردهم في البلاد، وهنا لا بدّ أن يعدّوا العدة للتخلي عن كلّ مشاركة في أي أمر يثير غضبه عليهم، كما لا بدَّ من أن يظهروا بمظهر الولاء للدولة؛ حقناً لدمائهم، وإبقاءً على نفوسهم، فيتعاونوا مع ابن زياد للقضاء على عدوهم.

ومقتضى واقع الأمر أن يزيد لم يعتمد على ابن زياد كفرد يتمتع بقوة وله خبرة سياسية فقط، فيدخل الكوفة أعزل من السلاح والجند، بل لا بدّ وأن يكون مزوداً بقوة ذات عدة وعدد كافٍ، لخوض معركة حاسمة، تقرر مصير العهد الأموي، بالإضافة إلى العناصر الموالية للأمويين، فهي على استعداد للوثبة عندما يجمع شملهم قائد له خبرة ودهاء، وكان قدوم عبيد الله فاتحاً، وقد توجه إلى الكوفة بجيش قوامه خمسمائة فارس على أقل إحصاء(١).

ويظهر من بعض المؤرخين القدامى: أنه عند قدوم عبيد الله الكوفة اصطدم بجيش الشيعة الذين سارعوا لصده عن الدخول، ولكنه أسرع فدخل القصر وأغلق بابه(٢)

* * *

وكيف كان فقد استولى ابن زياد على مركز الحكم في الكوفة، ودخل

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٠٠.
(٢) المقدسي: البدء والتاريخ.

قصر الأمارة، وقد تجمع فيه أعيان قومه، وكبار أنصاره الذين كانوا ينتظرون قدومه وكان القصر فيه من الذخيرة والسلاح شيئاً وافراً، إذ لم يتعجل زعماء الدعوة إلى المبادرة للسيطرة على المال والسلاح في قصر الإمارة، ولعل ظروفهم لم تساعد على الإسراع والمبادرة.

وعلى أي حال فقد تغيرت الأحوال، وتبدَّلت الأوضاع عند دخول ابن زياد وجيشه، وتحوَّل مجرى كثير من الحوادث إلى العكس، كما تحول اتجاه كثير الناس بمجرد دخول الأمير الجديد، فقد استطاع كسب عدد كبير من الزعماء الذين وقفوا على جانب الحياد، من حركة التحرر من حكم الأمويين، وأصبح بإمكانه التغلب على الموقف بتلك السرعة.

بداية العمل

ولما أصبح أراد أن يستعجل الحوادث، ويتدارك الأمر بسرعة وبشدة. وكان من عادة كلّ أمير جديد أن يدعو للصلاة جامعة، ويقرأ على الناس كتاب توليته ويتناول سياسته بشيء من التفصيل، وفاقاً للظروف الحاضرة.

ولما اجتمع الناس للصلاة خرج ومعه الأشراف من الكوفة والبصرة وصعد المنبر ليعلن مهمته وسياسته فقال:

> أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وأنا متبع فيكم أمره، فأنا لمحسنكم كالوالد البر، وسيفي وسوطي على من خالف أمري وعهدي[1].

فلما كان في اليوم الثاني نادى بالصلاة جامعة:

---

(١) الحسين بن علي لأبي نصر ص٧٦ (ابن أعثم، ٥/٦٦)

فلما اجتمع الناس خرج إليهم بزي هو خلاف ما خرج به أمس، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإنه لا يصلح هذا الأمر إلاّ في شدة من غير عنف ولين في غير ضعف وأن آخذ منكم البريء بالسقيم والشاهد بالغائب والولي بالولي.

وبهذا استفز شعور الناس وخوفهم، فقام إليه رجل يقال له أسد بن عبد الله المرّي فقال:

أيها الأمير إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إنما المرء بجدّه والسيف بحده والفرس بشده وعليك أن تقول وعلينا أن نسمع فلا تقدم فينا السيئة الحسنة(١).

سكت ابن زياد عند سماعه لهذه المجابهة الصريحة والردّ الصحيح، ولم يتّخذ الشدة مع هذا الرجل الذي يعتبر موقفه موقف معارضة للمنهج الذي أراده ابن زياد لمسيرة ولايته، ولا يستبعد أن سكوته ونزوله عن المنبر ودخوله القصر، كان لغضبه، ولا بدّ أن يثأر من هذا الرجل بأسرع وقت ممكن.

ودخل قصر الإمارة واجتمع بأعوانه لإطلاعهم على مخططه الذي وضعه في ردّ خطرِ دعوة الحسين، ومبايعته، وبعد قليل أصدر أوامره وشرع في تنفيذ مخططاته، وأول خطوة خطاها أن جمع العرفاء وأخذهم بشدة، وأمرهم بأن يكتبوا له أسماء من تحت عرافاتهم ومن فيهم من طلبة يزيد والحرورية والخوارج، ومن يشك فيه فمن قام بما يأمر بُرِّيء ومن لم ينفذ

---

(١) ابن أعثم ٥/ ٦٧.

أمره برئت منه الذمة وحلال دمه وماله، وأيّما عريف وجد في عرافته أحد من هؤلاء لم يرفعه صُلب على باب داره وألغيت عرافته[1].

وقام بكل حزم تسانده القوى المعادية لأهل البيت، وقد شق طريقه لبثّ روح الفرقة وتفتيت ذلك الجمع الذي التفَّ حول مسلم بن عقيل، فانتشر دعاته في البلدِ يتهددون ويتوعدون وأشاعوا أن جيش الشام على الأبواب، كما اتصل بعض زعماء البصرة بعشائرهم يخذلونهم، ويخوفونهم سوء العاقبة، وانتشر بيان ابن زياد الذي يعتبر إنذاراً قاسياً وهو يتضمن البنود التالية:

١ ـ إحصاء العرفاء لمن يرى فيه الخلاف لبني أمية وفي ضمنهم الحرورية والخوارج.

٢ ـ يقوم العرفاء بالإحصاء فيقدموا قوائم بالأسماء وصحائف بالأعمال.

٣ ـ يقوم العرفاء بالمراقبة الشديدة على من يتهم بالميل لجانب مسلم بن عقيل.

٤ ـ أي عريف يوجد في عرافته أحد ممن يتهم بالانحراف عن يزيد وعدم الرضا ببيعته فإن العريف يحكم بالصلب على باب داره.

٥ ـ أي عريف لم يكتب عن أحد فيلزمه أن يتعهد بعدم المخالفة وأن لا يصدر من أي أحد في عرافته شيء يؤدي إلى قلق الدولة.

---

(١) الإرشاد للمفيد ص٧٩.

وانتشر الرعب في البلد، وأخذ العرفاء ينفذون بنود هذا المنشور امتثالاً لأمره فهو الذي عرف بالشدة والغلظة، وإنه يحمل قلباً لم تدخله الرحمة.

وأول تنفيذ لهذا البيان قيام العرفاء بتقديم قوائم بأسماء من عرفوا بالانحراف عن الأمويين من الشيعة وغيرهم.

وسرت أنباء قدوم جيش الشام، وقام المخذّلون بقسطٍ وافر من نشر الرعب في البلد، فأخذ الأب يمنع ولده، والأخ أخاه من المشاركة في المعارضة، أو الانضمام لمسلم بن عقيل.

وأخذت القبائل تمسك بزعمائها حفظاً لهم من سطوة ابن زياد، فقد أمسك بنو أسد بزعيمهم حبيب بن مظاهر ومذحج بهاني بن عروة وغيرهم وبقي الآخرون يترددون على مسلم بن عقيل مع الحذر والمراقبة الشديدة، وقام العرفاء بواجبهم يصحبهم جند ابن زياد.

والعريف في اللغة: هو من يعرّف أصحابه؛ ومنه الحديث «فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» وهو القائم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم[١].

وتسمية العريف من التنظيمات العسكرية الإسلامية. إذ جعلوا من كلّ عشرة من الرجال لرجل وسمّوه عريفاً وجعلوا أمر كلّ عشرة من الرجال إلى أمير سمي أمير الأعشار، وكان يقود أمراء التعبئة وهم أمراء الوحدات في التنظيم العسكري الحديث.

وبذلك أصبح العرفاء يقودون الخليّة وهي الحضيرة، أما أمراء الأعشار فيقودون قوة لا تقل عن مائة مقاتل وهم يقابلون أمراء السرايا حالياً[٢].

---

(١) الزبيدي تاج العروس ج١، ص١٩٤.
(٢) عبد الحميد حسين: الفتح الإسلامي في العراق ص٦٨.

وأصبح الموقف في الكوفة مضطرباً والناس في حيرة من هذا الأمر المفاجىء فقد أحدث قدوم ابن زياد تحولاً غريباً، وقد ظهرت قوة الحزب الأموي للوجود. بعد أن أشرفت على العدم، وأبعد النعمان بن بشير ورحل إلى الشام واستولى ابن زياد على الحكم بسرعة فائقة، فوزع من يعتمد عليهم على المراكز الهامة، والوظائف الحساسة، وأسند قيادة الجيش لجماعة آخرين ووزع الأموال، وواصل اتصالاته بمختلف الطبقات، لإحكام خطة القضاء على مسلم، ومعالجة مشكلة أتباعه، وتتابعت فلول العناصر الحاقدة، وتجمعت في الكوفة لتنضم إلى الكتل المقيمة في الكوفة من عناصر المواجهة، الذين يهمهم عرقلة انتصار دعوة الحسين لأنهم قد أحكموا الخطة لتصفية الحساب مع الإسلام كما قام اليهود الذين أجلاهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة بمهمة التنفيذ للمخططات.

موقف مسلم بن عقيل:

لم يكن مسلم بن عقيل ليجهل الخطط العسكرية ولا هو بعيد عن المواقف الحربية، أو بمعزل عن الأمور السياسية، حتى يؤخذ عن غرّة، ويباغت بهذه الاجراءات.

إنه من أهل بيت اصطدموا بحروب، وخاضوا معارك في سبيل إعلاء كلمة الحق، وعالجوا الأمور من طرقها المشروعة، وهو كما قلنا رائدٌ لتحقيق أمور قد تخفى على كثير من الناس، فهو لم يؤمر بحرب، أو تشكيل حكومة، وإعلان ثورة، بل كانت مهمته محدودة، فهو معتمد يشرف على أمور الناس في توجيه مسيرة الدعوة، استعداداً لمقدم الحسين بتدبير ما يتعلق بنجاح الحركة من الأمور المشروعة.

وأهل البيت لم يميلوا يوماً إلى العنف ولا جنحوا في تأريخهم المشرِّف إلى سبيل لا يبدأ من الكتاب، ولم تقم سياستهم على غير مبادىء الإسلام

فكانوا أبعد الخلق عما يؤدي إلى الانقسام وأكثرهم كرهاً لتحريك النعرات القبلية أو إثارة الأحقاد العشائرية واستعمال لغة الدس والكذب والدعاية الإرهابية وغيرها من معالم سياسات الحكام ومناهج نظمهم.

بل سارت دعوتهم على ممر الأيام بطريق الاستقامة والاعتدال وعدم إراقة الدماء إلاّ بحق والتحفظ عن الاعتداء ومبادرة الخصم، أو الأخذ بدون جناية.

ومما زاد الموقف آنذاك تعقيداً هو تمسك الأمير السابق بالحياد وعدم المبادرة إلى أخذ الإجرآءات ضد مسلم بن عقيل، بل سارت الأمور في الكوفة بهدوء، لا يحتاج الموقف إلى أخذ احتياطات أكثر مما اتخذه رجال الدعوة في نشرها، وجلب أكبر عدد ممكن من ذلك المجتمع الكبير إليها.

وقد كانت العناصر المختلفة والفئات المتنازعة تعمل بالخفاء لإحباط الحركة، وإفشال الدعوة، فكانوا ينضمّون إلى الجهة الموالية للأمويين، ويشجعونهم في المبادرة من جهة، ويشاركون رجال المعارضة من جهة أخرى، ليلعبوا الدور الذي يضمن سلامة مصالحهم، وتحقيق أهدافهم وفي ذلك الجو الهادىء، والإقبال الهائل على مبايعة مسلم، انفجرت الكوفة بما تخبئه الأقدار وتضمره الحوادث، وإذا بها تموج كالمرجل وتسرع إلى الانقلاب كالسيل من رؤوس الجبال، وإذا بتلك الجموع تتجه اتجاهاً عكسياً.

الحملة القاسية:

لقد فوجيء مسلم بن عقيل عليه السلام أول الأمر بقدوم ابن زياد واتخاذه تلك الحملة القاسية من أخذه الناس بالشدة ومعاملته لهم بالقسوة والعنف فالرعب قد انتشر بالكوفة، والخذلان أخذ دوره في صفوف الناس، والاعتقالات متواصلة، والصلب على الأبواب والقتل في الساحات.

وكان موقف مسلم موقف الحكيم المتريث الذي ينظر إلى عواقب الأمور بدقة، فلم يقدم على دفع البلد إلى هوة حرب أهلية، ولم يتعجل بمن معه من أنصاره فيهاجم ابن زياد، وليس من خطته المهاجمة، ولا هو مأذون بإعلان الثورة في غير موعدها وإن فعل بما لم يؤمر انقلبت الموازين وانعكست النتائج.

كما أن علو نفسه، وشرف محتده لم يسمحا له بأن يستعمل الغدر، والخيانة حينما دعا للفتك بابن زياد في دار شريك.

وما يروى أن جارية شريك اعترضته عندما أراد تنفيذ الخطة أمر لا صحة له، فإن مسلم بن عقيل لم يكن بتلك الدرجة من جهل العواقب وقبح القتل بالغدر، والأمور السيئة المرتبة على تنفيذ تلك الخطة، ولو أنه قام بتنفيذها فهل يجدي، وتطوى صحيفة سيادة الأمويين على الكوفة وينتهي كلّ شيء؟ أم تتضاعف المشكلة لوجود الكثير من الزعماء الذين يقومون مقام ابن زياد؟ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى أن الخطة لو نفذت لكانت فتحاً جديداً لبني أمية في إسناد تهمة الغدر والفتك لأهل البيت وبهذا العمل تقوم دعاياتهم المغرضة ضد دعوة الحسين وإن فاتحة عهده كانت بالغدر والخيانة، فكيف تطمئن النفوس إليه، ويظهر ممثل الحسين وسفيره بصورة لا تتفق مع واقعه، فهو قد جاء ممثلاً عن الحسين وليس هذا من رأي الحسين، ولو فعله مسلم لخالف الحسين وأصبح خارجاً عما رسمه له من مهام السفارة.

ولقد تمسك مسلم بما شرعه الله وسار على ما يقتضيه نظام دعوة الحق.

دور التكتم

واجهت الدعوة ظروفاً اضطرتها إلى البقاء في دور التكتم والتحول عن الأعمال العلنية، فقد اعتقل أكثر زعماء الشيعة، وانقلب أهل الأطماع لجانب ابن زياد وطلبوا وده، فاختفى أكثر من اشترك في الكتابة للحسين، وحبست البيوت رجالها خوفاً من ابن زياد وأمسكت الأمهات بأولادها، والقبائل بزعمائها وبقي مسلمﷺ يواجه هذه المشكلة بصبر وتأنّ، فلم يتسرع في المواجهة وتفجير الأوضاع وصار خلّص أصحابه يختلفون إليه لمعالجة المشكلة ـ من طرقها المشروعة تجنباً لخطر المسارعة في الأمر قبل إحكامه.

وكان أهم شيء يشغله هو كتابه للحسين في طلب القدوم إلى الكوفة وقد أصبح الوضع يسير باتجاه يخالف الصورة التي اطلع عليها الحسين، إذ انحرفت عنه الأغلبية، وأصبح الأمر بيد العرفاء والمتقربين للدولة طمعاً في السلامة.

* * *

لقد كان مسلم يركن إلى جهة قوية متماسكة، قوامها زعماء مخلصون لهم أتباع أقوياء، وحلفاء أوفياء، كحبيب بن مظاهر والمسيب بن نجبة وسلمان ابن صرد الخزاعي، ورفاعة بن شدّاد، والمختار بن أبي عبيد، وعابس بن شبيب الشاكري، وغيرهم من زعماء الكوفة وأعيان الشيعة وهم أبطال المصر، وقواد الثورة وبإمكانهم الاستيلاء على الحكم وطرد النعمان ابن بشير عندما كانت الأمور مواتية لولا أن القضية كانت تسير على مخطط مرسوم، لا يصح تجاوزه، لأن المصلحة تدور حول السير عليه.

وقد سار مسلم بن عقيل على خطٌ إسلامي صحيح وسلك طريقاً سليماً ولم يدخل في معركة دموية، ويوقع البلد في معركة داخلية.

ولكن المفاجأة الغريبة التي حدثت بقدوم ابن زياد قد أربكت الوضع فاضطرب حبل الاستقامة، وأصبحت القضية على أبواب الخطر. فواجه مسلم هذه التطورات بثبات وثقة ولم يتخذ عملاً من شأنه الخضوع لمقتضيات الوقائع وضرورات الظرف بل بقي رسول حق وسفير صدق لصاحب المبادئ وزعيم الأحرار.

في بيت هاني:

انتقل مسلم بن عقيل من دار المختار بن أبي عبيد إلى دار هاني ابن عروة لأنه أمنع جانباً لمكانته وزعامته، وكان هاني ممن أدرك النبي ﷺ وقد وصف المؤرخون قوته وعزته في عشيرته، ومنعته في بلده: بأنَّه كان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، فإذا اجابتها أحلافها من كندة وغيرها، كان في ثلاثين ألف دارع[1]

* * *

وكان ابن زياد قد وسع سياسته الإرهابية، وأعماله التعسّفية من اعتقالات متواصلة وهجوم على البيوت الآمنة، وقتل جُماعي.

وظهر التشفي والانتقام بين الأفراد وساد الخوف وانتشر الرعب. فكانت جموع أهالي الكوفة كأنها تدفع إلى الزنازين وتعاد إلى السجون وهي تتقهقر فتتكتم على مشاعرها وأهدافها بعد أن باشر سفير الحسين في الإعداد لنهضتهم ولردِّ الجور والقهر والتحكم الأمويين.

أقام مسلم في بيت هانيء مكرماً معززاً وأصبح البيت مركزاً للدعوة تعقد فيه المشاورات والاجتماعات استعداداً للقيام بالعمل الذي يناسب

---

(١) مروج الذهب، ج٣، ص٢٩.

الأمور، عندما يداهمهم أمر إذ يلزمهم الدفاع عن مسلم، وحماية جانبه، أو عندما يقدم الحسين عليه السلام.

وهذا التجمع أشبه شيء بتجمع أفراد لأن أكثر الزعماء قد اعتقلوا وبعضهم سافروا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ومصاحبة الحسين، كعابس ابن شبيب البطل الشهير، وقد أثر غيابهم على طريقة الاستعداد وافتقدت القيادة الميدانية عناصر الزعامة الأخرى التي تتولى تنفيذ الخطة في مواقع نفوذها ومواضع زعامتها.

وقد نجحت سياسة التفرقة التي تشكل دستور الأمويين ومنهجهم وفاضت الأموال بين أيدي ضعاف النفوس والإيمان فانقسم المجتمع إلى عدة فئات وأخذت الإشاعات والأراجيف تلعب دورها في بلبلة الأفكار وتخويف الناس وزرع اليأس في نفوسهم.

وعلى أي حال فالكوفة باتت تغلي بعوامل الثورة والعناصر متناحرة ومسلم له أنصاره، وابن زياد جاد في عمله، والحياديون انقسموا إلى قسمين، قسم دخل مع ابن زياد، وقسم ينتظر قدوم الحسين ومسلم لا يرغب في إراقة الدماء، وهو ينتظر قدوم الحسين فهو أولى بالأمر، وأعرف بالواقع، وكيف كان فإن ابن زياد واصل نشاطه وبث جواسيسه في القضاء على دعوة مسلم.

* * *

لقد كان موقف هاني يهم ابن زياد، فهاني زعيم له مكانته وأثره في مجتمعه وأهله وعرف عنه الإخلاص في الدين والإيمان حتى كان لا يخشى الولاة ولا يأبه بقوة الظلم ولذلك نراه لم يقدم على ابن زياد فيسلّم عليه، فسارع للقضاء على هاني قبل أن يأتي الحسين، ليصفو له الجو وليتخلص من المعارضين ويكشف عن مسلم وأتباعه.

لأن القضاء على هاني هو هدم لأكبر حصن للحركة، ثم علم أن مسلماً في بيت هاني، وأن داره مقر قيادة مسلم وبها تجري الاجتماعات السرية، فأحضر الزعماء، وأظهر التلطف بوجوه البلد ورؤسائها، وذكر هانيء بن عروة. لأنه لم يسلم عليه، وهو يتشوق لرؤيته، فقالوا: إنه مريض. اعتذاراً عنه، وحفظاً لمقام هاني.

فقال: لو علمت بمرضه لعدته، ثم طلب منهم الذهاب إليه، فأرسل جماعة وهم: أسماء بن خارجة، ومحمد بن الأشعث، وعمر بن الحجاج، فركب هؤلاء إليه وسألوه المسير إلى السلطان فإن الجفاء لا يتحمله وألحوا عليه[1].

فركب معهم، ولم يدر في خلده أنه سيؤخذ على حين غرّة ـ وتخذله عشيرته وحلفاؤه، وهو عزيز الجانب له عدة وعدد.

ولا يعلم ما أضمرته الأقدار له فخاطبه ابن زياد بلهجة فظة مغلظة فأجابه هاني بعزة وإباء. واشتد غضبه عندما طلب منه أن يأتيه بمسلم بن عقيل وهدده بالقتل إن لم يفعل فقال هاني: (إذا تكثر البارقة حولك) وهو يقصد عشيرته وأحلافه. كما يروىٰ أنه قال له مغضباً:

إن فعلت ذلك ليهرقن دمك بين سيوف مكة فغضب ابن زياد وهمّ كلّ منهما بالوثوب على الآخر وضربه بالسيف.

وكان ابن زياد قد دبر الأمر، وأحكم الخطة، وغامر مغامرة شديدة فتجرأ على هاني وأهانه بكلامه، وهاني لا يستطيع الدفاع عن نفسه ثم اعتقل في القصر.

وكان لنبأ اعتقال هاني وقع مؤلم وأثر شديد في الكوفة، وقد جرت

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد. وبحر العلوم في رجاله.

تحركات فاشلة وارتج القصر لهذا الحادث، ووقف ابن زياد موقف عدم المبالاة، وكان هذا أول خطر يحيط بحركة مسلم، فاعتقال هاني يعرقل سير العمل السري وقتله لا يبقي أثراً للعمل فتقرر أن يقوم مسلم بالإفراج عنه وعن بقية المعتقلين: لأنه بالفعل يملك قوة يمكنه أن يدافع عن نفسه، ويمكنه خلاص هاني، وشاع اعتقال هاني، وغضبت مذحج حتى أحاطوا بالقصر يحاولون الإفراج عن هاني[1].

وبينما هم كذلك إذ خرج عليهم القاضي شُريح فأخبرهم بسلامته، وأنه لا يرضى تجمعهم وعندما اعتقل هاني لم يعد مسلم يرىٰ سبباً للبقاء في دار هاني لأنه اعتقل وتحولت الدار إلى مسرح تخيم عليه مشاعر التعاطف والتألم لاعتقال هاني.

الزحف على القصر

عندما انتشر خبر اعتقال هاني ماجت الكوفة واستعدت الجموع المناصرة لمسلم، بانتظار أمر الزحف على ابن زياد لإنقاذ هاني، وأراد مسلم عليه السلام أن يستكشف خبر هاني فأرسل عبد الله بن حازم إلى القصر، ليأخذ الخبر، فعاد عبد الله بما يسيء خبره، من سجن هاني وضربه[2].

وأقيمت النياحة في بيت هاني، وحضرت نساء من مراد وهن يندبن ويقلن واثكلاه، يا عزتاه، وهنا رفع شعار الثورة: «يا منصور أمت» فتجمعت الجموع واحتشدت الجيوش، وزحفوا نحو قصر الإمارة، وكان ابن زياد في المسجد والناس حوله، وقد أحاط به زعماء الكوفة يخذلون الناس، ويهددونهم ويحذرونهم من مخالفة الأمر، وقام فيهم خطيباً:

(١) الطبري، ج٦، ص٢٠٦.
(٢) رجال بحر العلوم العلوم ج٤، ص٢٦.

«أيها الناس اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتحرموا. إن اخاك من صدقك، وقد أعذر من أنذر».

ولما انتهى من خطبته التهديدية وأراد أن ينزل إذا بجلبة والناس يهرعون، وحراس الأبواب يفرون، ويقولون: قد جاء ابن عقيل فاستولى الرعب على ابن زياد وهرب إلى القصر هو ومن معه من الأشراف وأغلقوا الأبواب عليهم.

* * *

كادت هذه الحملة أن تنجح، فقد زحفت على القصر أفواج العرب، ورؤساء القبائل، يحملون رايات الحرب، ويعلنون الثورة ضد حكام الفسق وولاة الجور.

وكانت القيادة بيد مسلم، وقد عبأ أصحابه حسب ما تقتضيه الخطط العسكرية، وركب مسلم بن عقيل ونادى بشعاره «يا منصور أمت» فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، وتقدم المختار بجيشه ومعه راية خضراء وعبد الله بن نوفل بن الحارث براية حمراء[١].

وسار مسلم وسط الجمع بعد أن أحكم تعبئتهم ميمنة وميسرة، وكان ابن زياد وسط جموع أصحابه، فانهزم مرعوباً إلى القصر، وأدخل معه خواصه وحراسه، وأحاط مسلم بالقصر، وضرب عليه الحصار بجيش كامل الاستعداد، ومقسم إلى كتائب فكان عبد الرحمن الكندي على ربع كندة وربيعة، وكان مسلم بن عوسجة على ربع مذحج وأسد، وأبو ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعلى قريش والأنصار العباس بن جعدة ابن هبيرة.

---

(١) البداية والنهاية ج٨، ص١٥٤.

وتتعاقب الجماعات إلى المسجد، وابن زياد معتصم بقصره يدير وجوه الحيلة حتى تتابعت أعوانه وجنوده، ولكن لا قابلية له على المقابلة ما لم يستعمل خطة التخذيل والإرهاب، فأرسل زعماء العشائر يبثون في الناس روح الخوف ويحذرونهم من وصول جيش الشام، فهو على الأبواب وانبثّ الرجال في البلد يخذلون الناس وينشرون الرعب، وجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وتقول له: ارجع إلى البيت يكفونك ويقول الرجل لابنه وأخيه: كأنك غداً بجنود الشام فماذا تصنع معهم فتخاذلوا وقصروا(١).

وأحكم ابن زياد الخطة فأمر عبد الله بن الحصين الحارثي أن يخرج بمن أطاعه من مذحج فيسير في الكوفة ويخذل الناس ويحذرهم العقوبة وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج بمن أطاعه من كندة وحضرموت، فيرفع راية أمان لمن جاء من الناس(٢).

وتجمعت فلول المعارضة، وسارع المخذلون بنشاط قوي وارتج البلد وكثر المرجفون في المدينة، وعلت الأصوات: جيش الشام جاء جيش الشام جاء.

وأحدث ذلك في النفوس خوفاً وذعراً فهم أعلم بما عليه نفوس جنود الأمويين من أحقاد وثارات فإذا دخل جيش بني سفيان الكوفة فستحدث المجزرة وسيعمل فيهم السيف وهم في عقر دارهم وليسوا بساحة حرب. لقد ظهر الضعف في جيش مسلم، وبانت علائم التخاذل ولعبت المطامع دورها، هذا وقد انتشرت في المدينة تلك الحملة من الدعايات وارتفعت ضجة في أرجائها تنذر الناس من خطر مداهم وهو وصول جيش الشام وتقدم الأشراف والعرفاء بالإنذار ورجال السلطة ينادون:

---

(١) البداية والنهاية، ص١٥٥.

(٢) الطبري ج٦، ص٢٠٥.

الْحقوا بأهلكم ولا تتعرضوا للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين قد أقبلت، وقد أعطى الأمير عهداً، إن أقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم بأن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البري بالسقيم والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى لكم منه بقية من أهل المعصية، إلاّ أذاقها وبال ما جنت أيديها.

وهذا النداء يعتبر إنذاراً خطيراً وتهديداً وتوعيداً فانصرف من استولى عليه الرعب، وفرَّ بنفسه من خطر مقابلة جيش الشام الفاتك، وبعضهم انصرف برجاء التفاهم والحلّ بدون إراقة الدماء، وانسحبت القبائل وترك الناس صفوف جيش مسلم ولم يبقَ إلّا أهل الثبات وعدّتهم ٥٠٠ نفس.

الحلقة المفقودة

ظهر التصدع في صفوف جيش مسلم وبان الانقسام بعد التخاذل الذي أحدثته الدعاية، والحرب النفسية ولم يبق معه إلّا خمسمائة رجل كما قدمنا، وهنا تقع أسئلة واستفسارات عن مجرى الحوادث في هذا المجال من محاصرته للقصر إلى أن حوصر هو في محلة كندة، عندما وافاه جيش الكوفة بقيادة محمد بن الأشعث فهل يصح أن مسلماً عندما تفرق أصحابه وأتباعه وبقي في خمسمائة من أصحابه، صلى المغرب وليس معه إلاّ ثلاثين. فلما خرج من المسجد ليس معه إلّا عشرة، فلما خرج من كندة وليس معه رجل يدّله على الطريق؟! ولما بلغ طرف الزقاق التفت فلم يَرَ خلفه أحداً[1]

أجل أين المخلصون من أنصاره؟ ثم كيف يستطيع مسلم أن يخرج

---

(١) ثقات ابن حبان ح٢ ص٣٠٨.

بمفرده وجواسيس ابن زياد تلاحقه، فكيف غفلوا عنه فيخرج سائراً في أزقة الكوفة، ولا يعرفه أحد، حتى انتهى به المطاف إلى دار طوعة وأقعده العطش على بابها فتخرج وتجري بينهما محاورة:

ـ يا رجل ما جلوسك على باب داري؟

ـ أريد شربة ماء!

فتدخل وتأتي بالماء فيشرب ولم ينصرف فتخرج إليه وإذا به في مكانه فتقول:

ما جلوسك في باب الدار؟ لا أحلّ لك ذلك انصرف لأهلك.

فيقوم مسلم وهو يقول: ليس لي أهل ولا عشيرة.

فتقف المرأة هنا موقف حنان ورأفة، فقالت له: من أين أنت؟

فانتسب لها فعرفته وأضافته تلك الليلة.

وهي قصة طويلة ذكرها المؤرخون ولا أريد أن أقول أن شخصية طوعة هي شخصية وهمية لا وجود لها في مجال هذا العرض التاريخي، كلا فإن طوعة لها ضلع في الحركة ومشاركتها مع أهل الكوفة في تهيئة جو السخط ضد الأمويين، ولكن الإطار الذي برزت فيه صورتها في هذا الحادث هو غير إطارها الواقعي، ويمكن وضعها في غيره، ولكن لا نريد أن نتمهل في الفرضيات والوهميات، فإن طوعة امرأة عربية موالية لآل محمد ﷺ شأنها شأن كثير من نساء الكوفة اللواتي أثبت التاريخ مواقفهن الحاسمة في مناصرة أهل البيت ومن الممكن أن يكون وقوع مضايقة مسلم ومن معه من قبل جيش ابن زياد كان في محلة كندة، قرب دار طوعة، فقامت بواجبها من مساندة مسلم وتشجيعه وإعطائه الماء أثناء حملاته.

ونعود إلى الحلقة المفقودة مع تاريخ هذا الحادث العظيم فحين نترك مسلم بن عقيل يخوض معركة قوية وقد ضرب الحصار على ابن زياد وأقام الكوفة وأقعدها، فمن حقنا أن نتساءل: أن زعيم جبهة قوية وقائد جيش عربي فيه أبطال من رجال الكوفة، كيف تنهار جبهة بهذه السرعة ويهزم ذلك الجيش ويبقى مسلم بمفرده وليس معه أحد يدله على الطريق؟!

فلنطوِ صفحة هذا العرض ونلتقي ببطلنا المجاهد في حرب الشوارع.

حرب الشوارع:

وأياً كانت التوجيهات في موقف مسلم فنحن مع بطلنا المجاهد في محاصرته للقصر، ومضايقته لابن زياد، ونتركه في هذا الموقف ونلتقي به في شوارع كنده وهي محلة من محلات الكوفة عندما اعتصم بها، وقد كانت مقابلة شديدة ونزال في الشوارع، ومسلم بن عقيل يصول كالأسد، وقد وصفه بعض مشاهديه بأنه كان يأخذ الرجل في يده ويرمي به فوق البيت.

اشترك في حربه الرجال والنساء والأطفال فالرجال للسيوف والرماح، والنبال، والنساء بالنار في أطنان القصب، تلتهب ناراً فترميه بها من أعلى السطوح[1] والأطفال يرمونه بالحجارة، وهو يقابل ذلك بشجاعة وبسالة وثبات ويحمل عليهم ويقول:

أقسمت لا أقتل إلاّ حُرّا ... وإن رأيت الموت شيئاً نُكرا

كل أمرىء يوماً ملاقٍ شرّا ... ويُخلط البارد سخناً مرّا

ردّ شعاع الشمس فاستقرّا ... أخافُ أن أكذب أو أغرّا

ويصف موقفه بعض أدباء العصر الحاضر تعليقاً على هذا الرجز بقوله: وهذا الرجز هو في الناحية الفنية بأعلى درجة في البلاغة والتصور عما يختلج في النفوس.

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج٣، ص٦٨.

إنه من الناحية النفسية صادق كلّ الصدق معبراً تعبيراً دقيقاً عن الموجات النفسية، التي كانت تترفع في نفس الشاعر، وهو في موقفه الضيق الحرج، فهو قبل كلّ شيء مصمم على أن يحتفظ بحريته، ولو أدّى هذا إلى قتله وهو يعلن في صراحة وصدق أن الموت شيء منكر ولا يقول كما يقول غيره ممن يغالطون أنفسهم، أن الموت شيء محبب إلى نفسه، وإنما يعبر عن نفسيته تعبيراً صادقاً فالموت لا يحبه، ولكنه لا يفر منه ما دام، قد صمم على الاحتفاظ بحريته ثم يحاول أن يهدأ في روعه ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أن تجذبها في تيار من الهلع والفزع.

فيحدِّث نفسه بأن الدنيا منقلبة، وكلّ امرئٍ لا بدّ أن يلاقي فيها ما يسوؤه وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية بارعة.

فالبارد الحلو لا بدّ أن يُخلط يوماً بساخن مرّ، والأيام الناعمة القليلة لا بدّ أن يشوبها هجير الغيظ، ولفحة الحر بل إن شعاع الشمس المتدفق في حيوية ونشاط لا بدّ أن يرتدّ في النهاية ويستقر، فكل ضياء لا بدّ بعده من ظلام، وكل صباح باسم لا بدّ أن يرتد إلى غروب حزين، وإذاً فما المشكلة النفسية التي يعانيها؟ إنه لا يحاول أن يخفيها عنّا، ويضلنا عنها ولكنه يعلنها في صدق ترتاح إليه النفس، أنه حريص على الحياة، ولكنه حريص أيضاً على الحرية، وحرصه على الحياة يغريه على تسليم نفسه إلى أعدائه، ولكن حرصه على الحرية يجعله متردداً لأنه يخشى بل يخاف أن يكذب عليه أعداؤه، ويخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده، بأن يموت في سبيل الحرية، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليهاحرصه على الحياة أرأيت كيف استطاع أن يصور موقفه الضيق الحرج هذا التصوير الفني الرائع الذي يستمد روعته في تعبيره عن نفسيته تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا تضليل، أن هذا هو السر الذي يجعل هذه السطور القليلة من الرجز تؤثر في نفوسنا تأثيراً

قوياً، يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعدله إلّا صراعه الخارجي مع أعدائه[١].

* * *

ومضى مسلم في جهاده وسط تلك الجموع التي ازدحمت في شوارع محلة كنده، وهو يدفعهم إلى التراجع والفرار من بين يديه، وكانت الحجارة من السطوح تنصب عليه، والنيران تلتهب بأطنان القصب، تتساقط من على الجدران إلى الأرض لتعرقل هجماته.

وأدى ثباته في المعركة إلى عجز ابن الأشعث عن التغلب والانتصار في هذه المعركة، فأعطاه الأمان غدراً. فلم يجبهم إلى ذلك.

وناداه مرة أخرى: لك الأمان يا مسلم لا تقتل نفسك. فلم يأمن منهم، واستمر في القتال على شدة عطشه، وضعف بدنه، ونزف دمه. لكثرة جراحاته، فأعاد ابن الأشعث عليه الأمان مرة أخرى. وقال:

إنك لا تكذب ولا تغر إن القوم بنو عمك، فلم يأخذ بقوله، واتّجه إلى الجيش المحارب له ووجه سؤاله إليهم فقال: ألي الأمان؟

قالوا: نعم، إلّا عبيد الله بن العباس السلمي أحد القواد فإنه قال: لا ناقتي فيها ولا جملي، وتنحى عن العسكر، وإنَّ مسلم قد استولى عليه الضعف فأسند ظهره إلى الحائط، وتقدم إليه ابن الأشعث بالأمان فقال مسلم لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم.

وبهذا ينتهي دور البطل المؤمن والشهيد الخالد الذي تحمَّل في سبيل إداء رسالته أعظم المصاعب، وواجه أشد المشاكل.

إنه لم يغامر بنفسه وبمن اتّبعه فيخوض معركة يوقد نارها خصوم

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ص٣٧١ ـ ٣٧٢. الدكتور يوسف خليف.

الإسلام وشعارهم «أينما أصابت فتح» إذ لم تكتمل بعد شروط النجاح ولم تتوافر الموازنة المطلوبة ولكنا في نهضة الحسين نطلع على سر ينتظم أحداثها ووقائعها فهي في صفحاتها المتعاقبة لم تكن مواجهة بتصورات الحرب وإنما كانت مواجهة بتصورات المبادىء والقيم لأنها نهضة وعودة إلى سنة محمد وسيرته وسياسة علي وخلافته. ونهاية مسلم تجسد الإيمان والاستمساك بالعقيدة والإباء والشهامة بإزاء الانحراف والغش وقد كان سفير الثورة بطلاً فضحت شجاعته وثباته على الحق انحطاط المتذبذبين والمتزلفين الذين لم يتجاوز إسلامهم الحناجر التي رددوا بها الشهادة وعرّت صورة استشهاده تلك النفوس التي سارت مع مسيرة الإسلام وجرفتها الانتصارات فتظاهرت بما اقتضته تغييرات القرآن وظهور دين الإسلام وفي حناياه يستكن الشرك ويكمن الكفر. وقد كانت نهاية مسلم بداية للمعركة الكبرىٰ.

التسليم:

وانتهى الأمر بتسليم مسلم بن عقيل، بعد أن قطعوا الأمان على أنفسهم، ولأنه عربي المحتد هاشمي النسب، علوي النزعة، يحتفظ بالنظم الإسلامية، والتقاليد العربية فعل ما يفعله أي شريف نسيب مثله يعطي للكلمة في مواقف الفروسية وسير الحياة حقها من الالتزام كمعيار للصدق والوفاء اللذين دخلا في سلوك المسلم بمفاهيم تتصل بقيم الإسلام وتعاليم الدين.

ومسلم سفير الإمام الثائر واكب الإمام الحسين في معالجة إلحاح أهل الكوفة ومعاملته لمشاعر السخط والغضب التي عمت محبي أهل البيت وشيعتهم وهم يرون السياسة الأموية سادرة في غيها وصائرة إلى ما تريد. وعرف مسلم كيف أراد الحسين أن يعطي للصلح حقيقته لأن الوفاء بالكلمة

من خلق أهل الحق فإن كان معاوية قد غدر ولم يوف بشروط الصلح فإن البقاء على ما صدر من آل البيت والتقيد به يعطي للمسلمين درساً في معنى العهود وقيمة الوعود.

وقد اتضح لنا من سياق المواجهة أن مسلماً قد عزم عزم الأبطال على الشهادة ولكنه رأى هذه الوعود فأراد أن يصدق الأمان ويتصرف بقيم الرجولة والشهامة وخلق الإسلام ولكنهم لا أمان لهم «إذ لا إيمان لهم» وأصبح ذلك البطل أسير أعداء لا يعرفون الرحمة وتحت أمر خصوم لا عهد لهم بالرفق جفاة غلاظ قد تجردوا من عروبتهم كما انسلخوا من عقيدتهم، فأحاطوا به وانتزعوا سيفه فقال: هذا أول الغدر.

فقال له محمد بن الأشعث: أرجو أن لا يكون عليك بأس.

فقال مسلم: وهل هو إلّا الرجاء؟ أين أمانكم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

وسار مسلم مع قائد الجيش تحوط به الجند المدججون بالسلاح، وقلوبهم تتقد بنار الغيض لكثرة ما كبدهم من خسائر في الأرواح، وقد تسابق المبشرون لابن زياد بالخبر.

واخترق مسلم الشوارع بالحالة التي هو عليها من كثرة الجراحات وآثار ضرب الحجارة ولهب النار من القصب ظاهر على جسمه، إنه يعلم بالشر الذي قد كمن له وراء دخوله على ابن زياد وآيس من وفاء القوم بأمانهم، وعرف تقرير مصيره، لأن الأمر يعود لابن زياد، وهو الذي عرفت سيرته، ولم تترك له أمه سمية مجالاً لاكتساب أي فضيلة، فعاش وقد ملأ وطابه من الرذائل.

* * *

كان مسلم يفكر والقلق باد عليه، فاعترض عليه أحد مرافقيه وقال له: إن الذي يطلب مثل الذي تطلب لا يتأثر؟!.

فأجابه مسلم: لم يكن هذا التأثر لنفسي وإنما لأهلي المقبلين.

وحق لمسلم أن يفكر وأن يتأثر لما وراء حادثته من حوادث، وما يتلوها من مآسٍ، إنه يفكر كيف يتدارك مشكلة كتابه الذي وجهه إلى الحسين يطلب منه سرعة التوجه للكوفة، وهو لا يعلم بهذه النتائج المعكوسة وقد أصبح مسلم بن عقيل بمفرده، وهو الآن في طريقه إلى خصمه وعدوه الشديد، والجيش يحيط به، والسيوف مسلولة على رأسه، والرماح مشرعة إلى صدره، وينظر عن جهاته الأربع فلا يرى إلّا شامتاً قد ظهر الفرح على وجهه وغاضباً قد أحرق الغيض قلبه.

إنه يواجه وجوهاً لا تعرف الحياء، ولا عهد لها بالخجل، وقد اشتد عليه الأمر، فالوقت قائضٌ والدماء تنزف من بدنه، واقتيد إلى باب القصر، فوجد هناك جماعة من الزعماء ومن أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه، وهم ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد.

هذا ومسلم مخضب بالدماء مثخن بالجراح، وفي غاية الظمأ وفيما هو كذلك شاهد قلة ماء هناك فأراد أن يتناولها ليشرب منها، فقال له رجل من أولئك وهو مسلم بن عمر الباهلي: والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم.

فقال له: ويلك يابن باهلة أنت أولى بالحميم، والخلود في الجحيم مني ثم جلس متسانداً إلى الحائط من التعب وشدة العطش.

* * *

هكذا تغيرت الأحوال، وانقلبت الأوضاع وهكذا كانت القسوة والغلظة، وتغير الزمن وتصرفه، رجل أسير مثخن بالجراح دمه ينزف من كلّ

جسمه ناحل يمد يده إلى ماء أمام عينيه ويمنع بأقسى ردٍّ وأقبح لفظ، بمحضر من وجوه العرب والأمراء وأبناء الصحابة، أين الحميّة؟! وأين النخوة العربية؟

وهنا توجه مسلم لابن الأشعث قائلاً: إني أراك عاجزاً عن أماني فهل عندك خير أتستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته.

فقال ابن الأشعث: فوالله لأفعلن. ثم كتب بما قال مسلم إلى الحسين عليه السلام وأرسله مع رجل فلقيه الرسول بزرود.

مع ابن زياد:

احتشد القصر بمختلف الناس يهنئون الأمير بالنصر، ويشاطرونه الفرح بالقضاء على مسلم بن عقيل وأسره، وهم ينتظرون نهاية مسلم، وحكم ابن زياد فيه.

وهنا يدخل مسلم وقد طرز الدّم أبرادَه النقية، وصبغ جبهته بلونه القاني وأثّر رشق الحجر على جسمه وعلامات الحرق قد غيرت أديمه.

وكان ذلك لابن زياد حلماً وأسعد ساعة تمر عليه، هذا سفير الحسين مسلم بن عقيل؟ الذي أزعج الدولة قدومُه، وهزّ كيانها نبأ وصوله، وبالأمس أزعج ابن زياد، وأدخل الرعب في قلبه فلاذ بالفرار.

يا له من نصر، لقد انهار البناء الذي كان يحتمي به أعداء الأمويين. وانحلت الجبهة التي تساند الثائرين، عندما قضى على القيادات الثورية التي كانت معقد آمال الجماعات المكبوتة، والفئات التي تتطلع إلى التخلص من مظالم الأمويين وعسفهم.

هذا مسلم بن عقيل الذي أزعج قدومه يزيدبن معاوية في الشام، وفقد

ابن زياد استقراره في الكوفة وأصبح الكيان الأموي مهدداً بقدومه، لقد زال كلّ شيء، ها هو بين يدي ابن زياد، وينتظر الناس حكمه فيه.

ويقوم ابن الأشعث قائد الحملة لقتال مسلم في الشوارع، ويخبر ابن زياد بأنه أعطى الأمان لمسلم.

فيجيبه ابن زياد باستنكار وتهور، وما أنت والأمان؟!! كأننا أرسلناك لتؤمنه إننا أرسلناك لتأتينا به.

وهنا عرف ابن الأشعث نوايا ابن زياد السيئة، وذهب تعهده لمسلم وأمانه له أدراج الرياح، ودخل مسلم يرتدي أبراد العز وحمية قريش. وكرامة العروبة، وعزة الدين، فلم يسلم على ابن زياد فاعترضه الحرس.

لِمَ لم تسلم على الأمير؟!!

فأجابه: ما هو لي بأمير.

فقال عبيد الله: لا عليك سلمت أو لم تسلم فإنك مقتول.

قال مسلم: إن قتلتني فقد قَتل شرٌ منك من كان خيراً مني.

فغضب ابن زياد، وتحول إلى وحشٍ أهوج.

فقال: يا شاقّ يا عاقّ خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة.

فأجابه: كذبت يا ابن زياد، والله ما كان معاوية خليفة بإجماع الأمة، بل تغلب على وصي النبي بالحيلة، وأخذ منه الخلافة بالغصب وكذلك ابنه يزيد، وأما الفتنة فإنك ألقحتها أنت وأبوك زياد بن علاج من بني ثقيف. وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شرّ بريته فوالله ما خالفت وما كفرت، ولا بدلت وإنما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه، وآل زياد.

فقال ابن زياد وقد اشتد غضبه: لقد منتك نفسك أمراً أحالك الله دونه. وجعله لأهله.

فقال مسلم: ومن أهله يا ابن مرجانة؟

قال: أهله يزيد ومعاوية.

فأجابه مسلم: الحمد لله وكفى بالله حكماً بيننا وبينكم.

فقال ابن زياد: أتظن أن لك من الأمر شيئاً.

قال: لا والله ما هو الظن، ولكنه اليقين.

فقال: قتلني الله إن لم أقتلك.

قال مسلم: إنك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، والله لو كان معي عشرة ممن أثق بهم، وقدرت على شربة ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر[1].

فأقبل ابن زياد على مسلم بلغة الجاهل المتهور والأحمق الطائش والظالم المستبد، وجرت بينهما محاورة طويلة ومشادة عنيفة، ذكرها المؤرخون وأعرضنا عن عرضها بكاملها[2].

نهاية المأساة

كانت نهاية ابن عقيل البطل أن يأمر ابن زياد في قتله بصورة وحشية فقد أصعدوه على السطح، وهو يهلّل ويكبّر ويسبّح، ويصلي على ملائكة الله ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا.

وقد حاول ابن زياد أن يطفئ ما أشعله مسلم في نفسه من غضب

---

(١) الفتوح، ٥/٩٧ ـ ٩٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٨، ص١٥٦.

وغيض فقد ظل رسول الإمامة يوجه سهام بيانه ويشهر سيف بلاغته بوجه الطغاة بعد أن جردوه من سلاحه ونزعوا لأمته ويردد أهداف الثورة فيقول لابن زياد: إن أباك قتل خيارهم ـ أهل الكوفة ـ وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرىٰ وقيصر فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعوا إلى حكم الكتاب والسنة وقال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام. فقال له شهيدنا مسلم: أما أنك أحق من أحدث في الإسلام ما ليس فيه أما أنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة ولا أحد من الناس أحق بها منك[1].

فكان مسلم يردد منهاج الحق ويهتف بأهداف الثورة أمام ابن زياد وهو رابط الجأش ثابت الجنان وإنها لصورة خالدة من صور البطولة حيث يقف ثائر مسلم وقد أثخنته الجراح وأوهنه النزف فتسربل بدمائه الشر يفة ويرد على الظَّلَمة والفاسقين بمنطق هو كوقع السيف فيفصح حقيقتهم وما هم عليه من سوء سيرة وسريرة.

وهناك نفذ فيه حكم ابن زياد في القتل الذي جرى على يد بكر ابن حمران.

وكان الناس خارج القصر ينتظرون نهاية الموقف، وما يؤول إليه أمر مسلم وكانوا يفترضون الأمور ويظنون الظنون، فما شعروا إلّا وجثة مسلم تهوي من أعلى القصر، وسقط بعدها الرأس.

وعندما أمر ابن زياد بإصعاده إلى القصر، التفت مسلم إلى محمد بن الأشعث فقال: والله لولا أمانك ما استسلمت.

قم بسيفك دوني قد أخفرت ذمتك.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٤، ص١٨.

وتوجه الناس باللوم إلى ابن الأشعث الذي خان عهده، ولم يفِ بأمانه لمسلم، كما أنه أخذ سيفه ودرعه، وقد هجاه الشاعر:

وتـركـت عـمـك لـم تـقـاتـل دونـه فـشـلاً ولـولا أنـت كـان مُـمـنـعـا
وقـتـلـت وافـد حـزب آل مـحـمـد وسـلـبـت أسـيـافـاً تـقـيـه وأدرعـا[1]

ولما نزل قاتِلُ مسلم من سطح القصر قال له ابن زياد: ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟

قال: كان يسبح ويستغفر فلما أردت قتله قلت: أُدنُ مني، الحمد لله الذي أمكنني منك، وأقادني منك، فضربته ضربة لم تغن شيئاً.

فقال: أما ترى في خدش تخدشنيه وفاء من دمك أيها العبد؟!!

فقال ابن زياد: وفخراً عند الموت! قال: ثم ضربته الثانية فقتلته[2].

هاني بن عروة:

وكان هاني بن عروة سجيناً في القصر، ليس له من يجيب طلبته فقام ابن الاشعث يتشفع فيه وقال: إنك عرفت منزلة هاني في المصر، ومكانته في العشيرة وقد علم قومه أني أنا وصاحبي سقناه إليك، فأنشدك الله لما وهبته لي: فوعده أن يفعل.

ولكن بعد أن أمن كلّ خطر من أهل الكوفة، واستولى على زمام الأمور، أراد أن يضرب أسوأ المثل في الشدة والاهانة لزعماء العرب. ليرهب به قلوب الآخرين فأمر بإخراج هاني إلى السوق، حتى انتهى إلى مكان تباع فيه الغنم، وهاني مكتوف اليدين، ينادي يا مذحجاه، ولا مذحج لي اليوم، وأين مني مذحج؟ فلما رأى أن أحداً لم ينصره ضرب يده فنزعها

---

(١) محمد رضا أمين: الحسن والحسين، ص٨١.
(٢) علي جلال الحسيني، ج٢، ص٧٧.

من الكتف ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر يدافع به الرجل عن نفسه، فوثبوا عليه فشدوه ثم قيل له:

أمدد عنقك فقال: ما أنا بها سخي وما أنا معينكم على نفسي. فضربه غلام تركي لابن زياد فلم يصنع السيف فيه. فقال هانيء: إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك، ثم ضربه التركي فقتله[1].

ثم أمر ابن زياد بسحبه في الأسواق أمام أعين عشيرته وأحلافه تحدياً للكرامة العربية وسحقاً للقيم كما أمر بصلب جثته وجثة مسلم بن عقيل معاً بالكناس منكوسين وأرسل برأسيهما إلى الشام.

وكان يزيد على أحر من الجمر ينتظر النتائج، إذ وافاه البشير بورود النبأ مع هاني بن حية الوداعي، والزبير بن الأروع التميمي يحملان رأسي البطلين مسلم بن عقيل وهاني بن عروة. ومعهما كتاب فيه ما أراد.

فأرسل يزيد بكتاب إلى ابن زياد يشكره ويقول فيه:

(بلغني أن حسيناً قد فصل من مكة متوجهاً إلى العراق فاترك العيون عليه. وضع الأرصاد على الطرق واحترس، واحبس على الظنة، واقتل على التهمة) وبهذا يُفوض ابن زياد من قبل أميره وسيده أن يتحكم في الأمور وأن يأخذ على الظنة، ويقتل على التهمة.

وزياد ليس بحاجة إلى مثل هذا التصريح فما اختير لمثل هذه المواجهة إلّا لأنه معدوم الإنسانية والإيمان ولكن ما يدعو إلى التساؤل هو إعلان يزيد عن سياسة الدولة الأموية ـ وليست هذه السياسة محصورة بظرف الثورة التي

---

(١) المجالس ١/ ٧٩.

يتأهب لها العراق إنما هي من قواعد الحكم ومبادئ النظام ـ في تعاملها مع سبط الرسول الأعظم وابن بنت نبي الإسلام وتوجيهاتها في العمل مع أنصار نهضته وشيعة مذهبه فهلا يكفي مثل هذا الإعلان ومثل هذا التصريح في مراجعة آثار بني أمية على التاريخ الإسلامي وبقاء أمارات الإسلام على سيرهم وهي أمارات واهية وضعيفة تولاها الذين وقعوا تحت تأثير المفاهيم المنحرفة والمغلوطة لمواقع الحكام.

وإنّا نأمل من عملية التصوير والسوق أن نظهر أن السياسة التي تجهر بوحشيتها على مثل هذه الصورة وهي في مواجهة سبط الرسول الذي يطالب بالإصلاح ما هي إلّا سياسة تسعى إلى الانتقام وترمي إلى الثأر فيزيد هو خليفة معاوية لم ينسَ يوماً ماذا فعل أهل البيت في بدر برجال أمية وماذا حل بأهل يزيد عندما انتصر الإسلام على الجاهلية.

وانتهت المأساة بتلك الصورة التي تبعث على الدهشة والاستغراب إذ لم يكتف القوم بقتل مسلم وهاني ولكنهم أمروا بأن تربط أرجلهما بالحبال ويسحبان في الأسواق.

إنها حالة مؤلمة، وحادث عظيم، فبينما الأسواق مزدحمة، وإذا بجلبة الغوغاء يخترقون الطريق، وينفرج الناس سماطين، وتمر جثة مسلم ابن عقيل سفير الحسين وممثله وإلى جنبه جثة هاني بن عروة رئيس مذحج وزعيم الكوفة وهما يجران بأرجلهما بالحبال.

هكذا جرت مراسيم تشييع جنازتي هذين المجاهدين في بلد إسلامي، في الكوفة العربية الثائرة وهكذا كان الانتقام والتشفي بالمسلمين من خصومهم، الدخلاء على العروبة.

ولقد كان الشهيد مسلم على علم بأخلاق ابن زياد فكان همه في ساعات حياته الأخيرة الوفاء بدين عليه في الكوفة وأن يقوم بأحد يستوهب جثته من ابن زياد.

لقد جاء القدر بما لم يكن في الحسبان، ويقع ما لم يكن متوقعاً، من سوء الوضع وسرعة التحول بهذه الصورة البشعة.

وأمام هذه المفاجأة الغريبة، يقف الإنسان متسائلاً:

كيف استطاع ابن زياد السيطرة على الموقف وكيف أخمد ذلك الهياج الذي غمر الكوفة ضد سلطان الأمويين الغاشم، فأصبح البلد بعد ذلك الوضع الثوري يستسلم ويفقد كلّ إمكانياته، للحفاظ على سمعته وكرامته؟!!

ولقد كان مسلم بن عقيل تسانده جبهة قوية تضمُّ ألمع الشخصيات العربية وهو سفير الحسين وممثله، فكيف انهارت الجبهة؟ وأين الزعماء الذين ساندوه، فيصبح وحده في ذلك البلد الذي بايعه فيه ثمانية عشر ألفاً، فأين ذهب هؤلاء؟! وأين شيعة الكوفة التي اشتهرت بأنها علوية بوجه عام؟!!

إلى غير ذلك مما يسبق إلى الأذهان التساؤل عنه، ومعرفة العوامل التي أدت إلى هذه النتائج المحزنة.

ويبدو الجواب واضحاً ـ على ما أعتقد ـ بتأمل بسيط وإلقاء نظرة فاحصة، مجردة عن كلّ عوامل الانحراف عن الواقع، فنلقي الأضواء على مجتمع الكوفة، لمعرفة العناصرالمختلفة فيها، والآراء المتفرقة بين أهلها، والقوميات المتعددة والقبائل المتناحرة والعصبيات القبلية التي تحكمت في ذلك المجتمع.

* * *

إن ابن زياد لم يدخل بلداً متماسك القوى، متّحد الاتجاه، متفق في الآراء بل كانت الكوفة مركزاً للتجمع من جميع القوميات، من عرب، وفرس ونبط وغيرهم.

كما أن فيها من أهل الأديان المختلفة، والمذاهب المتفرقة، عدد غير قليل فأصبحت مرتعاً خِصباً لدسائس اليهود الذين سكنوا الكوفة أيام الفتح والْتحق فيهم مَن أجلاهم عمر بن الخطاب من المدينة وفيها للخوارج مركز اجتماعي، والعثمانية هم الحزب الحاكم.

أما الشيعة فلهم مكانة مرموقة إذ كانوا يمثلون جانب المعارضة للسلطة فهم قاعدة ثورية ينضم إليهم كلّ من يسأم الحياة تحت ظل الحكم الأموي.

وقد انضم الخوارج إلى الشيعة لاتحاد الهدف في بغض الأمويين واشتركوا في مراسلة الحسين، وعند قدوم ابن زياد استسلموا له خوفاً منه. فرجحت كفة ابن زياد باستعماله خطة الإرهاب، والقضاء على المعارضة.

وإلى جانب الإرهاب، وتطبيق العقوبات عمد إلى نشر الدعايات في البلد، حتى بلغت إلى حد الأساطير، وهو يقصد التغلب على الوضع، وتفتيت معنوية الجماهير.

وقد مر بيان البعض من ذلك، ولزيادة الإيضاح ننتقل لدراسة مجتمع الكوفة عسى أن تتضح العوامل التي ساعدت ابن زياد، فهل هي عوامل نفسية يتصف بها أهل الكوفة فوسموا بالخيانة والغدر.

أم أن هناك عوامل خارجية واجتماعية وسياسية، جعلت من الكوفة مدينة علوية، والبصرة عثمانية، والشام أموية؟

الكوفة:

هي من أهم العواصم الإسلامية، لها أثرها في التاريخ السياسي، والحضاري فقد ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية، كما أنها ذات موقع جغرافي له أهميته على الصعيدين السياسي والتجاري، إذ كانت مصدراً

لكثير من المواد التي تحتاجها البلدان الأخرى ويرتادها التجار من مختلف الأقطار النائية.

الكوفة أنشئت سنة ١٧ أيام الفتح الإسلامي لتكون معسكراً ثابتاً للجيش الإسلامي، فكان المقاتلون يفدون إليها من أرجاء الجزيرة العربية ويقيمون في المعسكرات كجنود مدربين على أهبة الاستعداد لخوض المعارك عندما يداهم البلاد الإسلامية عدو، فكانت تضم أكبر عدد وأقوى جند للحرب وهم ينتظرون صدور الأوامر بالخروج إلى الغزو، أو إمداد غيرهم من الجيوش الإسلامية في مختلف الأرجاء، وقد تدفق الجيش منها إلى بلادفارس وغيرها من البلدان التي فتحها المسلمون، ولهذا كان الكوفيون يشددون على الأمويين غضبهم في تصرفاتهم بأموال الأمة وإدارتها، لأن الكوفيين يعتبرون أنفسهم هم الجيش الفاتح، وعلى عواتقهم تم انتشار الإسلام، وبسواعدهم فتحت فارس والروم.

وكانت الكوفة منذ أول تأسيسها مقسمة إلى سبعة (كادرات) وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم، والأعطيات بعد العودة من قبل رؤساء الأسباع.

والتقسيم لم يكن حسب المحلات من البلد، بل قطعات قبلية وفق النسب أو الحلف وهي كما يلي حسب ما جاء في تخطيط الكوفة وتاريخها:

١ ـ كنانة وحلفاؤهم، وكانوا يلقبون بأهل العالية.

٢ ـ قضاعة وغسان، وبجيلة، وخثعم، وكندة، وحضرموت، وهم من اليمانيين وكانت السيادة فيهم لطائفتين وهما: بجيلة ويرأسها جرير ابن عبد الله البجلي وكان مقرباً للخليفة عمر وقد خصص لقومه عطاء سنوياً.

والقبيلة الثانية كندة وهي تحت إمرة الأشعث بن قيس.

٣ ـ مذحج، وحمير وهمدان وهي العناصر اليمانية.

٤ ـ تميم، والرباب من العناصر المضرية التي لم يبقَ منها سوى تميم.

٥ ـ أسد وغطفان ومحارب، ونمير، من بكر بن وائل، وتغلب ومعظمهم من ربيعة.

٦ ـ إياد وعك، وعبد القيس أهل الهجر الحمراء.

فبنو عبد القيس نزحوا من البحرين (الهجر) تحت قيادة رئيس من سلالة ملكية، هو زهرة ابن حوية السعدي أحد أعلام الفتح وأقطابه.

وأما الحمراء فكانوا حلفاء عبد القيس وهم أربعة آلاف جندي فارسي يرأسهم رجل يسمى ديلم، ولهذا عرفوا بحمراء الديلم، وهم الذين الْتجؤوا إلى سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية من بقية جيش الفرس وصار تحالفهم مع عبد القيس بعد معركة القادسية وقد لعب هذا الفيلق دوراً رئيسياً، وكان هو الجيش المقدم في عهد زياد وابنه عبيد الله كما أنه السابق لحرب الحسين وقد باشر المعركة، وكان عدد أفراده أربعة آلاف وقيل خمسة آلاف تحت قيادة عمر بن سعد.

٧ ـ وهذا الرقم قد خلت منه جميع المصادر، ولعله لقبيلة طي، ذات الشأن من القدم وقد قل شأنها بعد مرور الزمن.

كان هذا التقسيم أيام الفتح، وبعد أن دخل الإمام عليّ الكوفة، وأقام حكومته فيها سنة ٣٦ غيرّ نظام الأسباع في الكوفة، وعبّأها على الترتيب التالي:

١ ـ همدان، وحمير.

٢ ـ مذحج وأشعر، ومعهم طي، ولكن رايتهم خاصة بهم.

٣ ـ قيس وعبس، وذبيان ومعهم عبد القيس، وأحلافهم.

٤ ـ كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة.

٥ ـ الازد، وبجيلة، وخثعم، والأنصار.

٦ ـ بكر وتغلب، وبقية بطون ربيعة عدا عبد القيس.

٧ ـ قريش، وكنانة، وأسد، وتميم وظبّة.

وبهذا التقسيم يبدو لنا ظهور بعض القبائل التي لم تكن سابقاً، وهي إما كانت مندمجة مع غيرها أو أنها نزحت بعد عهد التقسيم الأول، وقد راعى الإمام علي في هذا التقسيم بعض التقارب وامتزاج هذه القبائل من عدة وجوه.

وفي سنة ٥٠ هجرية أي في إمارة زياد بن أبيه جعل الأقسام العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث أصبحت الأسباع أربعة:

الربع الأول: أهل العالية.

الربع الثاني: تميم وهمدان.

الربع الثالث: ربيعة وبكر وكندة.

الربع الرابع: مذحج وأسد.

وفي هذا النظام العسكري الجديد حاول زياد تحقيق أهداف سياسية كدمج همدان وهي القبيلة الشيعية مع تميم التي تبغض همدان.

* * *

وعلى هذا استقر التقسيم العسكري في الكوفة، وأصبح له رؤساء مشهورين يعرفون برؤساء الأرباع وهم على استعداد للاستجابة عند دعوتها، وسوقها لميادين القتال، خوضاً لمعركة جديدة أو أمداداً لجيش يطلب الإغاثة، وكان للمقاتلين عطاؤهم الخاص، ورواتبهم من بيت المال.

فالكوفة إذاً قد اشتهرت بالصبغة العسكرية، لأنها أصبحت مقراً لجند

الدولة فكان فيها من الجند في عهد يزيد سنة ٦٠ ـ ٦٤ للهجرة عشرون ألف جندي على أهبة الاستعداد وكلهم من أبناء فارس.

وقد عرفت الكوفة واشتهرت بـ(كوفة الجند) فقد تولّت فتح فارس، ومدت الجيوش الإسلامية بالعون، واشترك جند الكوفة بحرب الروم أيضاً، عندما استعان بهم أبو عبيدة بن الجراح وطلب من عمر أن يمده بجند الكوفة.

فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: أن يندب الناس إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به فتوجه الجيش من الكوفة، وكسب نصف المعركة، وتمّ له النصر.

وكتب إليهم عمر بن الخطاب يشجعهم بقوله: يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمجمتها وسهمي الذي أرمي به، إن أتاني شيء من هنا وهاهنا.

كما مدحهم عمر أيضاً بقوله جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار.

وقال رجل من أهل الشام إلى رجل من أهل الكوفة عندما قدموا على عمر: يا أهل الكوفة أنتم كنز أهل الإسلام، إن استمدكم أهل البصرة مددتموها، وإن استمدكم أهل الشام مددتموها.

* * *

والكوفة كما قدمنا كانت مركزاً لتجمع الفئات من مختلف القوميات، فقد كان فيها بقية الفرس الذين زال ملكهم عن العراق والنبط الذين كانوا تحت سيطرة الفرس، وكان في العراق يهود وصابئة ينتشرون في سواده وقد أجلى عمر بن الخطاب اليهود من المدينة، فالتقوا بيهود العراق وكان هناك

جماعة من النصارى أيضاً، كما أنها تضم كثيراً من المذاهب والأديان المختلفة وقد سكنها المسلمون بعد فتح فارس، ولكن الاضطرابات لم تكن لتهدأ يوماً ما، ولم تزل الكوفة موضع انتشار الخلافات والمشاحنات التي ينجم عنها الاضطراب، وعدم الاستقرار حتى قال فيهم عمر بن الخطاب للمغيرة بن شعبة: وأي نائب أعظم من مئة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير!

واستمرت الكوفة على هذا التبرم بالولاة والتمرد عليهم وقد اشتد الأمر أيام عثمان بن عفان وكان المغيرة بن شعبة والياً من قبل عمر بن الخطاب فشكا أهل الكوفة إلى عثمان فعزله وولى مكانه سعد بن أبي وقاص ثم عاد فعزل سعد ابن أبي وقاص وولى الوليد بن عقبة ورغم ما كان يظهره الوليد من التقرب للكوفيين والتحبب إليهم والرفق في معاملتهم حتى بقي خمس سنوات وليس على داره بواب فإن الكوفيين شكوا منه إذ حصلت منه خلافات ومخالفات للدين والعادات العربية فاضطروا إلى رفع الشكوى عليه عند عثمان وشهدوا عليه بالفسق، وقد وقعت خلافات بين القبائل بسبب الوليد إذ حكم على جماعة بالقتل كانوا قد ارتكبوا جريمة عظم وقعها على قبيلة من عوقبوا فأظهروا العداء للوليد ولعثمان واتسعت شقة الخلافات وكثرت الفتن والمشاغبات فكانت غير مستقرة على رأي.

* * *

والأمر الذي لا شك فيه ولا خلاف حوله، هو أن الجيش الإسلامي الذي نزل الكوفة نزلها كقبائل، وإن كلّ قبيلة اختطت لها خطة مستقلة وأن الحياة الاجتماعية بدأت في الكوفة حياة قبلية.

وتمضي الحياة في الكوفة قبلية، كما بدأ فيها الإحساس بالقبلية، وفيها

غلبت الروح القبلي، على كلّ شيء ومن هنا غلب على الحياة فيها طابع الجاهلية[1].

وكان من نتيجة هذا أن اخذت العصبيات بكل مظاهر حياة القوم الاجتماعية، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يثيرونها ويتحدثون بها ويتعقبون بأحاديثهم، ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الإسلام وكأنما ذهبت وصايا النبي ﷺ وما دعا إليه من نبذ التفاخر، والتكاثر مثل قوله في خطبة الوداع:

> أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم، وآدم من تراب[2].

وعلى هذا فالكوفة تتصف بطابع الخلافات لضعف الروابط بين أهلها ولاختلاف العناصر والقوميات، وتحكم العصبيات القبلية مما جعل الخلافات بين العرب أنفسهم تزداد على مر الزمن وتتسع باتساع البلد وكثرة السكان.

كما تضاعفت عوامل الفرقة بين الأمويين والكوفيين وتعددت أسباب الخلافات لعوامل كثيرة واتسعت شقتها ومن ذلك:

إبعاد جماعة من زعمائهم وعلى رأسهم مالك الأشتر النخعي، عندما نقدوا سيرة ولاة عثمان، فأمر بإخراجهم إلى الشام[3].

وإن تلك القبائل العربية ذات النخوة والشرف، والقدم في الحروب. قد ساءها ما تتمتع به بنو أُمية، من تملك الإقطاعات الكبيرة، وتوافر المال عند رجالها، دون غيرهم من رجال العرب الذين سكنوا الكوفة. وهي

---

(١) شوقي منيف، التصور والتجديد في الشعر الأموي، ٨٠/ ٨١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البلاذري أنساب الأشراف، ص٤٣.

القاعدة الحربية التي أعدت للفتح والدفاع، وقد تعود ساكنوها على الحرب والفتح أيام عمر بن الخطاب، فلم يتهيأ ذلك أيامَ عثمان فلا غزو ولا غنائم، ولا حرب ولا فتح، كما أن تولي مهام مناصب الدولة لبني أمية خاصة هو من أهم الأسباب التي وسعت شقة الخلاف بين الأمويين والكوفيين أيام الخليفة عثمان.

فقد كان معاوية على الشام، وعبد الله بن أبي سرح على مصر، والوليد ابن عقبة على الكوفة وأعقبه سعد بن العاص، وعلى البصرة عبد الله بن عامر وكان ممثله الخاص والمتولي على الأمر باسمه: مروان.

* * *

وعلى أي حال فقد تركز الخلاف بين الكوفيين وبين الأمويين خاصة ويرجع ذلك لعهد عثمان، فقد كانت الكوفة حسب وضعها السياسي ومنهجها العسكري، تقف للولاة الذين تقعد بهم قابليتهم عن أداء واجباتهم موقف المعارضة بشدة؛ لأن الكوفيين يرون أنفسهم أنهم جند الفتح وأبطال الإسلام، وهم قوة الدولة وعلى أكتافهم قامت الفتوحات إذ بذلوا كلّ إمكانياتهم في تحقيق النصر، فلا يقعد بهم عن المعارضة خوف ولا يمنعهم عن شهر السيف سلطة، فهم على استعداد بأن يشهروا السلاح في وجه الحاكم الذي لا يرتضون سيرته، فقد طعنوا على سعد بن أبي وقاص أيام عمر ابن الخطاب وتبرموا.

وكان الخليفة في المدينة يحسُّ بهذا الخطر ويراقب الأحداث عن كثب وجرت في أيام عمر مقابلات ومشادة بينهم وبين الحكام تداركها عمر بتحقيق رغبات الكوفيين بعزل الوالي من أيام عمار بن ياسر فقد وقع اختيارهم على أبي موسى الأشعري ولكنه لم يسلم من طعنهم.

* * *

وكان للخوارج نشاط في الكوفة، ولهم مركز اجتماعي وهم يتفقون مع الشيعة في بغض الأمويين والسعي للإطاحة بحكمهم لأنهم لم يجدوا في العهد الأموي إلّا التعذيب والجور في الحكم، فقد سكن جماعة من خوارج البصرة أيام زياد ابن أبيه فأنالهم الأذى، وعذبهم أنواع العذاب.

وكان زياد ابن أبيه شديداً في سياسته قاسياً في حكمه، وهو على الخوارج أشد منهم على غيرهم فقد أخذهم بعنف وشدة حتى التجؤوا إلى الاختفاء والتشرد، وذلك أنه جعلهم تحت رقابة الرؤساء منهم فإذا أحسوا منهم بمخالفة قدموهم لينتقم منهم أشد الانتقام.

وخرج الخوارج مرة وكانت معهم امرأة فظفر بها زياد فقتلها ثم عراها فلم تخرج النساء بعد ذلك فهرب أكثرهم إلى الكوفة خوفاً من القتل والتنكيل، والتحقوا بجماعة الخوارج المقيمين بالكوفة بعد وقعة النهروان وكان لهم نشاط محسوس، لأنهم أيام المغيرة بن شعبة لم يواجهوا أمراً يدعو إلى تفريقهم لأن المغيرة لم يرغب في منازلتهم وتتبعهم فلم يعاملهم معاملة زياد ابن أبيه في البصرة حفاظاً على الأمن والاستقرار الداخلي ومع ذلك فهم يشاركون المغيرة بن شعبة في مهمته التي قام بها في الكوفة والتي أقدم عليها بكل جرأة رغم ما كان يخشاه من سوء العاقبة ولكن الخوارج قد أيدوا جانبه، لأنهم يشاركونه في ذلك وهو شتم علي بن أبي طالب على منبر الكوفة إذ هم يشتمون علياً، في نواديهم والمغيرة يشتمه على المنابر ويخاتلهم ويحتال لجلبهم فلم تحصل بينهم وبينه فرقة فقويت شوكتهم.

وحسبي من البيان ما قدمت في هذا العرض لإعطاء صورة عن مجتمع الكوفة التي رسم لنا المؤرخون لها شكلاً يمثل التقلبات، ووسموها بطابع الغدر والنفاق والخيانة، والتذبذب، والتردد، وجعلوا ذلك وسيلة للطعن على الشيعة إذ أهمل المؤرخون كلّ جانب من جوانبها الاجتماعية، ولم

يلتفتوا إلى تلك العوامل المهمة التي أدت بمجتمع الكوفة إلى انحلال الروابط، وكثرة الفتن، ونشر الفوضى في الاتجاهات.

وإني لا أتكلف اختلاف الأدلة ولا أنا بحاجة للتمحلات في التوجيه بل أقول بأمانة وإخلاص: إن الكوفة لم تكن شيعية في غالبيتها على الإطلاق، ولم تكن نزعتها العامة نزعة علوية.

نعم إن ذلك الإطلاق في التسمية جاء متأخراً عن ذلك العصر، يوم اشتد الصراع العقائدي بين المذاهب، واستطاعت السياسة أن تفصل الشيعة عن المجتمع الإسلامي، وسار بعض علماء الحديث والفقهاء في ركاب الدولة، فمنعوا من قبول رواية الشيعي، لأنه مبتدع ـ كما يقولون ـ وقسموا الشيعي إلى معتدل، ومخترق، ورافضي.

فالأول هو الذي يحب الشيخين، ويقدم علياً على عثمان.

والمخترق هو الذي يقدم علياً على الثلاثة، والرافضي هو الذي يبغض الثلاثة ويتبرأ منهم.

ومما لا جدال فيه أن الكوفة بمجموعها ما عدا العثمانية منها تقدم علياً على عثمان بل الغالبية يبغضون عثمان وهم الذي أطلقوا الشرارة الأولى عليه. فإطلاق التشيع على الكوفة إنما هو اصطلاح استعمله المحدثون ولا نطيل الحديث حول هذا الموضوع فلسنا بصدد البحث عنه ونعود إلى مسايرة ركب الحسين عليه السلام والحديث عنه:

نحو العراق

العراق منطلق الثورات، ومهد العروبة، والإسلام، ومضرب المثل في شجاعته وإقدامه، كما عرف بطابعه السياسي، المناوىء لكلّ سلطة غاشمة.

عاش العراق في عهد معاوية وهو يرزح تحت نير الاستبداد والتعسف وأصبح يكابد آلام الفرقة، ومشكلة انحلال الروابط الاجتماعية، عندما طبق الأمويون سياسة (فرّق تسد) لإقامة دعائم سلطانهم في فسحة التباعد. والعراق يأمل التخلص من ذلك العهد الأسود، والخروج منه بين آونة وأخرى.

وكان إلحاح الكوفة على الحسين بالقدوم إليها هو غاية ما يصبو إليه ذلك البلد، وقد لاحت في الأفق علائم النصر إذ بلغهم عزم الحسين على التوجه إلى العراق، بعد ورود كتاب سفيره ورائده مسلم بن عقيل وبعد أن وردت إليه كتبهم، ونزلت بساحته وفودهم، وهم يحملون الرسائل من الرجل والاثنين، والثلاثة، والأربعة، وكلهم بانتظاره كما أرسلت الكوفة ستين شيخاً من شيوخ البلد وأعيان المصر لمرافقة ركب الحسين عند خروجه من مكة. وقد لازمه ذلك الوفد حتى نزل في كربلاء وقتلوا معه.

وباتت الكوفة تتهيأ لاستقباله بفرح وسرور وكلّهم بانتظاره، وعلى استعداد لنصرته، ولم يبلغه عليه السلام خلاف نشأ في الكوفة عاصمة العراق، ضد

استدعائه والاستغاثة به، فالأندية تلهج بذكره، وأكثر القبائل ملتفّة حول رسوله مسلم بن عقيل، يحثّونه على الإسراع لدعوة الحسين فالبلد كله مستجيب له.

هذا وكان هو على موعد مع زعماء الكوفة، منذ وقوع الهدنة بين الحسين عليه السلام وبين معاوية. كما تقدم.

وشاع نبأ عزم الحسين عليه السلام على الخروج إلى العراق بدون تحديد للوقت وتعيين للزمن.

واهتم يزيد لنبأ عزم الحسين على الخروج إلى العراق، فاتخذ شتى الوسائل للحيلولة بينه وبين العراق، فأخذ يراسل جماعة من أعيان الصحابة لعرض وجهة نظرهم على الحسين في خروجه إلى العراق، ومنعه عن ذلك.

فكتب إلى ابن عباس كتاباً جاء فيه: وجاءه ـ أي الحسين ـ رجال من أهل هذه المشرق فمنّوه الخلافة، وعندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع أواشج القرابة، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليهم، فأكففه عن السعي في الفرقة ثم كتب أبياتاً منها:

يا قومنا لا تشبّوا الحرب إذ سكنت
وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

فأجابه ابن عباس بقوله:

إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ولست أدع النصيحة له في كلّ ما يجمع الله به أمر الأمة، وتطفي به النائرة[1].

---

(١) تاريخ ابن عساكر، ج٤، ص٢٢١، التهذيب.

وكتاب ابن عباس هذا لا يعبر إلاّ عن تهدئة لخاطر يزيد حباً لمعالجة الأمر، وتدارك الفادحة، وكان رأي ابن عباس هو صرف الحسين عن اتجاهه للاستجابة لدعوة أهل الكوفة، ولذلك أشار عليه أن يسلك طريق الانعزال وأن يترك إعلان الحرب على يزيد، وإلّا فالشخوص إلى اليمن، ويراسل أهل العراق، فإذا لم يفعلوا ما يأمرهم، فهنا ينطوي على نفسه، إلى أن يأتي أمر الله، وهذا ما يدل عليه كلام ابن عباس للحسين عليه السلام:

> بلغني أنك تريد العراق، وأنهم أهل غدر، وإنما يدعونك للحرب، فلا تعجل وإن أبيت إلّا محاربة هذا الجبار، (يعني يزيد) وكرهت المقام بمكة فاشخص إلى اليمن واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم، وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك، إلى أن يأتي الله بأمره فإن فيها حصوناً وشعاباً[1].

وكأن ابن عباس قد جاء بشيء جديد، وأن القضية غير مدروسة وأن الحسين في أمر مبهم فجاء ليوضح له الطريق، أو يحل المشكل بسكوت الحسين عليه السلام والابتعاد عن يزيد، فأشار عليه بالذهاب إلى اليمن لأن فيها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، وفيها شيعة للإمام علي فهو يريد من الحسين أن يكون بعزلة عن هذا العالم، بعيداً عن المجتمع ومشاكله، إذ يعيش في البلاد النائية ويلتحق بالجبال، ويترك واجب الجهاد، وكأنّ الحسين لا تهمه إلّا نفسه، ولا يخشى إلاّ من عداء يزيد له ولأهل بيته، وهو بمعزل عن المجتمع الإسلامي، الذي اصطدم بعقبة كؤود تنذر بأخطر العواقب.

---

(١) المسعودي مروج الذهب، ٣/ ٦٤.

وكان عبد الله بن عمر يشير إلى الحسين بترك الجهاد، والدخول في بيعة يزيد بن معاوية، وهو يمزج أقواله بنوع من النصيحة والإشفاق. دخل ابن عمر مع ابن عباس على الحسين عليه السلام وهو يحاول أن يثنيه عن عزمه على الخروج فقال له:

يا أبا عبد الله قد عرفت عداوة هذا البيت لكم وظلمهم إياكم، وقد ولى الناس هذا الرجل، يزيد بن معاوية ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء، فيقتلوك ويهلك فيك بشر كثير، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «حسين مقتول فلإن خذلوه ولن ينصروه ليخذلنهم الله إلى يوم القيامة، وأنا أشير عليك أن تدخل في صالح ما دخل فيه الناس وتصبر كما صبرت من قبل[1].

فقال له الحسين منكراً عليه: يا أبا عبد الرحمن أنا أبايع يزيد وأدخل في صلحه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وفي أبيه ما قال؟!!

ويشتد ابن عمر في المعارضة وهو يحاول أن يثني الحسين عن عزمه، وقام يصور الموقف ومخاوفه، وهو يرى أن دخول الحسين في بيعة يزيد تضمن للحسين السلامة.

فأجابه عليه السلام بقوله:

أُفٍ لهذا الكلام أبداً. ثم وجه إليه الأسئلة التالية:

هل أنا عندك على خطأ من أمري هذا، فإن كنت عندك على خطأ فردني فإني أسمع؟!!

فقال ابن عمر: اللهم لا. ولم يكن الله تعالى يجعل ابن

---

(١) الخوارزمي ١/ ١٩١.

بنت رسوله على خطأ ليس مثلك في طهارته، وصفوته من الرسول. . . ولكن أخشى أن يضرب وجهك بالسيف، وترى من هذه الأمة ما لا تحب، وإن لم تحب أن تبايع أقعدفي منزلك.

فقال له الحسين عليه السلام بعد كلام طويل:

اتق الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعن نصرتي. واذكرني في صلاتك، فوالذي بعث جدي محمد صلى الله عليه وآله لو أن أباك عمر بن الخطاب أدرك زماني لنصرني كنصرته جدي وأقام، من دوني كما قام بين يدي جدي.

يابن عمر فإن كان الخروج مما يصعب عليك ويثقل فأنت في أوسع العذر، ولكن لا تترك الدعاء في دبر كلّ صلاة، واجلس عن القوم ولا تعجل بالبيعة لهم، حتى تعلم إلى ما تؤول إليه الأمور[١].

فالحسين يوجه نصحه لابن عمر في عدم المسارعة لنصرة يزيد، وأن لا يزج نفسه في المعترك السياسي، إلى جانبهم بعد أن أحجم عن نصرة الحسين.

كما نصحه عليه السلام بأن يتجه للدعاء والصلاة، ويترك معاونة يزيد حتى ينظر ما يؤول إليه أمر الأمة، ولو أخذ ابن عمر بنصيحة الحسين لكان أعود على المسلمين وخيراً لابن عمر، والحسين أدرى باتجاه ابن عمر ومنحاه السياسي، لذلك نصحه أن يترك مؤازرة يزيد.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٥/٤٣ ـ ٤٤.

وكان محمد ابن الحنفية ممن لا يرجح خروج الحسين إلى العراق، ويرى أن الأرجح بقاؤه في مكة، وهناك يتصل بأنصاره.

وقال له: يا أخي أرأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنعه[1].

فأجابه الحسين عليه السلام بقوله: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن فإنك أمنع الناس ولا يقدر عليك أحد. فقال الحسين عليه السلام: أنظر فيما قلت.

وعرض ابن الزبير على الحسين عليه السلام الإقامة في مكة، ويبايعه الناس فأجابه عليه السلام بقوله: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ بأن تستحل بي حرمة مكة.

قال البلاذري: وإنما أراد ابن الزبير بذلك أن لا يتهمه، وأن يعذر في القول[2].

وقال لابن الزبير مرة أخرى: لأن أقتل خارج مكة بشبر أحب إلي أن أقتل فيها، ولأن أقتل خارجاً منها بشبرين أحب إليّ أن أقتل خارجاً منها بشبر[3].

وعبد الله بن الزبير لم يكن عليه شيء أثقل من مكان الحسين في الحجاز ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الخلافة، وعلماً بأنه لا يتم له أمر إلّا بعد خروج الحسين عليه السلام[4].

---

(١) الإرشاد ص٢٠٣.

(٢) أنساب الأشراف، خط.

(٣) نفس المصدر.

(٤) أبو الفرج: المقاتل.

ويؤيد هذا قول ابن عباس لابن الزبير عندما يئس من منع الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق، ولقيه ابن الزبير على الباب قال ابن عباس: يا ابن الزبير قد أتى ما أحببت قرَّت عينك هذا أبو عبد الله يخرج ويتركك والحجاز ثم قال:

يـــا لـــك مـــن قـــبـــرة بـــمـــعـــمـــر
خـــلا لـــك الجـــو فـــبـــيضي واصـــفـــري
ونـــقـــري مـــا شـــئـــت أن تـــنـــقـــري

يئس ابن عباس من اقناع الحسين عليه السلام والاستجابة لرأيه وكيف يستجيب لأمر فيه انتصار خصمه عليه وضياع الحق الذي من أجله أعلن ثورته؟

فلو أقام الحسين بمكة، فإن الأمويين لا يرون للبيت حرمة، ولم يسلم الحسين من غدرهم وهو في حمى البيت كما تقرر في خطة الاغتيال، ومن أجل ذلك أسرع في اليوم الذي يتوجه فيه الناس لمشاعر الحج.

ولأن لم تنجح الخطة في الاغتيال فلا أقلّ من حصره بمكة، وصده عن الخروج لأية جهة، فإما أن يعلن الحرب في الحرم، وهو المحرم فيه سفك الدم، أو يستسلم لعوامل الضغط والإرهاب، أو يقتل عند خلو البيت من وفوده، فكان إصراره وهو أعلم بهذه العوامل وأن الأمر يمتد إلى عوامل أخرى.

فكان عليه السلام في إسراعه رعاية للمصلحة العامة، ومحافظة على حرمة البيت وتحقيقاً لأهدافه البعيدة المدى. وعندما سئل عليه السلام عن أسباب خروجه يوم التروية قال: لو لم أعجل لأخذت أخذاً.

فهو عليه السلام على بينة من أمره، وأما المخذلون له فإنهم يحسبون للأمر حسابه حسب ما توحيه إليهم دوافعهم النفسية. وكأن هؤلاء الذين أشاروا

عليه أكثر خبرة وتجارب عندما يرى له بعضهم العزلة عن المجتمع، والآخر يرى له أن يكفَّ عن المعارضة، وذلك يدعوه للبيعة وكأنه صنع جميلاً ويسدي معروفاً!!!.

إن الحسين عليه السلام كان عالماً بتلك التحركات ووضع الأمور في ميزان الحكم، وقدر للظروف مجاريها، فلم تكن معارضته يشوبها تردد بين إقدامه إن ساعدته الظروف، أو رجوعه عن ذلك إن خذله أنصاره، ولم يدرْ في خلده أن يترك يزيد على دست الحكم في أمة محمد كيف شاء، وهو في قيد الحياة، فكان عليه السلام مستعداً منذ البداية للمجابهة والمواجهة التي تحفظ معالم الدين وتصون روح الإيمان.

ولقد لمس أثناء إقامته في مكة ما يحمله المسلمون من التحسس بواجب الجهاد ضد يزيد وشعورهم بمسؤولية نشر الدعوة ومناصرة الإسلام فأوضح لهم منهج ثورته وغاية مسيرته.

وبمزيد الأسف أن الذين ألحّوا على الحسين بعدم الخروج لم يقفوا الموقف الذي يحتمه عليهم واجب الإسلام من نصرة الحق، فقد كانوا يقفون أمام الحسين لمنعه من الخروج، ولكنهم راحوا يلحون عليه في مبايعة يزيد والدخول في طاعته.

فهذا أبو سعيد الخدري من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أجهد نفسه بإقناع الحسين في ترك الخروج من مكة إلى الكوفة لا لشيء يعود بالنفع لمصلحة الأمة، أو أنه يقوم بما يحتمه واجب الصحبة ولكنه أراد أن يلزم الحسين بالبيعة ليزيد وأن يدخل فيما دخل فيه الناس. وما ذلك من أبي سعيد إلّا استجابة ليزيد عندما ندبه لهذه المهمة.

والغريب كلّ الغرابة أن يقوم أبو سعيد بإقناع الحسين بعدم الخروج

على يزيد ويعتبر يزيداً إماماً فيدعو الحسين لمبايعته إن صح[1] ما رُوي عن أبي سعيد أنه قال: غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له: اتّقِ الله ولا تخرج على إمامك[2].

وكانت هذه المواقف من الناصحين ـ كما يقولون ـ هي مثار جدل وحوار طويل وأخذ وردّ، ووضع علامات استفهام حول هذا الموضوع.

وهي أول حجر يضعه المغرضون في طريق نهضة الحسين وإخفاء معالم ثورته، فراح البعض من المؤرخين والكتاب ينتزعون من هذه المواقف صورة فيها إسفاف وقصر نظر يقعد بصاحبه دون التعمّق في معرفة نتائج المعركة وكأن الحسين ارتجل نهضته فوقع في الخطأ الذي توهّم أولئك الكتّاب وأخطؤوا في تصوره.

ولعل أشد ما يبعث على الدهشة والاستغراب، هو ما يجابهنا به بعض الكتّاب من أقوال يرددونها مرة بعد أخرى، وهي بعيدة عن الواقع، بل هي تحامل مكشوف، ونزعة أموية حاقدة.

---

(١) غريب كلّ الغرابة أن يصدر هذا القول من أبي سعيد الخدري!! وهو المعروف باستقامته وقد عرف بحبه للإمام علي وموالاته له. يقول الأستاذ كرد علي في خطط الشام ج٦، ص٢٥١: عرف جماعة من كبار الصحابة ﷺ بموالاة علي في عصر رسول الله، مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله. على النصح للمسلمين والائتمام لعلي بن أبي طالب، والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس، فعملوا بأربع، وتركوا واحدة.
ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان والحج، قيل له: فما الواحدة التي تركوها.
قال: ولاية علي بن أبي طالب.
قيل له: وإنها لمفروضة. قال: نعم هي مفروضة معهن.
ونحن نستغرب من أبي سعيد رضي الله عنه مناصرته ليزيد اللهم إلّا من باب التقية. المؤلف.

(٢) تاريخ الإسلام ج٢، ص٣٤٢

إنهم يرددون قولهم: إن الحسين لم يأخذ بقول الناصحين له عند خروجه إلى العراق، وأنه لم يأخذ بقول شيخ الصحابة عبد الله بن عمر.

وقد أشرنا إلى أقوال الناصحين ـ كما يقولون ـ وإنها لا تتعدى حدود إلزام الحسين بعدم المعارضة لحكم يزيد، أو يدخل فيما دخل فيه الناس، يعني المبايعة ليزيد.

وقد صرح بعضهم[1] بما هو أفظع وأبعد من حدود التعقل وموازين الآداب فنسب الخطأ إلى الحسين بخروجه إلى العراق وأنه شق عصا المسلمين.

ولا نتكلف هنا بالرد على هذا الشيخ الذي عاش في أوهام الطائفية ويخضع لسلطان التعصب الأعمى، فالأمر أوضح من أن نجهد أنفسنا بالبيان:

فالشمس لا تنفكّ ناصعة وإن سمجت محاسنها بعين الأرمد

وهلم معي لنقف على قول أبي بكر محمد بن العربي لنعرف مقدار ما يتمتع به هذا الشيخ من عقلية وما يحمله من معرفة بالأمور الدينية وقضايا الإسلام.

يقول ابن العربي في قواصمه:

وما خرج إليه (أي الحسين عليه السلام) إلّا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوه من جده المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر من الدخول في الفتن، وأ قواله في ذلك كثيرة فمنها:

أنه ستكون هناك هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر

---

(١) هو الشيخ محمد الخضري المصري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية.

هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان. فما خرج الناس إلّا بهذا وأمثاله[1].

وسبحان الله فليس كلّ من تعاطى العلم والفقه سلك طريق الصواب واهتدىٰ إلى الحق فابن العربي نموذج لأولئك الذين استحكمت بهم الأهواء واستولت عليهم العصبية ولا نريد أن نتصدى لقوله بالرد ونميزه بذلك فما أكثر من شاركه هذا الإيمان، ولسنا هنا في موضع استقصاء ذلك ولكن علينا التنويه بآثار البيئة التي تحكمت في صياغة أفكار ابن العربي ومبلغ الاستسلام لآراء الآخرين ومنهج التقليد.

لقد مني المجتمع الإسلامي بأشخاص حصلوا أدوات العلم ولكنهم أخطأوا فهم أصوله، واحتلوا مكانة العلماء ولكنهم أساؤوا فهم الإسلام ولقد كان ابن عربي نتاج بيئة أموية تولى فيها المالكية الشؤون الدينية وإمامهم مالك بن أنس[2]، يميل إلى الأمويين فبرر لهم مثل هذه الأقوال بحيث لا يجد أتباعه ومقلدوه في مثل هذه الأقوال خروجاً على تعاليم الإسلام أو روح القرآن لأن ولاة الأمر من تسلم الحكم بغض النظر عن حقيقة أمره وواقع حاله وإمامته ماضية وإن كان فاجراً أو فاسقاً وحملهم فهمهم للنصوص على أن مثل هؤلاء الفسقة والفجار هم المعنيين بولاة الأمر الذين تجب طاعتهم. ونسي هؤلاء ومنهم ابن العربي أن الهنات هي تسلط الطلقاء على رقاب المؤمنين وأن الضرب بالسيف هو الثورة بأركان الظلم الذين يدعون إلى الباطل ونعوذ بالله من خطل الرأي وشذوذ الفكر.

لقد بلغ عظم وقع جريمة الأمويين أن يقول إبراهيم النخعي: «لو كنت فيمن قاتل الحسين ثم أُدخلت الجنة لاستحييت أن أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ.

---

(١) القواصم والعواصم، لابن العربي ٢٣٢.

(٢) انظر كتابنا: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد الأول، الجزء ٢.

أخرج أبو يعلى عن أبي عبيدة مرفوعاً: «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد».

وأخرج الروياني مرفوعاً: «أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد».

وقد قال الإمام أحمد بكفر يزيد يقول الصبان... أنه ـ أحمد ـ لم يقل ذلك إلّا لِمَا ثبت عنده من أمورٍ صريحة وقعت منه توجب ذلك ووافقه على ذلك جماعة كابن الجوزي وغيره وأما فسقه فقد أجمعوا عليه[1].

وسئل ابن الجوزي: كيف يطلق على يزيد أنه قاتل الحسين وهو في الشام حين قتل الحسين بكربلاء فأنشد:

سهم أصاب وراميه بذي سلم   مَن بالعراق لقد أبعدت مرماك

وندع الرد على الجميع لمحل آخر إن شاء الله، ولنتابع مسيرتنا مع ركب الحسين عليه السلام فالمسافة بعيدة ونحن في بداية الطريق!

المعارضة بالقوة

ولما شاع نبأ توجه الحسين إلى العراق في تلك الأيام الحرجة، أصبحت السلطة أمام أهم مشكلة تقف أمام نفوذها وذهبت المحاولة التي اتخذوها في مكة إذ فشلت المؤامرة التي دبروها لقتله غيلة، فلم يكن أمامهم إلّا حصر الحسين أو صده عن الخروج بالتهديد والتوعيد إذ لم يمكنهم المقابلة العلنية، وإعلان الحرب عليه.

وبادر عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة وأمير الحج وقائد كتيبة الاغتيال، فأرسل للحسين مع يحيى بن سعيد بن العاص جيشاً، وحاول

---

(١) إسعاف الراغبين ص١٩٢.

جاهداً أن يصرف الحسين على التوجه إلى العراق، وطلب منه أن يقيم بمكة آمناً سر به وليس عليه شيء.

فكان ردُّ الحسين ليحيى بن سعيد ولجنده المحيطين به رداً قوياً عندما حاول ارجاع الحسين وهدده بالمنع من التوجه إلى العراق، ولكن الحسين وأصحابه وقفوا موقف البطولة، وبلغ الأمر إلى التدافع والضرب بالسياط دون أن يشهر السلاح[1]

ورجع يحيى بن سعيد إلى أخيه خائباً وذهبت الجهود التي بذلها لحصر الحسين في مكة وصده عن السفر إلى العراق، وبهذا فشلت خطة الاغتيال وسار الحسين متجهاً إلى العراق، فإن الكوفة بانتظاره لتحتضنه اعتزازاً به ودفاعاً عنه وأن تقيم باسمه دولة إسلامية تسير على العدل وتحكم بالكتاب والسنّة فهو ابن رسول الله وأبوه علي وقد عاش معه أهل الكوفة مدة بأمن واستقرار.

* * *

ترك الحسين مكة المكرمة وودع بيت الله وكعبة المسلمين وقبلتهم، وانطلق ركبه المكون من صفوة أهل بيت النبوة وحَمَلة الرسالة، وقد رافقته أبطال العراق الذين قدموا إليه ليبلغوه دعوة الثوار واستنهاضهم له وهم يحملون إليه رسائل الدعوة، ومواثيق البيعة وكان عدد هؤلاء ستين شيخاً من أعيان الكوفة وزعمائها.

كما الْتحق به عدد كبير من حجاج بيت الله الحرام فكان رحيله عليه السلام من مهبط الرسالة وخروجه من الكعبة الشريفة حدثاً عظيماً له أهميته في تاريخ الإسلام. كما أنه في الوقت نفسه قد وضع الأمويين أمام مشكلة تهددهم بعد أن فشلوا في حصاره.

وقد كان تحرك الحسين لكي لا يستحلَّ حرم الله وتوجهه نحو العراق

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف خط ص٢٤٠.

قد حرك النفوس ضد الأمويين وقيام الحسين بالرحيل رافضاً الخضوع والبيعة يعني إيذاناً بعمل يقف بوجه الانحراف عن الدين، والخروج على قيمه السامية وبدء حركة ليست من حركات التجارب التي يأمل القائمون بها الوصول إلى نتائج تمليها عوامل متداخلة قد تنطوي على مصالح خاصة ويكتنفها الارتباك.

إنما هي حركة إصلاح دينية، وابتداء مسيرة إسلامية تتجه نحو هدف معين، وغاية يتحقق فيها للمسلمين أعظم عوامل الظفر.

كانت انطلاقة الحركة من مكة تحمل للأمة كلّ خير، وتجسّد لهم كلّ حقوقهم في الحياة، وسعادتهم بإقامة مجتمع العدل والصلاح.

لقد ترك الحسين مكة تموج لحادث خروجه بهذه السرعة بعد أن أعلن السبب الذي من أجله سارع في الخروج، ولا يستغرب من عهد يزيد أن ترتكب جريمة قتل الحسين في الكعبة، ولو لم يخرج لوقع الحادث الذي صمم عليه الأمويون وأرسلوا من ينفذ لهم خطتهم وقد حدث بعد استشهاده ما حدث من الأمور الجسام والجرائم العظام التي قام بها الأمويون في حرم الله ودار الهجرة انتقاماً.

* * *

وبعد أن انفصل الركب عن مكة، ولقيه الحجاج المتوجهون إليها لأداء فريضة الحج كان ذلك مثار استغراب للوضع، وطرح الأسئلة عن أسباب هذه المبادرة، وتساءل الناس عن ذلك فكانت الحقيقة هي مضايقة الأمويين له، وعزمهم على اغتياله، ولو في المسجد الحرام، وحمل كلّ ركب إلى بلده ذلك النبأ المحزن، وبقي حديث الناس، في جميع الأقطار الإسلامية، هو حديث الحسين وغضبه على الحكم القائم، فإنه نهض للإصلاح، ونصرة الحق، وناهيك بما تحمله هذه الأنباء من أثر سيء على الوضع السياسي، وفتح باب المؤاخذة على الدولة الأموية.

فكان ركب الحسين يجوب الفيافي وقلوب المؤمنين تشايعه، وآذانهم تلتقط أخباره، وعيونهم شاخصة لطلائع النصر، وعلامات الظفر، وباتت الأيام حبلى ولا يعلم أحد ما تلد في الغد.

وبمزيد الأسف حدث ما لم يكن بالحسبان فانطوت صحيفة ذلك الأمل وانقلب الوضع وتغيرت الحالة وإذا بالكوفة تنتظر الحسين لتسقي سيوفها من دمه، وتطعم نبالها من لحمه، تريد أن تحتضن جسد الحسين لتوزعه السيوف، وتطعنه الرماح وتسحقه الخيول بحوافرها، وتطحن أضلاعه.

الكوفة تنتظر الحسين لتثب عليه وثبة الوحوش وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر.

الكوفة تنتظر الحسين لتسبي عياله بدل أن تحميهم، وتروع أطفاله بدل أن تؤويهم.

الكوفة تنتظر الحسين عليه السلام الذي قدمت له الدعوة واستصرخت به ولكنها لا تقيم له ما يجب من الضيافة وبدلاً من ذلك فقد ضربت الحصار عليه، ومنع من الماء والغذاء، وقابلوه بوجه لا يعرف الخجل، جرى في علم الله ذلك وقضى الأمر فلا رادَّ لقضاء الله فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

كانت الكوفة تنتظر الحسين وتلهج بذكره وتستعد لاستقبال ركبه الذي انفصل من مكة، فكان الواجب كما يقتضيه الحال أن تستقبل هذا الركب المقبل بجيش يعبر عن قوتها واستعدادها ويعطي صورة الولاء الصادق وتصديقاً لما سبق من الدعوة، والاستعداد للنصرة، وبذل النفوس في القضاء على الحكم الأموي وإقامة حكم عادل، كان هذا هو الأمر المتوقع والشيء الذي يتصور من نتائج الهياج الشامل ضد الحكم القائم.

* * *

وسار الحسين نحو العراق لا يلوي على شيء، وكان في مسيرته ترافقه

آمال غالبية الناس الذين ساءهم وضع المجتمع، فهم يركزون على دخول الحسين الكوفة أهدافاً بالغة الأهمية؛ من حيث إصلاح الوضع الاجتماعي والسياسي.

وقد رافق ركبه كثير من الحجاج وغيرهم لينضموا إلى جانبه عندما يصل الكوفة والأوضاع كما هي من دون تبدل وتحول.

ولما بلغ وادي العقيق، فنزل ذات عرق لقيه رجل من بني أسد يسمى بشر بن غالب وارداً من العراق، فسأله عن أهلها فقال: القلوب معك والسيوف مع بني أمية. فقال عليه السلام: صدق أخو بني أسد ويحكم الله ما يريد.

وهنا تظهر بعض إمارات بعض التبدل في الموقف، ولكن لنفوذ شخصية الحسين وهيمنته على الأمور لم يتأثر بتلك المتغيرات التي طرأت فالقلوب معه، وهو على ثقة من أن تلك الظاهرة التي جعلت في المجتمع من يخالف ضميره ووجدانه، لا بدّ أن تزول بسرعة، أمام شخصيته وأهدافه السامية في التوجيه، والإصلاح، والرعاية، وما دامت الجهة التي استدعته متماسكة، وهي تحت رعاية سفيره وابن عمه مسلم بن عقيل.

ومن بطن الحاجر وجه إليهم كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى إخوانه من المسلمين والمؤمنين؛ سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو (أما بعد) فإن كتاب مسلم بن عقيل قد جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة، يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي،

فانكمشوا في أمركم، وجدوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأرسل الكتاب مع قيس بن مسهر الصيداوي.

* * *

ونلمس هنا أن الأمر أصبح يدعو إلى مزيد من الاستعداد والتهيوء لمواجهة صراع يخشى حدوثه فيستنزف القوة ويستهلكها ذاتياً فنراه عليه السلام يأمر أصحابه بالثبات.

ويذكرهم بوجوب الاحتراس، والحذر من أن تنفصم وحدتهم، حتى يقدم إليهم، وهناك تنتهي كلّ خلافات ذوي النفسيات اللئيمة، والهزيلة في بنائها الديني والأخلاقي، وهو عليه السلام باستطاعته أن يثير الحماس الديني، ويلتف المجتمع حوله.

وسار قيس وهو يحمل كتاب الحسين عليه السلام، فلما وافى القادسية، وجد أنّه قد أقيمت على الحدود شرطة ابن زياد تحت قيادة الحصين بن تميم، فأراد أن يفتشه، فأخرج الكتاب ومزقه، وحمل إلى ابن زياد، فلما مثل بين يديه قال له:

من أنت؟

قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب.

قال: فلماذا مزقت الكتاب؟

قال لئلا تعلم ما فيه.

قال: وممن الكتاب وإلى من؟

قال: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم.

فغضب ابن زياد وقال: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم، أو تصعد المنبر فتسب الحسين بن علي، وأباه وأخاه، وإلّا قطعتك إرباً إرباً.

فقال قيس: أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وتظاهر بالطاعة، لما يطلبه من السب.

ثم صعد المنبر بقلب أقوى من الصخر، وألقى على الجموع المحتشدة في القصر نظرة وابتسامة، والكل يرمقه ببصره، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال:

أيها الناس إن الحسين بن علي من خير خلق الله، وابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد خلفته بالحاجر فأجيبوه وانصروه، وإن الكذاب ابن الكذاب هو عبيد الله بن زياد فالْعنوه، والْعنوا أباه.

* * *

إنه مشهد بطولي يفوق حدَّ الإطراء والتمجيد، نابع من وحي الإيمان ورسوخ العقيدة، ومنطق الحق.

لقد كانت كلماته صواعق تنهال على رأس ابن زياد فألبسه من الخزي والإذلال من فوق كرسي الأمارة وأمام جنده وأعوانه.

لقد قام ابن زياد كالكلب المسعور، وراح يلعن جلاوزته لأنهم أمهلوه حياً حتى أكمل عباراته وأدى رسالته.

ثم أمرهم أن يلقوا به من أعلى سور القصر، فقذفوا به حيث اندقت عظامه وغربت حياته[1].

---

(١) آل الرسول في كربلاء، ص١٢٠.

نبأ المأساة

ولقي الحسين بعض الأعراب قادمين من جهة الكوفة فسألهم عن أمر الناس؟ فقالوا لا ندري غير أنا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج.

ولما نزل الثعلبية بلغه نبأ الفاجعة بقتل مسلم وهاني بن عروة فتلقى ذلك بصبر وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

والتفت إلى آل عقيل قائلاً:

ما ترون فقد قتل مسلم؟ فقالوا: والله لا نرجع حتى نذوق ما ذاق مسلم. فقال: لا خير في الحياة بعد هؤلاء.

وبعد قليل من ورود نبأ مسلم جاء نبأ قتل عبد الله بن بقطر، وهو رسوله أيضاً إلى أهل الكوفة، وكان موقفه موقف قيس في البطولة والثبات ونهايته كنهايته فقد أمر بإلقائه من القصر فكسرت عظامه؛ وبقي به رمق من الحياة فأتاه عبد الملك قاضي الكوفة، فذبحه بمدية فعيب عليه فقال: أردت أن أريحه[1].

---

(١) أعيان الشيعة ٤ قسم الأول ٢٢٢.

وهنا يعلن الحسين للملأ بمجرى الحوادث، وتقلب الأوضاع فيلقي بيانه التالي:

أما بعد فإنه قد أتاني خبر فظيع: قتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة وعبد الله بن بقطر، وقد خذلنا شيعتنا؛ فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج، ليس عليه مني ذمام.

وهنا يقع الاختبار والتمحيص، فتفرق من ساقته المطامع الدنيوية، ويبقى المؤمنون ذوو البصائر، وأصحاب العقيدة يحيطون به ويلتفون حوله.

لقد أعلن عليه السلام المضي في أداء رسالته، وصمم على مواصلة مسيرته ولم تثنه تلك الأنباء المحزنة، فهو أقوى عزماً، وأربط جأشاً عند الكوارث فلن تنهار عزيمته ولم يقعد به انهيار الجبهة التي كانت تسانده، ولم يستولِ عليه اليأس من مناصرة الحق.

طلائع الخطر

وأشرف الركب على شراف، وقبل أن يحطَّ الرحل ويضع الثقل، بانت طلائع الخطر، وظهرت كتائب الجيش الذي عهد إليه مهمة عرقلة سير هذا الركب، والوقوف في طريقه بكل قوة.

لقد التقى بجيش ابن زياد، وهو جيش يجوب الفيافي والقفار لا يهدأ ولا يستقر، يطلب العثور على ركب الحسين لتنتهي بملاقاته مهمة الدولة بإلزام الحسين عليه السلام بالتسليم، والإتيان به إلى الكوفة وصدِّه عن الاتجاه إلى أي جهة.

هذه مهمة الحر، وهذه طلبة ابن زياد، والجيش مكدود منذ مدة لهذا الغرض، وفي هذا اليوم طال سيره، ونفذ زاده، وفقد ماءه، وقد تحكم العطش فيهم، وكادوا أن يقضوا عطشاً.

وعندما الْتقوا بركب الحسين، وهم ذهول من العطش كانوا على أتم استعداد للحرب، ولعل الفرح غمرهم، إذ وجدوا بغيتهم، ولكنهم شغلوا بأنفسهم من شدة العطش الذي كاد أن يقضي على غالبيتهم، وكان وقت الظهيرة فلما نظر الحسين عليه السلام لحالتهم قال لفتيانه: «اسقوا القوم، وارووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً».

وعندما تحقق الحسين عليه السلام من تصميم الحر وجيشه على صده، أراد أن يختار الموقع الملائم له ولأصحابه، ومن المعروف أن الموقع الملائم هو نصف المعركة، فتوجه برحله إلى هضاب ذي حَسم، ليحط الرحل وراءه ويلقى القوم من وجه واحد، وبهذا يكون إحكام خطة الدفاع ولهذا الإحكام أثره في الموقف الحربي.

وأقبل الحر بمن معه من جيشه. فكانت مقابلة ومشادة بعد أداء صلاة الظهر، وقد ائتمّ الحر وأصحابه بالحسين. وقام الحسين عليه السلام فكشف الحال لذاك الجمع وأنه لم يقدم إليهم محارباً أو طامعاً، وإنما قدمت إليه الكتب والرُّسل وعرض الحال عليهم، بخطابه لهم:

أيها الناس إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق فإن كنتم على ذلك فد جئتكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم وإن لم تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم.

فسكتوا عنه ولم يتكلموا بكلمة واحدة[١]

---

(١) الإرشاد ص٢٠٧.

وارتحل الحسين عليه السلام فمانعه الحر فلم يمتنع. وقال له الحر: إني لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد.

وكانت هذه الكلمة قاسية وتمرُّ على مسمع الحسين بن علي فلا يتحملها فقال عليه السلام: الموت أدنى إليك من ذلك.

ثم أمر الحسين عليه السلام أصحابه بالركوب وكان الوضع ينذر بالخطر وشعر الكل بدنو الحرب وكان الطرفان على أتم استعداد لتلقي الأوامر في المصادمة.

وهنا لأول مرة تعرض أمام العائلة تلك المناظر المروعة فقد بدت من جيش الحر تحركات، وظهرت على الوجوه علامات الاستعداد للمقاومة، وتقدم أنصار الحسين وأيديهم على قوائم سيوفهم.

وعاد الحر إلى المطالبة بالحجر على الحسين، ومنعه عن الحركة فقال له الحسين عليه السلام: ثكلتك أمك ما تريد منا؟!!

فقال الحر: أما لو غيرك من العرب يقولها لي، وهو على مثل هذه الحالة ما تركت ذكر أُمه، بالثكل كائناً من كان. والله مالي إلى ذكر أُمك من سبيل إلاّ بأحسن ما نقدر عليه.

وبعد أن اشتدت المشادة، قال الحر: خذ طريقاً نصفاً بيننا لا يدخلك الكوفة، ولا يردك إلى المدينة. حتى أكتب إلى ابن زياد، فلعل الله أن يرزقني العافية ولا ينتابني بشيء من أمرك.

ثم قال: إني أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لأن قاتلت لتقتلن.

فقال عليه السلام: أبالموت تخوفني؟!! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وسأقول ما قال أخو الأوس لابن عمه[1].

---

(١) مقتل الحسين، للمقرم، ص١٩٧.

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه وخالف وفارق مجرما
فإن عشت لم أندم وإنْ مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

وتنحى الحر عن الحسين عليه السلام حتى وصل إلى عذيب الهجانات، وكانت مسايرته للركب انتظاراً لأمر ابن زياد، فقد أرسل إليه يخبره بالتقائه مع الحسين ومسايرته له.

وبينما كان الحر يساير الحسين وهو غارق في تفكيره يدير وجوه الحيل، ويتحسس الآراء في حل هذه المشكلة وكيف يكون المخرج من هذا المأزق، أيصدر الأمر من ابن زياد بمضايقة الحسين، وإلزامه بدخول الكوفة، والخضوع لأمر ابن زياد؟ وهل من الممكن أن يترك ابن زياد، أمر الحسين ويخلي سربه فيتّجه إلى أي مكان شاء؟ أم يأمره بقتاله؟

هذه الآراء كانت تراوده والأفكار تخامره، وبينما هو في هذا وذاك إذ أقبل رجل من جهة الكوفة. فسلّم على الحر ولم يسلّم على الحسين.

هذا هو رسول ابن زياد إلى الحر، إنه يحمل أمراً صادراً بإلزام الحر على مضايقة الحسين أينما وجده وأن لا يتجه إلى أي جهة وأن يفرض عليه الإقامة الجبرية في المكان الذي يصل الكتاب فيه فتقدم الحر بكتاب ابن زياد للحسين عليه السلام بهدوء وأدب.

ولما قرأ الحسين كتاب ابن زياد قال للحر: تقدم بنا قليلاً إلى هذه القرية التي هي منا غلوة، وهي الغاضرية. أو هذه الأخرى، وهي التي تسمى السقبة فأنزل في أحدهما.

ولم يدع الحر مجالاً لاختيار الموقع الملائم الذي يساعد على إحكام

خط الدفاع وكان بإمكان الحسين المضي بالمسير إلى الموقع الملائم، وقد أشار عليه بعض أصحابه بمناجزة الحر لأنه في عدد قليل، ويمكن القضاء عليهم، ولكن الحسين ليس من شأنه أن يقاتل من لا يقاتله، وقد سلك الحر طريق السلم والتزم الأدب مع الحسين ولم يقم بتهديد أو إثارة حرب، والحسين بنظره الصائب وعلمه بما وراء الحوادث، لا يرى في المسارعة فائدة، ولا في المبادرة للحرب أو نشوبها الغاية المطلوبة

مع ركب الحسين في كربلاء:

وفي عشية اليوم الثاني من المحرم نزل أبو عبد الله الحسين عليه السلام أرض كربلاء في محل بعيد عن الماء، فضرب هناك خيامه وابتعد الحرّ بمعسكره، بعد أن نفذ أمر ابن زياد، وهو ينتظر ما سيكون فيما بعد، وكتب إلى ابن زياد بخاتمة المطاف، وأداء ما كلف به، من مهمة حصر الحسين عليه السلام وصده، وما كاد الخبر يصل إلى الكوفة، حتى ساد فيها قلق شامل، وعصفت بها هزات فكرية عنيفة، وأصبح الكل تجاه أمر واقع، وكانت العناصر الموالية للحسين تعوزها القيادة، فإن زعماء الحركة قد سيقوا إلى السجن وساحات الإعدام، وأصبح هؤلاء الأفراد أمام أمر لا يمكن حله، إلّا بقيادة ثورية.

إذ القيادة ضرورة أساسية في الجماعة، وهي من حيث كونها قوة تنفيذية تعتبر من أهم العوامل التي تؤثر في الروح المعنوية، التي تؤدي بها الجماعة نشاطها.

والقائد مثل لجنوده، وأن جزءاً كبيراً من شجاعتهم، وتماسكهم كوحدة محاربة مستمدة من شخصيته، وهيمنتها على الأمور. ونحن نقرأ في التاريخ عن معارك هزمت فيها جيوش كبيرة، وانسحبت وهي على وشك الانتصار لمجرد موت القائد الذي يقودها في المعركة، إذ أن شخصية القائد ومن يعمل تحت أمرته من الضباط عامل مهم، لإثارة الروح المعنوية سواء أكانت

عالية أو منخفضة، إذ أن جهاز القيادة، إنما هو رمز السلطة، التي تدفع بالجنود إلى القتال[١].

وقد استعان ابن زياد على تحقيق مهمته بتعيين القواد من الفئات المناوئة للدعوة، إذ وجد فيهم نشاطاً ضد الحسين، ولم تشهد الكوفة على كثرة ما حل بها من أحداث ما شهدته في تلك الفترة القاسية إلى جانب ما ظهر على مسرح الأحداث من عصبيات قبلية وأحقاد سالفة.

التعبئة

أصدر ابن زياد أمره بالنفير العام والتجنيد الشامل، لإنجاز التعبئة الكاملة، فانتشر الجند في البلد يجوسون خلال الديار يلقون القبض على من تأخر عن الالتحاق بساحات العرض كما أوعد بتطبيق أشدّ العقوبة بمن يتأخر وقال:

> لأن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف، ولا شاقّ وأنا ابن زياد أشبهته من بين من وطىء الحصى[٢].

أنيطت هذه المرحلة الراهنة من مراحل تاريخ الدولة الأموية، بعبيد الله ابن زياد، وأصبح هو المسؤول عن تقرير مصيرها وكتب إليه يزيد بن معاوية:

> بلغني أن حسيناً قد فصل من مكة متوجهاً إلى العراق فاترك العيون عليه وضع الأرصاد على الطريق، واحبس على الظنة، واقتل على التهمة[٣].

---

(١) علم النفس العسكري ١/ ٣٦ الدكتور عباس الحنفي.
(٢) الحسين بن علي ص٦١، لعمر ابو نصر.
(٣) الكامل ج٤، ص١٩ والطبري ج٦، ص٢١٥.

وكتب إليه عمرو بن سعيد الأشدق كتاباً يقول فيه:

أما بعد يا ابن زياد فقد توجه الحسين إليك وفي مثلها تعتق
أو تكون عبداً تسترق كما تسترق العبيد[1].

ثم كتب يزيد بن معاوية إليه كتاباً آخر يحثه على أخذ الحيطة وأخذ التدابير ويجعله أمام أمر واقع إذ يقول في كتابه:

إنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمال وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعود العبيد.

فقام ابن زياد بكل ما في وسعه من اتخاذ التدابير، وجعل كتاب يزيد كدستور يسير عليه في هذه المرحلة، لأنه يفوّض إليه كلّ شيء، ويقرر النقاط التالية.

١ ـ اتخاذ الجواسيس بكثرة.

٢ ـ وضع المعسكرات المؤدية إلى الكوفة.

٣ ـ شدة الحراسة والحذر والأخذ على الظنة والتهمة.

٤ ـ القتل بدون مهلة.

٥ ـ مواصلة الأخبار، والاتصال بيزيد بكلّ ما يحدث. وهذا الكتاب بمثابة مرسوم يجب تنفيذه. فقام بكلّ قوة ونشاط ووضع الخطط التي تضمن له النجاح، فأغلق الطريق المؤدية للكوفة ووضع عليها حصاراً فلا داخل ولا خارج، وعهد بحراسة الحدود إلى الحصين بن تميم رئيس الشرطة، فنزل القادسية وأعطى الحر بن يزيد الرياحي قيادة قوة سيارة قوامها ألف

---

(١) تهذيب ابن عساكر، ج٤، ص٣٣٢.

فارس وهم يتجولون في البادية، يراقبون الحدود، وهو مكلف بإلقاء القبض على الحسين أينما التقى به. وأصدر ابن زياد أمره للناس فعسكروا في النخيلة وأن لا يتخلف أحد منهم.

وصعد المنبر فذكر معاوية وإحسانه وإدراره الأعطيات وعنايته بالثغور، وذكر اجتماع الألفة على يده، وقال: إن يزيد ابنه السالك لمناهجه، وقد زادكم مائة مائة في أعطياتكم، فلا يبقى رجل من العرفاء والتجار، والسكان إلّا خرج فعسكر معي، وأيما رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن العسكر برأت منه الذمة.

ثم خرج فعسكر بالنخيلة وبعث إلى الحصين بن تميم وكان بالقادسية في أربعة آلاف فقدم النخيلة بجميع من معه، ثم دعا كثير بن شهاب الحارثي، ومحمد بن الأشعث بن قيس، والقعقاع، وسويد بن عبد الرحمن، وأسماء بن خارجة الفزاري، وقال: طوفوا في الناس. فمروهم بالطاعة، والاستقامة، وخوفوهم عواقب الأمور، والفتنة والمعصية، وحثوهم على العسكرة.

فخرجوا وداروا في الكوفة ثم لحقوا به غير كثير بن شهاب، فإنه كان مبالغاً يدور في الكوفة يأمر الناس في الجماعة، ويحذّرهم الفتنة والفرقة ويخذل عن الحسين.

قطعات الجيش:

اختلفت أقوال المؤرخين في إحصاء الجيش الذي خرج لحرب الحسين عليه السلام وقد تناقضت أقوالهم، واستقر أكثرهم على إحصاء أربعة آلاف جندي فقط وهم الذين خرجوا مع عمر بن سعد، وكانوا قد عسكروا للسفر إلى حملة لبلاد فارس تحت إمرة عمر بن سعد، وقبل أن يتحركوا ورد نبأ

توجه الحسين ونزوله في كربلاء، وكان هؤلاء من بقية الفرس أيام الفتح وهم المعروفون بحمر الديلم.

ومن الغريب إهمال بقية ذلك الجيش الذي تدفق إلى أرض كربلاء وماجت به صحراؤها، وملأ شعابها وسهولها وجاء في وصفهم: كأن راياتهم أجنحة الطير، وركبوا الحمير والبقر لقلة ما يستعملون من وسائط.

والواقع أن عدد الجيش الذي باشر الحرب ثلاثون ألفاً وقيل أكثر وبدون شك أن التعبئة العامة فوق هذه الأرقام، إذ امتلأت ساحات النخيلة عند العرض إلى كربلاء، وهي تمر أمام ابن زياد، يوم خرج هو وجميع أصحابه إلى النخيلة.

جاء في الوثائق التاريخية لثورة الحسين إحصاء الجيش حسب ما ورد في المصادر كما يلي:

القائد	العدد
الحر بن يزيد الرياحي	١٠٠٠
عمر بن سعد	٤٠٠٠
شمر بن ذي الجوشن	٤٠٠٠
يزيد بن ركاب الكلبي	٢٠٠٠
الحصين بن تميم	٤٠٠٠
مغاير بن رهينة المازني	٣٠٠٠
نصر بن حرشة	٢٠٠٠
كعب بن طلحة	٣٠٠٠
شبث بن ربعي	١٠٠٠
حجار بن أبجر	١٠٠٠
المجموع: خمسة وعشرون ألف مقاتل	٢٥٠٠٠

ولم يدخل في الإحصاء هنا عدد الرماة الذين كانوا مع الحصين، وكانوا خمسمائة، وكذلك لم يدخل بينهم عمر بن الحجاج الزبيدي، وهو قائد حملة قوامها أربعة آلاف، ولم يدخل عزرة بن قيس الذي كان يترأس خمسمائة فارس لحراسة الطريق، ثم الْتحق بعمر بن سعد، فيكون هنا عدد المقاتلين ثلاثين ألفاً، ما عدا كتائب الرماة بالحجارة وهم الجوالة، وسلاحهم المقاليع.

وهنا لا بدّ من نظرة فاحصة، ووقفة بعيدة عن كلّ تمحل في محاولة هي خلاف الواقع فلا نتجاوزه أو نتعدى حدود المعقول، ولا نفرض آراءنا بل الحقيقة هي التي تفرض نفسها.

* * *

إن ذلك الجيش الجرار قد ملأ البادية، وقد حدّث رواة التاريخ أن وسائل النقل على كثرتها في الكوفة قد وقفت أرقامها عن سد الحاجة لحمل الجيش وأثقاله حتى ركبوا البقر والحمير، ونفر الباقون مشاةً، وكان الاستعداد لسد حاجات هذا الجيش من سلاح ودروع مسبقاً قبل حركته إلى كربلاء، فقد بقي الحدادون في الكوفة يعملون ليل نهار، في صقل السيوف، وبري النبال، وقدرت مدة العمل عشرة أيام متواصلة، لم تخمد نار الحدادين فيها لحظة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن الكوفة منطقة عسكرية وهي أكبر قاعدة للدولة الإسلامية، وكانت تمد الجيوش المحاربة، ولا يقل عدد الجيش المعد للحرب عن ستين ألفاً في جميع الأوقات.

وكان تقسيمها العسكري حسب وضعها السياسي والاجتماعي مقسمة إلى سبعة (كادرات) وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم، والأعطيات بعد العودة من قبل رؤساء الأسباع. وفي أيام زياد ابن أبيه في سنة ٥٠ من الهجرة جعل الأقسام

العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث أصبحت الأسباع قريبة وعلى هذا استقر التنظيم العسكري وقد اشتركت جميع الأرباع في هذه المعركة. كما تقدم[1].

فكان على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الله بن أبي سبرة الحنفي وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي، فشهد هؤلاء كلهم حرب الحسين ما عدا الحُر فقد تحوّل إلى الحسين كما سيأتي.

وعلى هذا نتساءل أكانت كلّ هذه القبائل المقاتلة من الأرباع متمثلة في جيش الديلم المكوّن من أربعة آلاف فارس وهم حلفاء عبد القيس من بطون ربيعة، وقد عرفوا بحمر الديلم، باسم رجل يسمى ديلم وكان يترأسهم وهم الذين التجأوا إلى سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية، من بقية جيش الفرس فكانوا في معركة الطفّ تحت إمرة عمر بن سعد، وقيل إنهم كانوا خمسة آلاف. فالكوفة تلك القاعدة العسكرية التي عرفت بكوفة الجند يشملها الإرهاب في التعبئة والتجنيد الإجباري، والنفير العام، وإصدار الأوامر بحمل السلاح على كلّ محتلم ومن له قابلية حمله[2].

لقد أصبحت الكوفة في نطاق ضيق وهي مقفلة في وجوه القادمين إليها فلا يقدر أحد أن يلج إليها أو يخرج منها[3] وأغلقت جميع الطرق المؤدية إليها إلاّ من طريق واحد، وقد أقام عليه خمسمائة فارس تحت إمرة عزرة بن قيس.

وقال الطرماح عندما التقى بالحسينعليه السلام في الطريق: رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم على ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم تره

---

(١) انظر ص١٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

عيناي في صعيد جمعاً أكثر منه فسألت عنهم: فقيل: اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرحوا إلى حرب الحسين[1].

فهذه الصورة التي يعطيها الطرماح وهو العربي المشهور، ومن له خبرة بالحروب فهو يصف كثرة ذلك العدد الذي يعرض للتجنيد.

فإذا أردنا احصاءً للجنود المشتركة في ساحات الحرب، والمباشرة لقتال الحسين فأقلّ احصاء لهم على وجه التحقيق أنهم عشرون ألفاً، وقد نص ابن حجر على ذلك[2].

وقال بعض المؤرخين أن جملة من أرسله ابن زياد لحرب الحسين فكانوا أربعين ألفاً.

ونحن إذا أردنا أن نأخذ بما هو مجمع عليه وما لا يقبل الردّ فهو: أن عمر بن سعد خرج في أربعة آلاف.

وكان الحصين بن نمير التميمي يترأس جيشاً مرابطاً على الحدود خوفاً من دخول الحسين إلى الكوفة، وفي ذلك الجيش خمسمائة من الرماة فقط ما عدا الفرسان والمشاة وكان إحصاؤهم أكثر من ثلاثة آلاف.

والْتحق هذا الجيش بعمر بن سعد عندما خرج إلى كربلاء، وانضم إليه جيش الحر وعددهم ألف فارس، ثم الْتحق عزرة بن قيس وهو على رأس خمسمائة مقاتل كانوا يحرسون الطريق المؤدي إلى الكوفة.

فهذه الأعداد التي أصبحت تحت السلاح كانت على أتم استعداد لدخول الحرب وتوجهت كلها إلى كربلاء، فيكون عددها عشرة آلاف بين فارس وراجل.

---

(١) الطبري ج٦، ص٢٣٠ والبلاذري خطي.
(٢) شرح همزية البوصيري لابن حجر.

وعلى هذا كيف استساغ بعض المؤرخين وتبعهم أكثر الكتّاب بسهولة إلى القول بأن الجيش الذي حارب الحسين هم أربعة آلاف فارس فقط، فأين ذهبت الستة آلاف فارس؟ على هذا التقدير.

* * *

ونتساءل أيضاً: أين ذهب شبث بن ربعي القائد القديم، والذي تقلب في عدة حروب، وقد دعاه ابن زياد للخروج ومعه ألف فارس، فتمارض، ولكن ابن زياد ألزمه بالخروج، فخرج هو وجيشه؟

وكذلك نتساءل عن ابن ذي الجوشن ودوره في معركة كربلاء، أكان جندياً أم قائداً لألف فارس كما ثبت في الإحصاء الصحيح؟

ثم أين حجار بن أبجر، وأسماء بن خارجة، وعمر بن الحجاج، وغيرهم، أكانوا جنوداً أم قادة؟

ولا يقول أحد بعدم قيادتهم لكتائب من الجند، لا يقلُّ عدد كلّ كتيبة عن ألف فارس.

ونعود فنقول إذا كانت القضية لا تحتاج إلى أكثر من سوق جند الديلم، فما معنى حضور أولئك الرجال من زعماء القبائل، ورؤساء الأرباع؟ وما معنى هذا العرض العام بقوة؟ وما معنى خروج ابن زياد للنخيلة وإقامة عمر ابن حريث مكانه؟ وما هذا التضييق على الأهلين بتطواف الجنود في الشوارع وجلب كلّ من تأخر عن السَوق إلى المعركة؟ حتى وجدوا شامياً جاء لميراث له بالكوفة فلم ينفع اعتذاره وقتل تأديباً للغير[1]

* * *

وهلم لنرى تكافؤ القوى في القتلى، إذ يقول أكثرهم أنه قتل من جيش

---

(١) الدينوري الأخبار الطوال.

ابن سعد ٨٤ ويقابله من أصحاب الحسين ٨٤ فلم يزد بعضهم على الآخر، وما أدري من أين جاء هذا التقابل، والمساواة، وكيف يصح؟ ولكن الجهالة أو التحيز الذي يخفي ١٦ ألفاً من المقاتلين الذين يشغلون حيزاً في الفضاء كيف لا يدفن آلافاً من القتلى الذين سقطوا في المعركة بسيوف أولئك الأبطال إذ تفوقوا بمواقفهم العسكرية وظهروا بمعنويتهم التي جعلتهم يكسبون المعركة رغم قلتهم وكثرة من أحاط بهم إذ الروح المعنوية لها أثرها.

الروح المعنوية:

للروح المعنوية أثر كبير في تفوّق الجيش وبسالته، عندما يتمتع بها الجندي المحارب فهي التي يتفوق بها العدد القليل من المحاربين على الكثرة ممن يفقد الروح المعنوية في الحرب.

ومن أجل ذلك تتخذ جميع الوسائل لتقوية الروح المعنوية كالدعاية في ورود إمدادات عسكرية تساند الجيش، وإشاعة تنازل الخصم أو التحاق بعض قطعاته فيهم و. و. وغير ذلك مما يعبر عنه بالحرب النفسية لإضعاف معنوية الجندي وقد أثبت التاريخ ما لهذا السلاح من أثر في كسب المعركة.

ولا نذهب بعيداً عن تاريخنا الإسلامي، فكم اكتسبت حروبه النصر لتفوق الجندي المسلم بالروح المعنوية.

ومتى ما كان الجيش يندفع بالقوة قهراً لا لهدف يحققه فهو يتقاعس عن الاشتراك في الحرب إذ لا يملك معنوية يتفوق بها ونستطيع أن نقول أن الجيش الأموي كان يفقد هذا المعنوية. وجيش الحسين متفوق عليه لأن الجيش الأموي مدفوع بالقهر.

قال الدينوري، كان ابن زياد إذا وجه الرجل إلى قتال الحسين في

الجمع الكثير يصلون إلى كربلاء، ولم يبق منهم إلاّ القليل، وكانوا يكرهون قتال الحسين ويرتدون ويتخلفون.

وذكرنا أن ابن زياد اتخذ ثلة من الجند يمنعون كلَّ من عاد من الجيش الموجه، ويرغمون الناس على الخروج ولم يبقَ فيها محتلم[1]

فهذا العدد الذي يعود من الناس إنما هو مدفوع بدافع نفسي، ولو كان يملك بعضاً من إقدام يستمد منه الروح المعنوية، خضعوا لذلك.

* * *

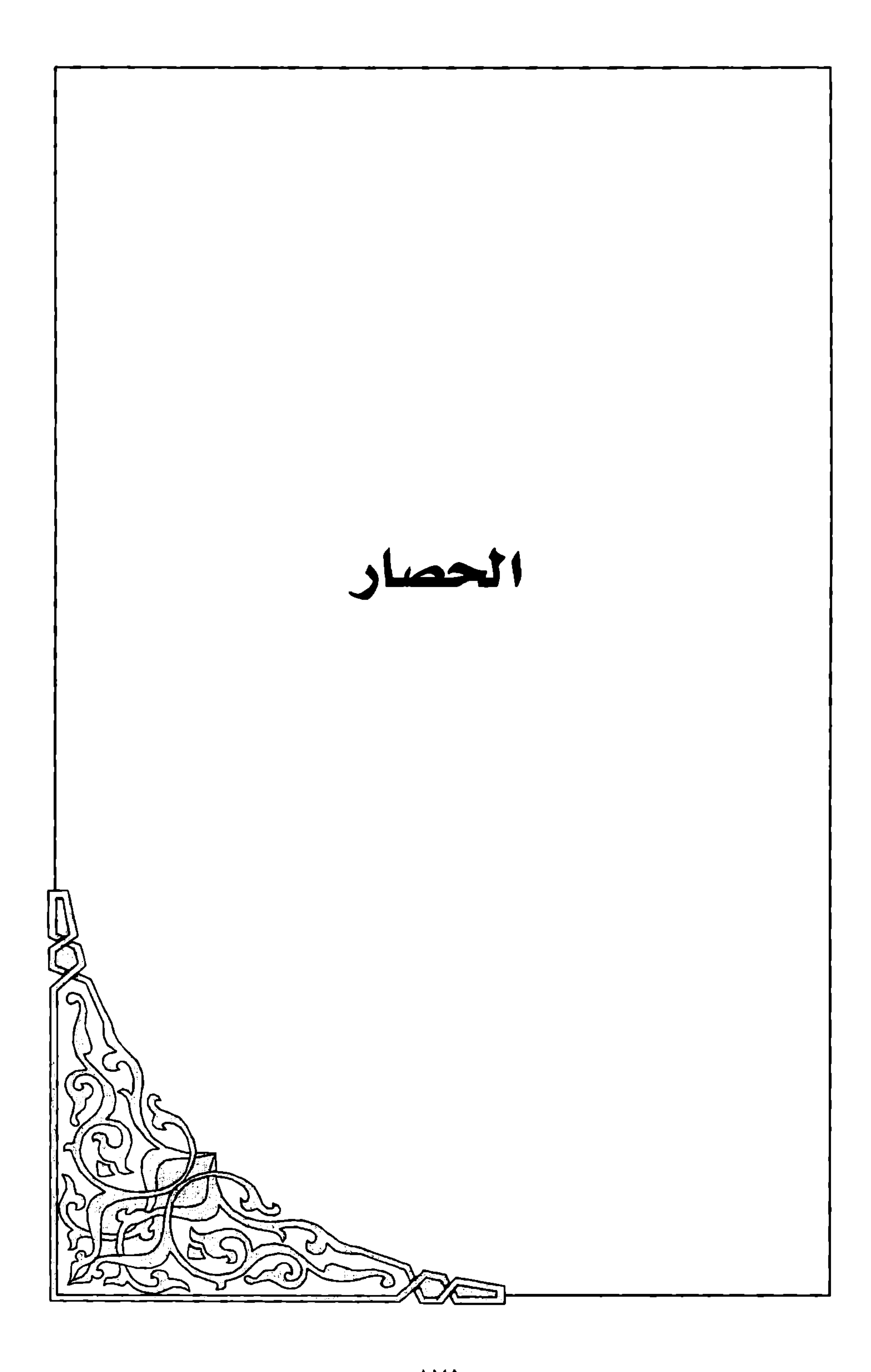
وللمثال نذكر موقف عامر بن أبي سلام عندما أراد الخروج إلى الحسين لنصرته اعترضه عزرة بن قيس، وكان مسؤولاً برد كلّ من يحاول الخروج إلى جهة الحسين، فلما نظر إلى عامر بن سلامة منعه من ذلك، وقال له: عرفت حيث تريد، فارجع. فحمل عامر عليه وعلى أصحابه، وقاتلهم فهزمهم ومضى ولم يجسر أحد من الدنو إليه.

لأن المقابلة هنا بين بطل يحارب دفاعاً عن عقيدته بإقدام لا يعرف التردد، وبشجاعة لا يراودها خوف.

وبين أناس تنكروا للحقّ، وتظاهروا بالتحلل عن عقيدتهم، فهم مرغمون على القتال خوفاً على أنفسهم، فلا يعرضونها للقتل في الحرب، فكما حرصوا عليها من الوقوف بوجه المستبد، فهم بأشد ما يكون من الحرص هنا، فطبيعة الجبن التي دفعتهم لهذه الجريمة النكراء هي التي جعلتهم يتوارون في المعمعة ويفرون فرار الأغنام.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري.



الحصار

الحصار

هو الحرب الاقتصادية في وقتنا الحاضر، له الأثر الحاسم في تقرير مصير الحروب، وهو سلاح كانت تستعمله العرب من قبل وتلجأ إليه الدول اليوم، لأنه يقرب الغاية المنشودة، ونتائجه خير من نتائج الهجوم وخسائره، فإذا ضرب الحصار على جيش ما وانقطعت عنه الإمدادات العسكرية والمواد الغذائية، فإن الأضرار الاقتصادية تؤثر في روحه المعنوية وتضعف طاقاته، فمنع الماء أو منع الطعام إنما هو سلاح من أسلحة الحرب، بحيث يضيق النطاق على الجيش المحاصر وينشغل بنتائج ذلك. وعادة فإن الحصار يضرب على المحاربين فحسب أما الذين لم يباشروا حرباً، من أطفال ونساء ومرضى فشمولهم بهذا السلاح لا يمت إلى الأخلاق وقيم الفروسية ولكنا أمام نظام تجرد من كلّ القيم وتعرى من كلّ الأخلاق وقد كان جيشه ملتقى الطامعين والمتزلفين والخانعين الذين يضربون بسيوفهم ليفوزوا بالمكافأة وليشهد لهم عند الأمويين وجلاوزتهم بالوحشية التي أصبحت مفخرة يكرم عليها المقاتل في صفوف البغي وقتل الأطفال وانتهاك الحرمات من أهداف الجند فقد لجأوا إلى كلّ ما هو من العار ومخالفة العادات والأخلاق المعهودة.

يقول الشاعر العربي:

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جرّ الذيول[1]

فاستعمل ابن زياد تلك الحرب الاقتصادية، بأبشع صورها، وأقصى ما يتصور من معاملة وحشية، فطوق جيش الحسين لمنع الإمدادات عنه وقطع الاتصال معه كما أصدر أمره لقائد الحملة بمنع الماء عن معسكر الحسين.

بل إن عداءه وتفانيه في خدمة الأمويين ونصرة دولتهم جعلته يتعدى حدود الحصار ويأمر بمنع حفر الآبار في الصحراء، فقد جاء في كتابه لعمر ابن سعد:

أما بعد فقد بلغني أن الحسين يشرب الماء هو وأولاده وقد حفروا الآبار ونصبوا الأعلام فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت، وضيق عليهم، ولا تدعهم يشربون من ماء الفرات قطرة واحدة، وافعل بهم كما فعلوا بالتقي النقي عثمان[2].

وبهذه الأوامر الصارمة وخضوعاً لعنف ابن زياد ونزولاً عند إرادته فقد امتثل ابن سعد فشدد الحصار على الحسين وعائلته وأنصاره.

وقد لعب منع الماء دوراً في تلك المعركة وبدأ الإعياء في جيش الحسين كما اشتد أثره في خيل أصحابه عند قيام المعركة، فكان أكثرهم يقاتل راجلاً

* * *

(١) من قصيدة عمر بن أبي ربيعة في رثاء زوجة المختار بن أبي عبيد التي قتلها مصعب بن الزبير صبراً لما رفضت التبرؤ من زوجها وأبت الاستجابة لمطلبه وهي تقول: كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله وكان صائماً نهاره قائماً ليله قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله وأهله وشيعته.

(٢) الفتوح، ٥/ ١٦٢.

لقد امتثل ابن سعد لأمر سيده، وشدد الحصار لمنع الورود إلى الفرات، وأقام حراساً أقوياء، واشتد العطش بآل رسول الله مما دعا أصحاب الحسين إلى الحملة على الفرات قبل وقوع القتال، فتمكنوا من الوصول وملأوا قربهم[1].

قال البلاذري: فلما اشتد على الحسين العطش بعث العباس بن علي في ثلاثين فارساً، وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرين قربة فلما دنوا من الماء، تقدم أمامهم هلال بن نافع البجلي، فقال له عمر بن الحجاج، وكان على موضع الماء:

من الرجل؟

قال: نافع بن هلال.

قال: ما جاءِ بك.

قال: جئنا لنشرب من هذا الماء، الذي حلئتمونا منه.

قال: اشرب هنيئاً . .

قال: أفأشرب والحسين عطشان!!!

ومن ترى من أصحابه.

قال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء: إنما وضعنا بهذا المكان لمنعهم من هذا الماء.

فأمر هلال أصحابه باقتحام الماء ليملؤوا قربهم. فثار عليهم عمر بن الحجاج وأصحابه فحمل عليهم العباس ونافع ابن هلال فدفعوهم ثم انصرفوا إلى رحالهم وقد ملؤوا قربهم.

---

(١) أنساب الأشراف مخطوط. وسمط النجوم العوالي ٣/ ٢٧.

واشتد الحصار وتضاعفت الحراسة على النهر، خشية أن يتسرب الماء إلى الحسين وأطفاله الذين لم يعد يطاق مشهدهم من وطأة الظمأ القاتل ولم يكن قصد ابن زياد هو التشفي لعثمان فحسب، وإنما يقصد أن يسارع في النتائج ويستسلم الحسين، وقد رفع هذا الشعار في معسكر ابن سعد، فنادىٰ المنادي: يا حسين إنك لن تذوق من هذا الماء قطرة واحدة، حتى تذوق الموت غصة بعد غصة أو تنزل على حكم الأمير يزيد، وحكم عبيد الله بن زياد[1].

ومناد أخر ينادي: يا حسين لا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً[2].

المفاوضات:

كانت الآمال تراود خصوم الحسين في مسالمته وهم يشدّدون الحصار عليه ويمنعون الماء عن معسكره ويعزلونه عن الناس.

وكانت الأيام الأربعة الأولى من نزول الحسين عليه السلام أيام مشاورات ومبادلة آراء بين قواد المعركة بغية الوصول إلى الهدف المطلوب وحصل اجتماع بين الحسين وبين عمر بن سعد فقد أرسل الحسين إليه يطلب حضوره لإلقاء الحجة عليه.

وظن ابن سعد أن الحسين قد خامره أمر وهو في ظل هذه الأوضاع وانتهى إلى ما كان يرجوه الأمويون.

وجاء ابن سعد ومعه نحو من عشرين فارساً من أصحابه، واجتمع مع الحسين ما بين المعسكرين.

---

(١) الفتوح، ٥/١٦٣.

(٢) الطبري.

فقال الحسين مؤنباً له: يا ابن سعد أتقاتلني؟ أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ فأنا ابن من علمت، ألا تكون معي وتدع هؤلاء، فإنه أقرب إلى الله تعالى.

قال عمر: أخاف أن تهدم داري.

فقال الحسين: أنا أبنيها لك.

قال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين: أنا أخلف عليك خيراً من مالي في الحجاز.

قال: إن لي عيالاً في الكوفة وأخاف عليهم من ابن زياد القتل ثم انصرف.

* * *

وتكرر الاجتماع وكان الغموض يكتنف الموقف، واستمر ظن الأخرين أن الحسين سيتراجع عن عزمه ويرجع من حيث أتى.

وأصبح ابن سعد في دائرة ضيقة، فكان كلّ جهده إقناع ابن زياد بوسيلة يتوصل بها إلى حل القضية سلمياً، وأراد أن يؤكد للملأ حب الحسين للسلامة ظناً منهم أن الحسين يتركهم لو تركوه، وكان بذلك على جانب كبير من سوء الفهم والتقدير وقد قاسى الأمور بما كان عليه وضعه ووضع غيره من قواد الأمويين ورجال الحكم.

فإن الحسين ثائر ولو تركوه فلن يتراجع عن ثورته، ومطالبته بالحق وإعلان المعارضة للسلطة الجائرة، إذ لم تكن ثورته حفاظاً على نفسه، أو هرباً من يزيد، إنما هو رجل إصلاح وراعي حق، كما أن آماله لن تنقطع من

تيقظ المسلمين وكان ظنه فيهم حسناً. برغم هذه التبدلات والتحولات السريعة التي واجهته وغيرت مجرى التصور والاتجاه.

وعاد ابن سعد لمراجعة الحسين فأرسل رجلاً يعتمد عليه في مهمة الاستطلاع على رأي الحسين وموقفه، فجاء الرسول وسأل الحسين عن لسان ابن سعد فأجابه:

قد كتب إلي أهل مصركم يدعونني إليهم، أما إذا كرهتم ذلك فأنا انصرف عنكم[١].

وكان استنتاج ابن سعد من هذا الجواب بأن الحسين مستعد للرجوع أو أن يذهب إلى ثغر من ثغور الأرض، حسب ما تقرره السلطة إن رأت ذلك وهنا يعلّلُ بعض المؤرخين بأن استجابته للرجوع والترك أنه مسالمة ليزيد أو أنه يذهب ويضع يده في يده.

كما افتعلت يد الوضاعين من الذين يعيشون على الأكاذيب والخرافات قضية مكذوبة وافتعلوا أمراً لم يقع تقرباً للسلطة، فهذا أبو معشر نجيح قد أورد: بأن الحسين طلب من ابن سعد أن يذهب إلى يزيد فيرى رأيه فيه[٢]. وهو كذب صريح لا يمت إلى الواقع بصلة أبداً.

وكتب ابن سعد إلى ابن زياد كتاباً يخبره بنتائج المفاوضات وأن الحسين سيترك ما صمم عليه.

---

(١) البداية والنهاية ج٨، ص١٧٥.

(٢) روى أبو معشر عن بعض مشايخه: أن الحسين عليه السلام قال لعمر بن سعد اختر مني إحدى ثلاث خصال؛ إما تتركني أرجع كما جئت.
فإن أبيت فسيرني إلى يزيد، فأضع يدي في يده، يحكم في ما يرى. وإن أبيت هذا فسيرني إلى الترك، فأقاتلهم حتى أموت.
هذه الأسطورة يوردها أبو معشر في مغازيه، وأبو معشر رجل أمي لا يفهم ما يرويه، وكان يحيى بن سعيد يضحك عندما يذكره، وهو مشهور بالافتعال والوضع.

فحصل عند ابن زياد اقتناع، وأراد أن يحوِّل مجرى القضية، وقال عندما قرأ الكتاب: هذا كتاب ناصح لأميره، مشفق على قومه. وأجاب بالقبول[1].

ولما علم شمر بذلك قام إليه فقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟ لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك، ليكونن أولى بالقوة، وتكونن أولى بالضعف والعجز، ولكن لينزل هو وأصحابه على حكمك، والله لقد بلغني أن الحسين وعمر بن سعد يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين.

فقال ابن زياد: نعم ما رأيت، فاخرج إلى عمر، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا فليبعث إليَّ بهم سلماً، وإن أبوا فليقاتلهم. ثم زوده بكتاب.

وقال لشمر: فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس، واضرب عنقه، وابعث إليَّ برأسه[2]. وأقبل الشمر وهو يتمنى لو يسبق الريح لتنفيذ مهمته وتحصيل غايته.

الزحف المباشر

قدم شمر بن ذي الجوشن من الكوفة وهو يحمل أمر الهجوم على الحسين، والمفاجأة في القتال، ويحمل بذلك كتاباً من ابن زياد يقول فيه:

أما بعد فإني لم أبعثك إلى حسين لتطاوله وتمنيه السلامة، وتكون له عندي شافعاً، فانظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم فابعث إليَّ بهم سلماً، وأن أبوا فازحف إليهم حتى

---

(١) الكامل ج٥، ص٢٨.

(٢) الكامل ج٥، ص٢٨.

تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون وإن قتلت حسيناً فأوطئ الخيل صدره وظهره، لنذر نذرته، وقول قلته، فإنه قاطع ظلوم فإن فعلت ذلك جزيناك جزاء السامع المطيع. وإن أنت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين المعسكر وأمر الناس فإنا قد أمرناه فيك بأمرنا والسلام.

فلما دفع شمر الكتاب إليه قال عمر: يا أبرص ويلك! لا قرَّب الله دارك وقبحك وقبح ما قدمت له، والله إني لأظنك ثنيته عن قبول ما كتبت به، فقال له شمر: امضِ لأمر الأمير، وإلّا فخلِّ بيني وبين العسكر[1].

وحدث سعد بن عبيدة قال: إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجل فسارّه وقال؛ بعث إليك ابن حويزة بن بدر التميمي وأمره إن أنت لم تقاتل أن يضرب عنقك[2].

وهذا الأمر تأكيد للأمر السابق، مما يدل على شدة الاهتمام للإسراع بالمفاجاة. وقد فزع ابن سعد واستجاب لأمر ابن زياد، وأعلن بالزحف على معسكر الحسين، وذلك بعد صلاة العصر، وأمر الرماة بالتقدم، وكان جيش الرماة على أكمل استعداد فتقدم أمامهم ابن سعد ليعلن عن ولائه في إطلاق الشرارة الأولى لإيقاد نار الحرب، برمي أول سهم يوجهه إلى معسكر الحسين.

وهكذا صرّح الشر، وبدأت الحرب المجرمة بهذا السهم الجائر وهو أول مرحلة من مراحل المعركة. وأطلق الرماة، فأقبلت السهام نحو معسكر الحسين كشآبيب المطر، أو كقطع الليل المظلم، وهي تنذر بوقوع الحرب، بل هي رسل أهل الكوفة في دنو المعركة، وانتهاء كلّ محاولة اتخذها

---

(١) أنساب الأشراف.

(٢) نفس المصدر، ص١٠٤.

الحسين معهم لإبعاد غائلة الحرب. فلا أمل بعد هذا برجوع القوم عن غيهم ولا يؤمل منهم الانصياع إلى الحق، وترك باطلهم فليس بعد من شيء إلّا الاستعداد للمواجهة المسلحة.

فاستقبل الحسين وأصحابه هذه الرسل برحابة صدر، وصلابة موقف. إنها لعلائم النصر إلى الأبد، التي تبشر بقيام سوق المتاجرة بينهم وبين الله ليقدموا أرواحهم ثمناً لنصرة الحق والإسلام، لقد دنت الساعة المحتمة، ولاح في الأفق طيف الجولة المرتقبة ومجاهدة أهل الشرك وأنصار الظلم وأعداء الإسلام

* * *

كان هذا الزحف عصر يوم التاسع من المحرم، ولما اقتربوا من مخيم الحسين تقدم إليهم العباس بن علي في عشرين فارساً، وسألهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول أو ننازلكم الحرب. وجرت بينهم وبين العباس محاورة ومشادة.

فاستمهلهم الحسين عشية تلك الليلة، وقال: لعلنا نصلي إلى ربنا الليلة وندعوه ونستغفره ويعلم الله أني أحب الصلاة وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار فاستجاب ابن سعد بعد عرض الأمر على الشمر، فقال له ابن ذي الجوشن: أنت الأمير والأمر إليك.

وكان غرض ابن سعد إظهار ولائه وإخلاصه في القضية إذ أصبح الشمر عيناً عليه ومنافساً له.

ثم وجه الاستشارة إلى الزعماء من حوله فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي:

سبحان الله لو كان من الديلم لكان ينبغي أن تجيبه.

واعترض قيس بن الأشعث وقال: لا تجبهم لما سألوك فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوةً. فقال عمر: والله لو أعلم أنهم يفعلون ما أخرتهم العشية.

إن المخاوف تراود قادة جيش الأمويين من عاقبة تأخير القتال من أن يحدث انشقاق في المعسكر الأموي، إذ لمسوا التحسس بالخطأ من بعض الأفراد.

وكما قدمنا أن التعبئة كانت بشكل غير اختياري، فلا بدّ أن يضم ذلك الجيش من يصطدم بالواقع فيتحول إلى صف الحسين ويلتحق بأنصاره.

والحسين عليه السلام شخصية منفردة بجميع صفات الكمال. والقيادة الصحيحة متجسدة فيه والمجتمع يحمل له من الولاء أكثر من غيره، والحق لا بدّ أن ينتصر وإن قلّ أعوانه فهو لم يقطع حسن ظنه بالأمة، ولم يهمل معالجة الوضع لتوعية الناس، فواصل بذلك نصائحه، وألقى الحجة بعد الحجة إلى آخر ساعة من حياته، وقد تيقظت ضمائر جماعة من أتباع ابن زياد فالْتحقوا بمعسكر الحسين في جوف الليل.

وكان بعض من ساعد على تأخير الحرب في ذلك اليوم يمنّون أنفسهم بأن الحسين سيجيبهم إلى ما يطلبون، وقد صرح بعضهم عندما وافق ابن سعد بتأخير القتال إلى غد، فصاح رجل من أصحابه: يا أصحاب الحسين ابن علي قد أجلناكم يومكم هذا إلى غدٍ، فإن استسلمتم ونزلتم على حكم الأمير، وجهنا بكم إليه، وإن أبيتم ناجزناكم[١].

وهكذا أرجىء القتال وبات معسكر الكوفة ينتظر الصباح عساه يحمل بشائر الاستجابة أو الانشقاق في معسكر الحسين.

---

(١) الفتوح، ٥/ ١٧٩.

ليلة العاشر

بات المعسكران على أهبة الاستعداد للحرب، وكل معسكر يختلف عن الآخر من حيث الكم والكيف وتحصين المواقع والعدة، فالجيش الأموي كثير العدد، قوي العدة، فقد كان آخر احصاء للقوة المرابطة في كربلاء أنها ثلاثون ألفاً، ما عدا قوات الاحتياط في النخيلة التي اتخذها ابن زياد مركزاً للقيادة، كما أن جميع الحشود في الكوفة، وسوادها على أتم استعداد للحركة.

وكان معسكر الحسين لا يتجاوز الخمسمائة ما بين فارس وراجل على أكثر تقدير في الروايات وقيل أقل من ذلك بكثير وقد حوصر فمنعوا عنه جميع الإمدادات حتى الماء وحيل بينهم وبين وروده، وتحت ستار الظلام الْتحق بمعسكر الحسين جماعة من أصحاب ابن سعد، تيقظت ضمائرهم، فقيل كانوا ثلاثين وقيل أكثر من ذلك.

ورغم كلّ الاجراءات التي اتخذها الأمويون لإيقاع الوهن في أصحاب الحسين، لم يتمكنوا من تحقيق ذلك فقد كانوا يتمتعون بمعنوية تخولهم أن يتفوقوا على تلك الكثرة الهائلة، وكانت مواقفهم لهباً من البطولة وشعلة من النخوة والإقدام وشعاعاً من الإيمان، تتجلى فيه عظمة العقيدة الصحيحة،

وقد وصفهم الحسين عليه السلام بقوله: لقد لهزتهم وبلوتهم، فلم أجد فيهم إلّا الأشعس الأقوس، يستأنسون بالموت دون استيناس الطفل بمحالب أُمه» وذلك بعد أن جمعهم ليلة العاشر من المحرم، وألقى عليهم خطابه التاريخي الذي عبر فيه عن موقفه تجاه أعدائه، وقد رفع المسؤولية عن أصحابه، وأذن لهم بالانصراف عنه:

قال عليه السلام: أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً[1]. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري[2].

* * *

وتلقت الصفوة المؤمنة هذه الكلمات من زعيمهم وقائدهم أبي عبد الله الحسين، فها هو يرفع عنهم مسؤولية الجهاد، ويفتح أمامهم أبواب الحياة ويجعل لهم الاختيار بين الموت والسلامة، ويخبرهم بتقرير المصير.

وهنا تبدو على وجوههم علامات التأثر، وتغلي في عروقهم دماء

---

(١) الطبري، ٦/٢٣٨.

(٢) أبصار العين، ص١٠.

الحماس الديني، وتلتهب مشاعرهم فيتسابقون للإعراب عما تنطوي عليه ضمائرهم، وما صمموا عليه في هذه المرحلة الراهنة.

وبدأ العلويون الكلام بحماس يعبر عن الاستماتة والتضحية في سبيل الله، وأن ذلك أقصى ما يتمنونه وقالوا: ولم نفعل ذلك؟ ألنبقى بعدك؟!! لا أرانا الله ذلك أبداً.

وبعدها التفت إلى بني عقيل، وقال: حسبكم من القتل بمسلم اذهبوا فقد أذنت لكم.

فقالوا بأجمعهم: «إذن ما تقول الناس وما نقول لهم؟ أنا تركنا شيخنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا نقبل ذلك، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا، نقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك[1].

ثم تكلم الأنصار وأعربوا عن إخلاصهم وأول من تكلم منهم مسلم بن عوسجة وقال:

وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن بيدي سلاح أقاتل به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك.

وتبعه سعيد بن عبد الله الحنفي قائلاً:

والله لا أتخلى عنك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا وصية رسوله فيك أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً

---

(١) الكامل، ٤/ ٢٤.

ثم أذرى يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين وقال:

والله وددت أني قتلت ثم نشرت حتى أقتل كذا ألف مرة وأن الله عزَّ وجل يدفع ذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك[1].

وتكلم باقي أصحاب الحسين بما يشبه بعضهم بعضاً فجزاهم الحسين خيراً[2].

وقال لهم: إني غداً أقتل وكلكم تقتلون ولا يبقى منكم أحد.

قالوا بأجمعهم: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرفنا بالقتل معك أو لا نرضى أن نكون معك يا ابن رسول الله ﷺ؟

---

(١) إرشاد المفيد ومقتل الحسين للمقرم ٢٣٥.

(٢) إرشاد المفيد ومقتل الحسين للمقرم، ص٢٣٥.

الاتّجاه إلى اللّه

وبعد أن انتهى هذا الاجتماع العظيم الذي تمثل فيه الإخلاص والتضحية في سبيل الله، ذهب كلّ لعمله في بقية الليل، فهذا يقوم بإكمال ورده، ويعود لمصلاه، مقبلاً على ربه، يناجيه بقلب قد رفض حب الدنيا واشتاق إلى لقاء ربه وقد وصفهم الرواة في تلك الليلة: أنهم باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد، وراكع وساجد. ومنهم من يجتمع بأصحابه لمبادلة الرأي في لقاء الأعداء، عندما تقع الحرب، وكيف تكون خطة الهجوم وخطة الدفاع.

وكان يتفقد البيوت ويمر بالثغرات، ليرد الهجمات الإرهابية التي استعملته فرق الجوالة في الليل.

وذاك يجتمع بأهل بيته يوصيهم بالصبر، وتحمل المتاعب والقيام بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم، بعد أن تقتل الرجال في ساحات المعركة.

وبعد أن بقي من الليل شطراً، اتجهوا جميعاً إلى الله يناجونه. ويتضرعون إليه، ويطمعون في رحمته، فهم وفوده في الغد وحماة دينه وصفوته من خلقه اليوم.

وباتت العوائل في تلك الليلة على وجل واضطراب، فالحالة مؤلمة والوضع رهيب والجيش يحيط بهم من كلّ الجهات، وهم يرعدون ويبرقون ويرددون أهازيج الحرب المخوفة، والتهديدات المزعجة، ولقد كانت الحالة تبعث على الألم لتلك العوائل المخدرة والأطفال العطاشى الذين تختلف أعمارهم، فمنهم الرضيع في مهده والدارج في مقتبل عمره، ومنهم أكبر من ذلك، وقد باتوا جميعاً بلا زاد ولا ماء، فذبلت شفاههم من الظمأ، وذوى عودهم، وانحنت رقابهم وبُحّت أصواتهم، أما الرضيع ففي إغماء إذ جف اللبن من المراضع وتقطعت الشفاه من الحرارة، والدارج يستمسك في سيره عندما يرى تجمع أطفال هناك عسى أنهم سعدوا بالماء فيشاركهم، وبعضهم أزال الرمال عن وجه الأرض ووضع صدره على التراب لبرودته، وكانت العقيلة زينب ترعى بحُسن رعايتها ذلك الجمع من النساء والأطفال.

فهي تحمل مع أخيها الحسين عبء المعركة وثقل الرعاية، ومسؤولية تنفيذ نتائج الثورة كما أنها تقوم في تلك الليلة بأعظم مهمة تدور بين الخيام تكلم هذه وتربت على كتف ذاك الصبي وتهدهد آخر وتطل على أخيها وبقية أهلها وهم في صلاتهم إلى الله واتجاههم إلى ربهم.

* * *

وعاد الحسين إلى خيمته. قال الإمام زين العابدين: اعتزل أبي في خباء له وهو يعالج بسيفه ويصلحه ويقول:

يا دهر أفّ لك من خليل — كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وطالب قتيل — والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل — وكل حيّ سالك سبيل

وعندما طرق هذا الكلام سمع العقيلة توجهت نحو الحسين وقالت: واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم، ماتت أمي فاطمة، وأبي علي،

وأخي الحسن، يا خليفة الماضين، وثمال الباقين، فنظر إليها الحسين وقال:

يا أختاه لا يذهبن بحلمك الشيطان تعزي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لا يبقون وكل شيء هالك إلّا وجهه ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة.

فقالت عليها السلام: أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذاك أقرح لقلبي وأشد على نفسي.

كانت هذه أول وصية من الحسين لأخته إعلاماً لها بتحمل المسؤولية وأن تكون أمام الكوارث المقبلة، كالجبل الأشم، والصخرة الصماء، تتكسر عليها كلّ عوامل الذلة والانكسار، ولا تستولي عليها دوافع الضعف، وعوامل الانهيار، وأن تتأسى بجدها رسول الله، وتتعزى بعزاء الله.

* * *

إنه عبء ثقيل في تحمل مسؤولية الكفاح المتواصل لربط الثورة بأهدافها المتوقعة وعواملها المنتظرة، وقد تجسدت لها الحوادث بعد أن أطلعها الحسين على كثير من مهماتها، وفتح أمامها نوافذ مهمة مهّد لها طريق التسلية عما تلاقيه فيها من بلاء وما تصطدم بها من نكبات.

ولقد كانت على موعد مع هذا الحدث العظيم، حدثتها أمها فاطمة الزهراء وسمعت من أبيها علي، ما يدل على وقوع ذلك، وكما لمّح لها أخوها الحسين بآثار الفاجعة، وصرّح لها الحسين بدنو ما كانت تخشاه، وحلول ما كانت تتوقعه.

ولقد تحملت مسؤولية إتمام الرسالة التي قام بها الحسين عليه السلام

فأوضحت للعالم عوامل الثورة، فنبهت الغافل، وفضحت تلك الدعايات المضللة.

لقد مثلّت زينب دور البطولة في ميدان الجهاد، وثبتت أمام المحن والمكاره، ثبوت الجبل أمام العواصف.

واحتسبت ما أصابها من بلاء في جنب الله؛ طلباً لمرضاته وجهاداً في سبيله، وإعلاء لكلمته.

لقد أدت واجبها في ساعة المحنة، فهي تسلي الثاكل وتصبر الطفل، وتهدىء روع العائلة.

وسنرى في مسايرتنا لركبها الحزين، كيف وقفت أمام مجتمع الكوفة فحملتهم مسؤولية هذه الجريمة الكبرى، ووسمتهم بالذل، وألبستهم العار، كما سنرى كيف قابلت يزيد الماجن المستهتر الطائش، فأوضحت للملأ إلحاده وكفره، وسلبته التفكير أمام قوة الإيمان وبلاغة العقيدة، فكان النصر حليفها ولا زال إلى الأبد.

وعند الصباح

وطلع فجر اليوم العاشر من المحرم. وكان يوم الجمعة، وأصحاب الحسين مستقبلين القبلة، يؤدون فرضهم، وهم يرفعون أكفهم للسماء يستنزلون الرحمة، ويسألون الله النصرة، يرمقون السماء بعيون تترقرق بين أجفانها دموع الفرح، لقرب لقاء الله والفوز برضوانه، والموت بساحات الجهاد في سبيله.

إنهم قد تجردوا عن كلّ شاغل، وتخلوا عن كلّ ما يبعدهم عن حظيرة القدس، فهم مشغولون بذكر الله، يرددون آياته ويتحملون مسؤولية الجهاد، والدفاع عن الحق، فلم يعبؤوا بكثرة الجيش، ولم ترهبهم قعقعة السيوف ولا استكاك الأسنة، وخفق الرايات وأراجيز الحرب.

أقبلوا على الله واتجهوا بكل مشاعرهم، وقد ملك الإيمان قلوبهم وتجسدت المسؤولية الملقاة على عاتقهم أمام أعينهم، فهانت عليهم الدنيا لعظم الهدف، فلم يشغلهم شاغل إلّا انتصار الحق، وإزهاق الباطل، وقد وصفهم الإمام الصادق بقوله:

«إن أصحاب جدّي الحسين، كانوا لا يحسون بألم الحديد».

وذلك لاتجاه شعورهم إلى أداء مهمتهم، فلا يحسون بغير ما يصبون

إليه وإلّا يألمون لجرح أو يهابون السلاح لأن الشهادة غايتهم ونصرة الحق رسالتهم.

* * *

وقبل أن يتموّا تعقيب الصلاة تهيأ الجيش الأموي للحرب، ودنت الساعة الحرجة التي يفصل فيها التاريخ بين قوتين قاهرتين، هما قوة الخير، وقوة الشر التي أصبحت الجولة الحاسمة بينهما في ميادين الطف، إذ التقى الإسلام والعناصر المعادية هناك لتصفية الحساب.

ولأن انتصرت قوى الشر في تلك المعركة فإنما هو انتصار موقّت وظفر محدود، ففي تلك الجولة الحاسمة ظهرت العناصر المندسّة وأزيلت البراقع التي كان يتستر بها أعداء الإسلام، وبقي يوم الحسين تهتزّ له عروش الظالمين وتهوي بصرخته المدوية تيجان المستبدين. وبقي الحسين وسيرته الخالدة، سيرة البطولة والفداء، سيرة التضحية والعقيدة، سيرة العزة والكرامة. ولقد كتب بدمه المسفوح أسمى معاني التضحية في سبيل نصرة الحق وإقامة العدل. والنصر حليفه على ممر الزمن وتعاقب الأجيال.

في انتظار القتال

وقف المعسكر الأموي على أهبة الاستعداد للهجوم وانتظار أوامر القيادة في الزحف، وقام الجيش باستعراض عام جالت الخيل فيه على كثرتها أمام معسكر الحسين، وقاربوا مخيم عياله لإدخال الرعب وإظهار القوة، وبيان العدة وكثرة العدد الذي ازدلف ذلك اليوم والذي يقدّر عدده بثلاثين ألفاً على أصح الأقوال.

جاء عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام وهو ممن شاهد المعركة ووعى أخبارها على ما به من شدة المرض، أنه قال: ما من يوم أشد على رسول الله من يوم أحد قتل فيه عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وبعده يوم مؤته قتل فيه ابن عمه جعفر، قال ثم لا يوم كيوم الحسين ازدلف إليه ثلاثون ألفاً يزعمون أنهم من هذه الأمة، وهو يذكرهم بالله فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً وظلماً، وعدواناً.

* * *

لقد تقدم ذلك الجيش وهم يرفعون شعار النزول على حكم الأمير عبيد الله ابن زياد، وكانت هذه التحركات بعد طلوع الفجر، وقد توقف الهجوم بانتظار جواب الحسين، في تقرير المصير لأنه استمهلهم عصر يوم الخميس تاسع محرم لمدة ليلة.

والكل ينتظر النتائج بفارغ الصبر أما الصلح وهو النزول على حكم ابن زياد، أو القتال. وقد سيطر على الموقف غموض، ثم أسفر الصبح، وإذا بالحسين يخرج على ذلك الجمع بتلك الطلعة التي تبهر العقول هيبة وجلالاً، وقد أحاط به أخوته وأنصاره، كما تحيط النجوم بالقمر.

خرج عليه السلام وهو معتمٌّ بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ومتقلد سيفه.

خرج عليه السلام بتلك الطلعة التي جللتها قدسيّة الإمامة، وعلتها أنوار النبوة، وهو يحمل المصحف بين يديه لإتمام الحجة، وإنقاذ هذه الجموع الغفيرة التي ساقها الجهل، وحدا بها الطمع، إلى هوة الهلكة.

إنه يريد أن يعلن للملأ دفاعه عن الحق، وملازمته القرآن قولاً وعملاً.

إنه يريد أن يترك للأجيال القادمة خطة المسير على أهداف الرفعة والسمو.

وها هو يقف أمام ذلك الجيش العظيم، بعد أن علم إصرارهم على قتله وامتناعهم عن الاستجابة لكلّ حلّ دون إعلان الحرب.

وها هو يلقي بحجته، ويذكرهم بوعد الله ووعيده على خيانتهم وغدرهم له، ونبذهم تعاليم الإسلام وراء ظهورهم.

إنه يريد أن يعري أدعياء الإسلام، ويزيل براقع التستر في صفوف المسلمين وهم يعملون على هدمه.

إنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى.

إنه يتقدم نحو أعدائه وقد أحاطت به الصفوة من أهل بيته وخلّص أصحابه وكتاب الله بين يديه رافعاً صوته بالدعاء إلى الله والتضرّع بين يديه.

فنادى بأعلى صوته: أيها الناس ـ أويا أهل العراق ـ اسمعوا قولي،

ولا تعجلوا بي حتى أعظكم بما يجب لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأنصفتموني، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر «فاجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم افضوا إليّ ولا تنظرون أن ولييّ الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» ثم قال:

«أما بعد. فانسبوني، من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، وانظروا: هل يصح لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟

ألست ابن بنت نبيكم ﷺ وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أَوَليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أَوَليس جعفر الشهيد الطيار عمي؟

أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة» فإن صدقتموني بما أقول ـ وهو الحق ـ والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله. ويضرّ من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من أن سألتموه عن ذلك أخبركم: سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟.

فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً!! وأنا أشهد أنك صادق ما تدرك ما يقول قد طبع الله على قلبك.

ثم قال لهم الحسين: «فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب، ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، وأنا ابن بنت نبيكم خاصة. أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة؟

* * *

فأخذوا لا يكلمونه فنادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث و. و. ألم تكتبوا إليّ، أن قد أينعت الثمار، واخضرَّ الجناب وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجندة فأقبل.

قالوا له: لم نفعل. فقال سبحان الله بلى والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمنٍ من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث: أو لاتنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يروك إلّا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه؟

فقال له الحسين أنت أخو أخيك تريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم[1]

* * *

لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد

---

(١) الطبري ج٦، والكامل ج٣، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

عباد الله إني عذتُ بربي وربكم أن ترجمون أعوذ بربي وربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

* * *

ألقى الحسين هذا الخطاب العظيم بلهجة قوية وحجة قويمة، فقد أوضح الموقف ورفع الستار عن كلّ ما يختلج في القلوب، من تشكيك حول موقفه وقد أبان بأقواله منهج ثورته وبيان نهضته، وأنه مصمم على مواصلة القتال لنصرة الحق والعدل، ولو تركه القوم لم يتركهم لأنه ثائر للحق، وقد تركوا العمل به وأقبلوا على الباطل كما أوضح لهم.

إنه لم يقدم أرضهم إلّا بعد أن دعوه، ومنهم أولئك القوم الذين أصبحوا قواد جيش وزعماء حركة، وقد كاتبوه بالأمس، ولكنهم قابلوه بالغدر والتخاذل، وأجابوه بجواب ليس للتعقل فيه من أثر، ولا للتفكير فيه من صلة.

فقالوا: (إنا لا ندري ما تقول. انزل على حكم بني عمك وإنّا لسنا تاركيك)، وهنا اتضح ما كانوا عليه، إما التنازل من الحسين وإما محاربته والحسين عليه السلام صمم على خطين لا ثالث لهما. إما أن يستسلموا لدعوته والوفاء بما عاهدوه، أو التضحية، فأعلنها كلمة خالدة ترددها الأجيال وتسير على نهجها الأبطال، وأباة الضيم، وترك تلك الأجسام الثقيلة على الأرض لا تستقيم عليها فهي تترنح حيرة وذهولاً.

نادى عليه السلام وأعطى دروسه الأخيرة، ورفع شعار الثورة، وأعلن عن وقوعها بقوله: والله لا أعطي بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد. ثم قال: ألَا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر.

وأكد ذلك بقوله: (لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما) وتيقظت ضمائر جماعة من أعيان جيش ابن سعد فالْتحقوا بمعسكر

الحسين عليه السلام وهم من أبطال الكوفة: كأبي الشعثاء ويزيد الكندي وغيرهم بعدد يربو على الثلاثين رجلاً كما الْتحق به ليلة العاشر من المحرم جماعة تسللوا تحت جنح الظلام.

وأشهر من الْتحق بالحسين يوم العاشر الحر بن يزيد الرياحي لمكانته الاجتماعية ومهمته العسكرية.

الحُرُّ بن يزيد الرياحي

بقي الحر ينتظر العواقب، فجاءه المدد من جيش الكوفة، فكان أهم تفكيره أنه هو السبب في إنزال الحسين، والحجر الأول لبناء هذا التجمع الكبير، ونظر إلى الاجراءات التي اتخذها ابن زياد لمضايقة الحسين، حتى أدى الأمر إلى حرب لا بدّ منها وسمع خطاب الحسين وإصراره على المضي في نهجه.

فتيقظ ضميره، وجاء إلى عمر بن سعد قائلاً: ـ أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال ابن سعد: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي.

وهنا يعود الحرّ إلى تفكيره العميق، ويلازم صمته، ويجيل النظر من حوله، ويفاوض بعض أصحابه في الالتحاق بالحسين، فتهيّبوا من ذلك، ثم انعزل عن أصحابه بصورة تجلب الانتباه وكل من يراه فقد كان يرتعد كالسعفة إذ يلاعبها الهواء، مضطربة أعضاؤه ووجهه.

إنها حالة غريبة، فالحرّ يعدُّ من شجعان العرب، وهو اليوم من أكبر قواد الجيش ورئيساً لعشيرة ذات نفوذ وقوة، ولكنها الحقيقة التي لا بدّ من الاعتراف بها فهو مخطئ فكيف يتدارك خطأه والاعتراف بالخطأ فضيلة.

هو في صراع مع نفسه التي تعصف بها الحيرة، ويحاول التغلب على عنصر الشقاء وعوامل الهلكة، فاستنكره كلّ من رآه بتلك الحالة، فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذته الرعدة، فارتاب المهاجر من حالته وقال: لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟!!

فقال الحر: إني أخيّر نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً. ثم ضرب جواده نحو الحسين، وتقدم وهو يرفع صوته بالدعاء ويقول: اللهم إني إليك تبت فتب عليَّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك.

ويدنو من الحسين ومعه ولده، وهو يتعثر بأذيال الخجل وقد خالجه اليأس من قبول التوبة، ويخشى من الرد الفاضح، إن لم يرضَ الحسين عنه، ولم يقبل توبته.

ووقف أمام الحسين معتذراً، وقد غيّر الندم نبرات صوته:

أيا ابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع، والتحرك، وسايرتك وجعجعتك في هذا المكان، ووالله ما ظننت أن القوم ينزلون منك هذه المنزلة أبداً حتى أصبحوا اليوم يريدون قتلك، ولو علمت أنهم ينتهون إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبتُ، وإني قد جئتك تائباً، مما كان مني إلى ربي، وجئت مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، وقد حاولت أن أحضر من القوم جمعاً منهم فتمنعوا وتخوفوا فجئت بنفسي فهل تقبل مني هذه التوبة.

قال الحسين: تُبْ يتوب الله عليك. والْتحق به أخوه مصعب، وعروة مولاه وقتل بين يدي الحسين.

وأحسّ ابن سعد بالخطر يحيط بجيشه، فلو استدام الحسين في بيانه ولم تقع الحرب بسرعة لحدث انقسام في جيشه وانضم الأكثر إلى جانب الحسين، ولرجحت كفة معسكره، وخسر ابن سعد تلك المعركة، وقد حثه الرقباء عليه بتدارك الأمر، ودرء هذا الخطر، ولأجل ذلك اسرع ابن سعد في إيقاد نار الحرب، إذ لم يترك الحسين عليه السلام طريقاً يأمل فيه إرشاد ذلك الجمع الذي أضله الشيطان إلّا سلكه.

لقد كلمهم بالحكمة، وطرق أسماعهم بالموعظة، جادلهم بالتي هي أحسن وأوضح لهم ما كان معمي عليهم، وحاول أن يدفع بكل جهده عنهم جريمة قتله، فوجدهم مصممين على ذلك.

لقد كان عليه السلام حريصاً على هدايتهم فيعظهم ويقدم لهم الحجة إثر الحجة، ويقيم الدليل إثر الدليل.

وقد شاركه أصحابه في تلك اللحظات بأمر منه فقد أمر عليه السلام بريراً ابن خضير الهمداني وقال له: كلم القوم واحتج عليهم.

فتقدم برير حتى وقف قريباً من القوم، وكانوا على أهبة الزحف للقتال فقال لهم برير:

> يا هؤلاء اتقوا الله فإن نسل محمد صلى الله عليه وآله قد أصبح بين أظهركم وهؤلاء ذريته وعترته وحريمه فهاتوا ما الذي عندكم وما تريدون أن تصنعوا بهم.

فقالوا: نريد أن نمكن منهم عبيد الله بن زياد فيرى رأيه فيهم.

> فقال برير: ولا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي أقبلوا منه؟!

يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم إليه وعهودكم الذي أعطيتموها من أنفسكم وأشهدتم الله عليها وكفى به شهيداً، يا ويلكم دعوتم أهل بيت نبيكم وزعمتم

أنكم تقتلون أنفسكم دونهم حتى إذا أتوا عليكم أسلمتموهم إلى عبيد الله بن زياد وحلتم بينهم وبين الماء الجاري وهو مبذول يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس وترده الكلاب والخنازير فبئس ما خلفتم محمداً ﷺ في ذريته[1].

ولم يكن لكلام برير جواب إلاّ طلب النزول على حكم ابن زياد. وكان موقف برير أمام القوم وهو يدعو إلى كشف أوهام سيطرت عليهم وتخفيف حدة الدعاية الموجهة ضد الحسين، لأن بريراً مشهور بالكوفة بصلاحه ومن القراء المبرزين، وهو شيخ كبير عرف بالصدق، واتباع الحق.

وتقدم الحر بن يزيد الرياحي وهو البطل المشهور، والزعيم المبرز والقائد المحنك، . ومن عرف بالرأي وحسن السيرة، وله في الجيش أبناء عمومة، وهو أحد رؤساء الأرباع، فكان يأمل أن يؤثر بموقفه على ذلك المجتمع، عندما خاطبهم بقوله:

يا أهل الكوفة لأمّكم الهبل، أدعوتم هذا العبد الصالح حتى إذا جاءكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كلّ جانب، لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، وحلأتموه ونساءه وصبيته من مياه الفرات الجاري، يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فها هم قد صرعهم العطش[2].

فكان جواب أولئك القوم أن رموه بالنبل.

---

(١) الفتوح ٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٢) الإرشاد، ص٢٢٠.

رسل الحرب وبدء القتال

وقف الجيشان على أتم استعداد للملاقاة فقد اتخذ جيش الكوفة مواقعه، وقسم ابن سعد القيادات ميمنة وميسرة، ووقف هو في قلب المعركة، تحوط به آلاف الجند من الرماة وغيرهم، وأعطى رايته دريد مولاه. ووقف جيش الحسين كما نظمه عليه السلام إذا جعل زهير بن القين على الميمنة، وحبيب بن مظاهر على الميسرة وأعطى الراية أخاه العباس ابن علي عليه السلام.

وجعلوا يتسابقون إلى التضحية، فآل البيت تسابقوا للوقوف في الصف الأول من الميدان؛ ليسارعوا قبل الأنصار لميدان الحرب.

ولكن الانصار لم يسمحوا بذلك، وأرادوا أن يكونوا هم السابقون؛ دفاعاً واستماتة دون أهل البيت، ويقولون:

معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء نشهد مصارعكم فأخذوا موقعهم في الصف الأول وراء قائدهم الحسين عليه السلام.

واستمرت المقابلة مدة من الزمن والحسين يؤاجل القوم ويعظهم ويرشدهم إلى ما فيه نجاتهم من الهلكة، وخشي ابن سعد وأعوانه من استمرار الحسين بوعظه وإرشاده فأصدر أمره إلى قواد عسكره وأعيان جيشه

بالتقدم، وتقدم بنفسه ونادى: يا دريد (أو يا زيد) وهو حامل الراية: أُدنُ رايتك، ثم وضع سهمه في كبد قوسه ثم رمى بها نحو معسكر الحسين وقال: اشهدوا أني أول من رمى[1]. فأطلق أول سهم وتابعه الرماة، فأقبلت السهام نحو معسكر الحسين وهي كما قيل: كأنها شأبيب المطر، أو كقطع الليل المظلم. فقال الحسين ـ وهو ينظر إلى السهام وإلى أصحابه ـ:

(قوموا يا كرام هذه رسل القوم إليكم).

وهنا لم يبق بعد من صبابة أمل في هداية القوم، ودفع غائلة الحرب، فقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

* * *

وتأهب أصحاب الحسين عليه السلام، فقد دنت الساعة المنتظرة وابتدأ القتال في المبارزة.

---

(١) الطبري: ٦/٢٤٤.

المبارزة

وتقع المبارزة عادة قبل الْتحام الجيوش، أو في فترات متقطعة، وذلك أن يخرج الفرسان يطلبون أقرانهم. وابتدأ جيش ابن سعد بطلب المبارزة.

وأول من برز منهم: يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله، وهما مشهوران بالشجاعة والإقدام، فطلبا من أصحاب الحسين المبارزة فتقدم عبد الله بن عمير الكلبي وقال: يا أبا عبد الله رحمك الله إإذن لي، فأذن له الحسين وتقدم إليهما، وقال له يسار: من أنت؟ فانتسب لهما.

فقالا: لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر.

فقال له عبد الله: وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس؟!

ثم برز إليه وضربه عبد الله بسيفه، وأنه كان مشغولاً بضربه، إذ شدَّ عليه سالم مولى عبيد الله بن زياد، فصاحوا به: قد رهقك العبد، فلم يشعر به حتى غشيه فبدره بضربة اتقاها ابن عمير بيده اليسرى فأطارت أصابع كفه، ثم شدّ على يسار حتى قتله وعاد إلى معسكر الحسين.

وتبارز الفرسان وتقدم الأقران، وظهرت البطولات، وتفوّق أصحاب الحسين عليه السلام في تلك الجولة التي برز فيها أبطال المعركة وفرسان الميدان.

* * *

وربما يبرز الرجل الشجاع من الصف، ويطلب أن يبرز إليه أحد من أقرانه فيحجمون عن إجابته خوفاً منه، وحفاظاً على أنفسهم.

وكان عابس بن شبيب الشاكري من أولئك الشجعان الذين يحجم الأبطال عن مبارزتهم، لشهرته ومواقفه البطولية، وقد عرفت عشيرته بنو شاكر بالشجاعة، والبسالة، وفيهم يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

لو تمّت عدتهم ألفاً لعُبد الله حق عبادته). فكان عابس مرهوب الجانب وله مشاهد بطولية، تخافه الأقران وتتحاماه الفرسان.

وحينما تقدم ذلك اليوم وعرفه الناس، سبق الرعب إلى قلوبهم قبل أن يطلب منازلتهم.

يقول الربيع بن تميم الهمداني ـ وهو خصم لعابس وعدو لدود له ـ: لما رأيت عابساً مقبلاً عرفته، وكنت قد شاهدته في المغازي والحروب وكان أشجع الناس فصحت: أيها الناس! هذا أسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب الشاكري، لا يخرجنَّ أحد إليه. فابتعد الناس عنه.

وكان موقف عابس موقفاً مشهوداً وهو رجل واحد يقف أمام جمع غفير، فلا يجسر أحد على الدنو منه، وحين رأى إحجامهم عن الدنو إليه احتقرهم، واستهان بهم، فرمى المغفر، وألقى الدرع؛ فقيل له: أجننت يا عابس؟ قال: حب الحسين أجنني.

قال ابن كثير: فتحاماه الناس لشجاعته، فقال لهم عمر بن سعد: ارموه بالحجارة، ورموه من كلّ جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره، ثم شدّ على الناس.

قال الربيع بن تميم: فوالله لرأيته يكر على أكثر من مائتين منهم ثم انعطفوا عليه من كلّ جانب فقتل.

قال: فرأيت رأسه في أيدي الرجال ذوي عدة منهم، هذا يقول: أنا قتلته، وذاك يقول: أنا قتلته. فجاؤوا عمر بن سعد فقال: لا تختصموا، هذا لم يقتله إنسان. ففرق بينهم بهذا القول[١].

* * *

وقد تكون المبارزة من باب المباهلة، فقد جرى ذلك بين برير بن خضير الهمداني، وبين يزيد بن معقل بن عمير بن ربيعة، وذلك أن معقلاً برز فقال: يا برير بن خضير كيف ترى صنع الله بك؟

قال: صنع الله بي خيراً وصنع بك شراً.

فقال: كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً. أتذكر وأنا أماشيك في سكة بني دودان وأنت تقول إن عثمان كذا وإن معاوية ضال مضل وإن علي بن أبي طالب إمام الحق والهدى.

قال برير: إشهد أن هذا رأيي وقولي.

فقال يزيد: فإني أشهد أنك من الضالين.

قال برير: فهل لك أن أباهلك، ولندعو الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المحق المبطل، أخرج لأبارزك.

فخرجا ورفعا أيديهما بالمباهلة يدعوانه أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المحق المبطل. ثم برز كلّ واحد منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بريراً ضربة خفيفة لم تضره شيئاً، وضرب برير يزيداً ضربة قدَّت المغفر، وبلغت الدماغ، فخر يزيد بن معقل كأنما هوى من حالق، وأن سيف برير لثابت في رأسه وهو ينضنضه حتى أخرجه وهو يقول:

أنا برير وأبي خضير وكل خير فله برير

---

(١) ابن كثير، ج٨، ص١٨٥.

ثم بارز القوم فحمل عليه رضي بن منقذ العبدي، فاعتنق بريراً، فاعتركا ساعة، ثم أن بريراً صرعه، وقعد على صدره، فجعل رضي يصيح بأصحابه: أين أهل المصاع والدفاع؟ فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي وحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره، فلما وجد بريراً مسّ الرمح، برك على رضي فعض أنفه حتى قطعه، وأقبل عليه بالسيف ليضربه حتى برد.

فلما رجع كعب قالت له أخته النوار بنت جابر: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القراء، وقد أتيت عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً!!

* * *

وقد تكون المبارزة في أثناء الحملة، والتقاء الفرسان في حومة المعركة، والغرض من ذلك فك ارتباط الفرسان، عندما يسند بعضهم بعضاً ويشغل أحدهم عن الآخر، كما جرى ذلك عندما تقدم الحرُّ بن يزيد الرياحي إلى المعركة وأخذ يقاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً، فكان إذا شدّ أحدهما واستلحم القتال شدّ الآخر حتى يخلّصه، فلما نظر إليه يزيد بن سفيان الثغري من بني الحرث بن تميم قال: أم والله لو رأيت الحر لأتبعته السنان، فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدماً ويتمثل بقول عنترة:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم

وإن فرسه لمضروب على أذنيه، وحاجبه ودماؤه تسيل، فقال الحصين ابن تميم التميمي ليزيد بن سفيان: هذا الحر الذي كنت تتمناه.

قال: نعم. وخرج إليه فقال: يا حرُّ هل لك في المبارزة؟

قال: نعم قد شئت. فبرز له.

قال الحصين: وكنت أنظر إليه، فوالله لكأن نفسه كانت في يد الحرّ، خرج إليه فما لبث أن قتله[1].

كما برز له رجل آخر من بني زبيد يقال له مزاحم بن حريث فقتله. فقال عمرو بن الحجاج: يا حمقى، أتدرون من تقاتلون؟ إنما تقاتلون فرسان أهل المصر، وقوماً مستقتلين، فلا يبرزن لهم منكم أحد[2].

ومرَّ الحر يقاتل وجال على فرسه، فرماه أيوب بن مشرح فأصاب فرسه، واضطرب وكبا، فوثب عنه الحر، فكأنه الليث والسيف في يده.

قال أيوب: فما رأيت أحداً قط يفري فريه، وأخذ يقاتل راجلاً وهو يقول:

آليت لا أقتل حتى أقتلا ولن أصاب اليوم إلّا مقبلا

أضربهم بالسيف ضرباً مفصلا لا ناكلا فيه ولا مهللا

وكان يواصل حملاته ويغوص في أوساط الجموع كالليث، ويضرب فيهم بسيفه ويقول:

إني أنا الحر ومأوى الضيف أضرب في أعراضكم بالسيف

عن خير من حلَّ بأرض الخيفِ

ثم شدّ عليه جماعة فقتلوه، فلما صرع وقف عليه الحسين عليه السلام وأبّنه بقوله: أنت كما سمَّتك أمك الحر: حر في الدنيا، وسعيد في الآخرة.

* * *

وربما تكون المبارزة بين فرد واحد أو أكثر، فتكون مبارزة جماعة في مقابل جماعة، أو كتلة تتألف من عدة أشخاص يحاربون جنباً إلى جنب يشد بعضهم بعضاً، ويدافع بعضهم عن البعض الآخر.

---

(١) أبصار العين ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) أنساب الأشراف خطي ص٢٢.

وقد كان أصحاب الحسين كلهم كتلة متماسكة وحلقة دفاع في ثبات قلب، واتجاه واحد، وقد تقدم من أصحاب الحسين جماعة وهم متماسكون يشدُّ بعضهم عضد الآخر بثبات وإقدام يُرهبون عدو الله.

إن أولئك جمعهم داعي الحق، وهتف بهم صوت الدفاع المقدس، فخرجوا من الكوفة عندما علموا بتوجه الحسين بعد أن قُتل مسلم بن عقيل، وانهارت قوة الدعوة. وتبدلت الأوضاع، خرج هؤلاء النفر وهم:

١ ـ عمرو بن خالد الأسدي، وكان من أشراف الكوفة، الموالين لأهل البيت، وقد ناصر مسلماً ووازره.

٢ ـ مولاه سعد، وكان شريف النفس عالي الهمة، تبع مولاه في توجهه إلى الحسين وقتل معه.

٣ ـ مجمع بن عبد الله العائذي، وهو من التابعين، ومن أصحاب عليّ، خرج إلى الحسين مع ولده عائذ، وقتلا معه.

٤ ـ جنادة بن حرب المذحجي المرادي.

فهؤلاء النفر الخمسة استطاعوا الوصول إلى الحسين، رغم الحواجز التي ضربها ابن زياد على الكوفة، إذ ساعدهم الحظ فوجدوا الطرماح يمتار لأهله، وهو من أعراب البادية، وله علم بطرقها وكهوفها، وأوديتها وسهولها، فخرج بهم متنكباً الطرق المرصودة، والمزدحمة بالخيل والرجال، حتى الْتحقوا بركب الحسين، ولما وقعت الحرب وبدأت المبارزة، كوَّن هؤلاء الجماعة جبهة متماسكة، تخوض ساحة القتال كأنهم رجل واحد، وتقدموا يسند بعضهم بعضاً، وهناك حاول جيش ابن سعد أن يحيط بهم ويفرق جمعهم، فعطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم حتى فصلوهم عن الاتصال بأصحاب الحسين، وابتعدوا عنهم، فلما نظر

الحسين عليه السلام إليهم ندب إليهم أخاه العباس، فنهد إليهم واستنقذهم، فجاؤوا وقد أثخنوا بالجراح، وفي أثناء الطريق تعرض لهم الناس ليقطعوا عليهم الطريق، فانسلوا إلى الحرب، وشدّوا على القوم بأسيافهم شدة واحدة على ما بهم من الجراح، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى قُتلوا عن آخرهم.

* * *

قال ابن كثير: وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين عليه السلام لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون، لا عاصم لهم إلّا سيوفهم، فأشار بعض الأمراء على ابن سعد بعدم المبارزة، فقد كان الرجل من أصحاب الحسين عليه السلام يصرع الكثير من أبطال الكوفة، فقال عمر بن سعد: صدقتَ، الرأي ما رأيتَ. أرسل إلى الناس فَمُرْهم بعدم المبارزة.

وأحجم أصحاب ابن سعد عن إجابة أصحاب الحسين إلى المبارزة فلم يستجيبوا لمن دعاهم إليها، وبذلك خالفوا أهم شرط من شروط الحروب عند العرب.

كما أنهم خالفوا كلّ القواعد والشروط، وأكثرهم في ذلك الجيش يعد نفسه في سجن، ويلازمه القلق والحيرة، وقد ملك الخوف مشاعره فهو يودُّ الخلاص من هذا المأزق.

لقد كان أثر المبارزة بين الأقران في معنوية الجيش الأموي واضحاً، فإن تلك اللحظات قد تجلّت فيها أمور ترفع غشاوة التضليل والخداع، في ربط تلك الحرب بالدين، ولكن الوقائع أثبتت زيف ذلك الادعاء.

فالحسين عليه السلام كشف الستار، وأزال حُجُب التمويه، كما شاركه أصحابه بالوعظ والإرشاد، وكانت الصور التي مرت أمام مناظر أولئك كافية لوعيهم، وردعهم، ولكن أنىّ لهم ذلك.

فمنذ بدء المبارزة تقدم للقتال رجال من أصحاب محمد الذين رأوه وسمعوا حديثه، ومن التابعين ومن القراء ومن عرفوا بالصلاح والتمسك بالدين فتجلى الموقف بصورة لا مجال إلى التشكيك فيها وأن المعركة في أقرب وقت ستكون في غير صالح الانتهازيين وذوي الأطماع والذين انطوت نفوسهم على الخبث فساندوا الموتورين من أعداء الإسلام.

الحملة الأولى

والْتحم الجيشان ووقعت الحرب وجالت الخيل واستكّت الأسنّة وثار الغبار، وحمي الوطيس، وكانت الحملة الأولى التي خاضها أصحاب الحسين حملة جماعية ضارية، اشترك فيها معسكر الكوفة بكامل قطعاته، وقد خاض أصحاب الحسين تلك المعركة الضارية بعزم يستمد من العقيدة، ويشق من نفس مفطورة من الإخلاص والتضحية دفاعاً عن الإسلام، وجهاداً في سبيل الله، وقد برزت معنويتهم العسكرية للعيان، فكانوا يهزمون الجمع، ويخترقون الجيش. ولقد اخترقوا جيش ابن سعد عدة مرات بقلوبٍ أقوى من الصخر، وقد وصفهم مشاهدو المعركة من جند ابن سعد بقولهم:

> ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية، تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، لو كففنا عنهم رويداً لأتوا على الجموع بحذافيرها[1].

ويصفهم كعب بن جابر، وهو الذي قتل برير بن خضير الهمداني بقوله:

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج١، ص٣٠٧.

ولم ترَ عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع

أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كلّ من يحمي الذمار مقارع

وقد صبروا للطعن والضرب حسراً وقد نازلوا لو أن ذلك نافع[1]

تقدموا للحرب وهم ينشدون أشعاراً ملتهبة بالنخوة والإقدام. إنهم أبوا إلّا أن يخوضوا تلك المعركة الحاسمة إنكاراً للباطل ودعوة إلى الصلاح، وأرادوا أن يضربوا مثلاً على التمسك بالحق، والاستماتة في سبيله.

كانوا يتسابقون للذود عن الحسين، والدفاع عن مبادئه، وهم يتلقون سهام أعدائه وهي تهوي عليهم كشآبيب المطر، فكلما صرع واحد منهم حلَّ مكانه آخر، يدفع عنه بصدره ويجود من أجله بروحه، قد أوقدوا نار الحرب، وعلا الضجيج في المعركة، وكانوا يخوضون في ذلك الجيش وهم يرفعون أصواتهم بأراجيزهم المعبرة عن طيب المحتد، وصدق النية وصلابة الإيمان، فهذا يجول في الميمنة ويرتجز:

قد علمت كتيبة الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار

ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري

وآخر يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي حسبي بيتي من عليم حسبي

إني امرؤ ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب

وآخر يغوص في أوساط القوم وهو يقاتل ويقول ويوجه خطابه للحسين:

أقدم هديت هادياً مهديا فاليوم نلقى جدك النبيا

وحسناً والمرتضى عليا

---

(١) الطبري ج٦، ص٢٤٨.

وآخر يعتز بحسبه دون نسبه فهو يقاتل ويرتجز:

كيف ترى الفجّار ضرب الأسودِ ... بالسيف صلتاً عن بني محمد
أذبُّ عنهم باللسان واليدِ ... أرجو به الجنة يوم الموردِ

* * *

لقد وقف أنصار الحسين موقفهم المشرف في الدفاع والتضحية دون المبدأ والعقيدة، فكان موقفه موقف الاعتزاز بالعقيدة، والثبات في الشدة، وأرادوا أن يضربوا لأنفسهم مثلاً في التضحية والفداء، وراحوا يقتحمون عدوّهم كالأسود الضارية، وأخذت خيلهم تجول وعلى صهواتها أبطال العرب وفرسان المصر، فلم تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلّا كشفتهم، فلما رأى ذلك عروة بن قيس وهو قائد كتائب الخيالة، بعث إلى عمر بن سعد يقول له:

ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة؟ ابعث إليَّ الرجالة والرماة[1].

فبعث عمر بن سعد الرماة وعليهم الحصين بن تميم، فتقدم إليهم أن يرشقوا أصحاب الحسين بالنبل، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم، وجرحوا الرجالة، ولكن أصحاب الحسين ترجَّلوا وخاضوا المعركة وقاتلوا أشد قتال حتى انتصف النهار.

وكان في أصحاب الحسين من الرماة الذين كانوا مضرب الأمثال في الإصابة ومنهم يزيد بن مهاجر أبو الشعثاء وكان من شجعان الكوفة وفرسانها، وهو ممن تيقظ ضميرهم، والْتحق بجيش الحسين وتقدم بين يديه وقاتل فارساً، فلما عقرت فرسه جثا على ركبتيه بين يدي الحسين، وكانت معه مائة

---

(١) الطبري، ج٦ ص.

سهم فرمى بها ما سقط منها إلّا خمسة سهام، وكان الحسين يقول له: سدَّد الله رميتك، فلما نفذت سهامه قام على قدميه وقاتل حتى قتل شهيداً[1].

* * *

ونظراً لحراجة الموقف وأهمية القتال وكثرة الرماة كان فريق من أصحاب الحسين قد التزموا وقايته بأنفسهم، وشكلوا في ذلك اليوم حلقة دفاع ودرع وقاية من أجسادهم، ووقفوا يتقون السهام والسيوف عنه.

منهم: حنظلة بن سعد الشبامي، وعمرو بن قرضة الأنصاري، وسعيد ابن عبد الله الحنفي، فكان لا يأتي سيف للحسين إلّا اتقوه دونه، ولا سهم إلّا تلقوه عنه، فإذا أثخن أحدهم بالجراح وأثرت فيه كثرتها أثراً عظيماً أدى إلى ضعفه عن الوقاية يلتفت للحسين ويقول:

أوفيتُ يا ابن رسول الله؟ فيجيبه الحسين بقوله: نعم أنت أمامي في الجنة فاقرأ جدي السلام وأعلمه أني في الأثر[2].

ولما أقام الحسين عليه السلام صلاة الظهر في ذلك الموقف، واستمهل أعداء الله بأن يكفوا عنه إلى حين انتهاء الصلاة، ولكنهم لم يفوا بذلك، فلم يمنع أولئك القوم احترام الموقف، وحرمة الفرض، ورعاية العهد، فكانوا يرمون الحسين وهو مشغول في الصلاة، فوقف سعيد بن عبد الله الحنفي يتلقى السهام دونه، فلما نزف دمه من كثرة النبال خرَّ صريعاً وهو يقول:

اللهم أبلغ نبيك عني السلام وبلغه ما لقيته من الجراح[3].

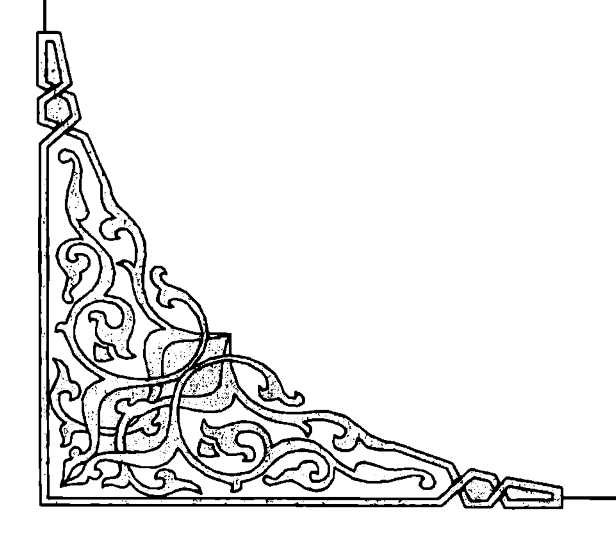
* * *

---

(١) ابن الأثير ج٤، ص٣٨.
(٢) كاشف الغطاء مقتل الحسين ص٥٦.
(٣) المصدر السابق.

ورأى عمر بن سعد أن أصحابه لا يقدرون على إتيان أصحاب الحسين إلّا من جهة واحدة، لاجتماع مضاربهم، وتقارب أبنيتهم، فأرسل رجالاً من جنده، فهجموا على البيوت يقوضونها عن اليمين والشمال، فانكفأ أصحاب الحسين للدفاع عن المضارب، فكان الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض أو ينهب ويرمونه من قريب أو يصرعونه، فأمر عمر بن سعد بحرق البيوت، فأحرقت. فقال الحسين دعوهم يحرقونها فإنهم لا يجوزونها. واستمر القتال وأدت الصفوة المؤمنة واجبها المقدس، وسقطوا في ساحة المعركة يرتدون أبراد الشهادة موشحة بدمائهم الطاهرة، فسلام عليهم ورحمته وبركاته.

بين العقيدة والعاطفة



صراع مُر وموقف حرج، ونهاية خطرة، عندما يقف المرء بين العقيدة والعاطفة؛ فللعاطفة سلطان قاهر وحكومة قاسية تسير بالإنسان على غير الواقع في كثير من أدوار تحكمها، وقليل من الناس من يفلت من سلطانها ويتحرر من عبوديتها.

وقد تجلّت في أنصار الحسين أجلى مظاهر الانتصار على العاطفة فكان الحكم للعقيدة، فساروا على بصيرة من أمرهم، وهدىً من دينهم، وكان عملهم لله وحده جهاداً عن دينه ودفاعاً عن مقدساته، فلا نخوة ولا تعصب، ولا عاطفة تذهب بهم مذاهب منحرفة عن الواقع.

فهذا يقدم ولده بين يديه ليراه صريعاً متشحطاً بدمه في سبيل الله، وهذا يقدم مولاه، وهذا يقدم أخاه، ينظر إليه ويسره ذلك الموقف إذ يعده نجاحاً في هذه المعركة.

كان محمد بن بشير الحضرمي وسط المعركة في تلك الساعة الحرجة جاءه نبأ: أنَّ ابنه أسر بثغر الري. فقال له الحسين: أنت في حلّ من بيعتي فاعمل في فكاك ولدك. وهنا يقف الرجل بين عاملين: عطفه على ولده، ودفاعه عن عقيدته. وقد حصلت له الرخصة من إمامه. فكان جوابه: لا والله لا أفعل ذلك، أكلتني السباع حياً إن فارقتك.

فقال الحسين: إذاً أعطِ ابنك هذه الأثواب الخمسة ليعمل في فكاك أخيه. وكان قيمتها ألف دينار[1].

وتجلّت في معركة الطفّ صور من الصراع بين العقيدة والعاطفة وكان الانتصار للعقيدة، وقد ظهر في مواقف النساء، فكان للمرأة المسلمة دور في ذلك المعترك، فقد انتصرت هنا العقيدة ووقفت المرأة موقفاً بطولياً لم يشهد التاريخ مثله، فكان واجب العقيدة فوق العطف والحنان.

هذه أم عمرو بن جنادة الأنصاري التي ضربت أروع مثل بطولي إذ وقفت موقف حزم وثبات، فإنها بعد أن قتل زوجها وشاهدت مصرعه ازدادت قوة وثباتاً فأمرت ولدها عمرو بن جنادة أن يتقدم للدفاع عن الحسين عليه السلام، وكان عمره أحد عشر عاماً، فلما نظر إليه الحسين رق له. فهو غلام صغير مات أبوه وبقي مع أمه، فشكره الحسين وقال: ارجع إلى أمك تتسلى بك.

عاد الولد ودمعته تسبق أنفاسه وكانت أمه تنظر لساحة المعركة عسى أن يأذن الحسين لولدها فيبرز في المعركة وهو فلذة كبدها تودُّ أن تراه بين جموع ليس للرحمة والرقة مكان في قلوبهم وهم وحوش في هياكل إنسان، ولكن ولدها عاد إليها، فارتاعت لخيبة الأمل. أكان رجوع ولدها حباً بالسلامة وفراراً من الموت لأنه صغير السن وفي مقتبل العمر فقالت:

بُنيَّ! لماذا رجعت؟!

فقال: الحسين لم يأذن لي ويقول: إرجع إلى أمك تتسلى بك.

قالت: نعم؛ إنه رأى صغر سنّك فعظم عليه ذلك، ونظر إلى حمائل سيفك يخطان في الأرض فأشفق عليك وعلم بحالتي فرقَّ لها إرجع إلى الحسين وقل له: إن أمي هي التي أمرتني.

---

(١) الطبري، ٦.

عاد الغلام وهو يحوم في أفكاره ويخشى أن يرد الحسين طلبه وهو يحسب للرد ألف حساب.

دخل على الحسين وهو مصفر اللون وقال وهو مضطرب:

سيدي، إن أمي أمرتني بالجهاد دونك.

قال الحسين عليه السلام جزاكم الله خيراً! أبرز يا ولدي. فتهلل وجه الغلام فرحاً وتقدم نحو الحسين يقبّل يديه.

خرج الغلام بكل ثبات وقوة، وهو يرمق السماء بعينيه. إنها نظرة استعطاف وعبودية لخالقه وشكره لما منحه من هذه المنزلة.

وكانت الأمّ الأرملة التي فقدت زوجها قبل لحظات، ولم تجف دماؤه ولم ترقأ دمعتها عليه بعد، تنتظر النتيجة وتود أن ترى ولدها يتقدم لساحات الجهاد، وبلغت نبرات صوته مسامع أمه وهو يؤدي التحية للحسين، وكانت عادة أصحابه أن يسلموا عليه قبل المبارزة ووقفت المرأة تنظر ولدها وهو يتقدم للموت راجلاً وهو صبي لم يبلغ الحلم. فأي موقف عظيم ومنظر مؤلم عندما تقف امرأة بين العقيدة والعاطفة، وإنه لصراع حاد مؤثر، فانتصرت فيه العقيدة.

ومن المعلوم أن المرأة يغلب على تركيبها النفسي عامل العطف وتميل في مسلكها إلى الرقة وتحاشي المواقف التي تخرجها عن رقتها غير أنها في معركة الطفّ غلب على تركيبها القوة واتسمت بالتصميم فأم عمرو هنا تتحفز لشدّ عضد ولدها لترافقه إلى المعركة جنباً إلى جنب لتثير فيه روح الحماس، وتلهب قلبه بالبطولة. زحفت نحوه وبيدها عمود الخيمة وهي كاللبوة الهائجة وتقول:

إني عجوز في النساء ضعيفة   خاوية بالية نحيفة
أضربكم بضربة عنيفه   دون بني فاطمة الشريفه

وقبل أن تصل إلى المعركة وتلتحق بولدها، استقبلها رأس ولدها يتدحرج، فقد قتلوه ورموا برأسه نحو الحسين، ففتحت ذراعيها مرحبة به وحملته والدماء تسيل من منخره، فمسحت الدم.

يا لهول المنظر وفداحة الوقع! فأسرع إليها الحسين وردّها إلى المخيم تاركة رأس ابنها بين أعدائه يتحكمون فيه لأنها رمت فيه رجلاً منهم فأصابته.

* * *

أما بقية النساء فكنَّ على وجلٍ، وما من واحدة منهن إلّا ونظرت بعينيها مصرع من تثكل به من زوج عطوف أو أب رؤوف أو ولد بارٍّ أو ذي رحم ماسة.

وربما تضاعفت المصائب، وتتابعت الأحزان بتعدد مصارع الأهل والأحبة نصب أعينهن، ولكن الصبر والسلوان كان أقوى من العطف والحنان.

ولما برز عبد الله بن عمير الكلبي وقتل يساراً مولى زياد وسالماً مولى عبيد الله، وهما من شجعان الكوفة أخذ يرتجز ويقول:

إنْ تنكروني فأنا ابن الكلب ... حسبي بيتي في عُليم حسبي

إني امروءٌ ذو مرة وعصب ... ولست بالخوار عند الحرب

إنّي زعيم لك أم وهب ... بالطعن فيهم مقدماً والضرب

ضرب غلام مؤمن بالرب[1]

وأم وهب هي زوجته، برزت لساحة الحرب تشجع زوجها وتنادي: قاتل، فداك أبي وأمي، دون الطيبين ذرية محمد.

---

(١) المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب.

وأخذت بيدها عموداً من خيمة، وهي لا تقلُّ اندفاعاً وإقداماً عن أنصار الحسين لأنها على وعي في أداء رسالة زوجها وجهاده في نصرة الحق والدفاع عن حماته.

وهنا يحاول زوجها أن يرجعها لتعود نحو النساء، فأخذت تجاذبه ثوبه ثم قالت له:

لن أدعك دون أن أموت معك[1].

ولم يتمكن من إرجاعها لأن يده اليمنى جمد عليها الدم، فلزمت بالسيف، ويساره مقطوعة أصابعها، فلم يستطع ردها، فاستنجد بالحسين فجاء إليها وقال: جزيتم من أهل بيت خيراً فإنه ليس على النساء قتال[2].

ولما قتل زوجها وقفت عليه تؤبنه عن عقيدة صادقة وتقول: أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك.

فعظم ذلك على شمر بن ذي الجوشن، فأمر غلامه رستم أن يقتلها، فضربها بالسيف حتى ماتت.

وهكذا يؤدي أولئك الأبطال واجبهم الديني أمام التيارات الملحدة دفاعاً عن الإسلام، وقد زالت عن نفوسهم كلّ عوامل حب البقاء، وترفعوا عن الانحطاط في مهاوي شهوات النفس، فنالوا رضا الله فهم أولياؤه وأحباؤه، وبقيت صفحة سيرهم بيضاء ناصعة، فكانوا مضرب المثل في الشجاعة والإقدام وصدق النية.

ووقف عليهم الحسين وهم صرعى في ميادين الجهاد، وقام يناديهم واحداً بعد واحد إعلاء لشأنهم، واعتزازاً بمواقفهم يؤبنهم بكلماته الخالدة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أبصار العين ١٠٦ وابن كثير ٨/١٨٦.

التي مرت مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال وهي تعطي صورة واقعية عن تلك الصفوة التي لازمته في جميع مراحل النهضة الراهنة، وقد خيَّرهم بين الحياة والموت، فكان إصرارهم على اختيار الموت مع الحسين على رغد الحياة، أعظم مثل للمخلصين من رجال الدعوة إلى الله ورجال الإصلاح في الأمة.

* * *

لقد خطبهم الحسين عدة مرات وهو يفتح أمامهم أبواب الحياة وفسحة الأجل وقال:

أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألَا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما.

وهنا يتقدم أولئك الأبطال ليعربوا للحسين عما صمموا عليه من التضحية معه، والفداء دونه، فقال زهير بن القين:

سمعنا يابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، لآثرنا النهوض معك، على الإقامة فيها.

وقال برير بن خضير:

يابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا، أن نقاتل بين يديك، تقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدك شفيعاً لنا يوم القيامة.

وقال نافع بن هلال:

سر بنا راشداً معافى مشرِّقاً إن شئت أو مغرِّباً، فوالله ما

أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا. نوالي من والاك ونعادي من عاداك[1].

هكذا جسَّد هؤلاء القادة صدق العزيمة، وإخلاص النية في الجهاد بهذا السلوك الذي يصور للإنسان أجلى صورة، لاختيار الموت حفظاً على الكرامة، ونبذ الحياة وإن كانت دائمة، وكلما اشتد الموقف وتضاعفت مشاكله، زادهم ذلك إيماناً وهم يستبشرون.

* * *

إنهم قابلوا فئة استولى الشيطان على قلوبهم، وملك مشاعرهم فاندفعوا مع التيارات المنحرفة، فكانوا يسيرون على غير هدىً، زائغة أبصارهم فهم لا يهتدون.

ولقد عظم على الحسين ما حلَّ بهم من بلاء، وحاول أن يرفع عن العيون ما يحجب عنها النور، ويزيل ظلمة الخداع والتضليل ولكن لم يجد ذلك نفعاً إلّا مع قليل ممن بدأ رد الفعل يعمل في نفوسهم، وتيقظت ضمائرهم، وارتفعوا عن ذلك المستوى المنحط، وفتحوا عيونهم على مساوىء، ما كانوا فيه من موقف ساقهم إليه استسلامهم للدعايات المضللة فتحولوا عما كانوا عليه:

فمنهم من الْتحق به بعد أن أدركته الهداية قبل نشوب القتال وأدى ما عليه ومضى شهيداً مع تلك الصفوة التي رافقت الحسين.

ومنهم من الْتحق به بعد أن وقعت الحرب، فسلك طريق التضحية إذ وجدوا أنفسهم أمام الواقع وجهاً لوجه، واتضحت الحقيقة أمام أعينهم، فلا يمكنهم إلّا التسليم بالواقع، والاعتراف بالحقيقة.

* * *

---

(١) المصدر السابق.

إن ذلك الانحراف الذي تمثّل في جيش الكوفة فسيطر على الأكثرية منهم حتى أصبح من المستحيل رفع تلك الغشاوة ويتحرروا مما سيطر على شعورهم، ووجدانهم بما يبعث على الدهشة والاستغراب، لتحكم تلك السيطرة بمؤثرات لم يتمكنوا من الانفصال عنها، وتحرير أنفسهم منها، وقد تجلت الحقيقة وبدا الواقع للعيان، مما لا يمكن التغاضي عنه، بما أظهره الحسين في معالجته للمشكلة.

وإذا كان هناك نوع من التفكير فلا بدّ أن يحسبوا لما يعود عليهم بأسوأ النتائج، ولأن كانت الدعايات النشطة أو السياسة تحول المجرى إلى ما ترتئيه، فلا بدّ من مراعاة الموازين، التي تسند ذاك التحول وإن كان عكس ما يقتضيه الواقع.

وهنا في ساحة معركة الطفّ عندما تقدم الرجال منهم للموت، أما حسبوا لهذه التضحية من حساب؟ وكيف استطاع شيطان السياسة أن يبرز تلك الأعمال الإجرامية في إطار الدين؟

وكيف تمكن التضليل من أن يصل بالعقول إلى مستوى مُزْرٍ عندما أوجد من يزيد حاكماً شرعياً، وخليفة مسلماً، يوجب الشرع طاعته، وأن حرب الحسين كان من الفروض الدينية لديهم.

لنضع صورة من ذلك ولنرى كيف أثر الضلال أثره في أدمغة أولئك القوم الذين حملوا راية الضلال وهم يظنون أنهم على الحق.

فهذا أحد قواد المعركة يتقدم لأصحابه وهو عمرو بن الحجاج ويدنو من أصحاب الحسين وهو ينادي: يا أهل الكوفة الْزموا طاعتكم، وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرد عن الدين، وخالف الإمام.

فقال له الحسين عليه السلام: يا عمرو بن الحجاج أعليَّ تحرض الناس، أنحن مرقنا، وأنتم ثبتم!! أما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم أينا مرق من الدين ومن أولى بصُلى النار[1].

وتقدم رجل إلى الحسين فقال: يا حسين يا حسين، فسكت، فأعادها ثالثة، فقال الحسين: قولوا له نعم. فما حاجتك؟

فقال: يا حسين أبشر بالنار، فقال له الحسين عليه السلام: كذبت إنّما أقدم على ربٍّ غفور مطاع، فمن أنت: قال ابن حوزة.

فرفع الحسين يده فقال: اللهم حُزه إلى النار:

فغضب ابن حوزة فذهب ليقحم إليه الفرس فعلقت قدمه بالركاب، فانقطعت فخذه. وساقه وقدمه وبقي الجانب الآخر معلقاً بالركاب.

وهذه الصورة من النقمة العاجلة كانت سبب نجاة بعض الحاضرين من الاشتراك في المعركة وانعزال القتال[2].

ولما قتل عمر بن قرضة مع الحسين وكان أخوه مع ابن سعد فنادى:

يا حسين... أضللت أخي حتى قتلته قال: إن الله لم يضلّ أخاك ولكنه هداه وأضلك. قال: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك، فحمل عليه فاعترضه نافع بن هلال المرادي فطعنه وصرعه فاستنقذه أصحابه فعولج بعد وبرىء[3].

---

(١) الطبري ٦/ ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ٢٤٨.

ولما طلب أصحاب الحسين وقف القتال لكي يؤدوا الصلاة، ناداهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل منكم.

فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت أن الصلاة لا تُقبل من آل رسول الله وتُقبل منك...

إلى غير ذلك من صور الشذوذ والاعتقاد والانحراف في السلوك، وهكذا تمرّ هذه المرحلة بعجائب وغرائب من جميع جهاتها، وفي كلّ أحداثها ومجرى حوادثها، والقضية لم تكن من الأمور المرتجلة بل هي ذات تخطيط مسبق وعوامل اتخذ لها ألف حساب.

* * *

ونستطيع أن ندرك مدى التغاضي عن رؤية الواقع، والتحدي لمعالم الحقيقة، عندما نجد من أولئك المتمردين من يعيش على مائدة الأطماع، ويندفع في تيار الانتهازية.

وأبرز مثال يظهر في شخصية لها أثرها في ذلك المعترك، هو شبث بن ربعي، فقد تثاقل عن الخروج لحرب الحسين، ولكنه امتثل أمر ابن زياد، وتوجه مع جيشه وهو يعرف الحق فقد صرح بقوله:

> لا يعطي الله أهل هذ المصر خيراً أبداً، ولا يسددهم لرشده، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية، ضلال ويا لك من ضلال!![1].

ولا غرابة إذا رأينا مثل هذا السلوك من شبث فقد كان ممن أسلم ثم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٢٥٠.

ارتدَّ، وأصبح مؤذناً لسجاح ثم عاد للإسلام واشترك مع الثائرين على عثمان، وحضر مع علي في صفين، ثم شارك الخوارج في حروبهم، وكان ممن كاتب الحسين، ثم انضم لابن زياد واشترك في حرب الحسين، ثم كان مع المختار، وتحول إلى ابن الزبير ورافق مصعب بن الزبير في حربه للمختار[1].

ولمّا قتل مسلم بن عوسجة تنادى أهل الكوفة فرحاً، قتلنا مسلم بن عوسجة، فقال شبث بن ربعي لمن حوله من أصحابه:

ثكلتكم أمهاتكم إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يقتل مسلم بن عوسجة.!!

أما والذي أسلمت له، لَرُبَّ موقف له رأيته في المسلمين كريم، لقد رأيته يوم سلق آذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين، فيقتل مثله وتفرحون[2].؟!!

وكثير من أمثال شبث بن ربعي ممن غُلب على دينه واستسلم لأطماعه وهواه، فرضي بالالتحاق بجيش ظلوم يتحرك في طاعة أعداء الله، وحرباً لأوليائه.

إنهم يقاتلون، وفي سبيل من يقتلون أنفسهم، أدفاعاً عن بلد هاجمه عدو؟ أم عرض تعرض لهتك، أم مال مهدد بالنهب؟

لماذا وفي سبيل ماذا؟؟

إنه في سبيل باطل يرونه رأي العين، وفي سبيل أسطورة تُسمى خلافة يزيد.

---

(١) التهذيب لابن حجر

(٢) الطبري، ٦/٢٤٨.

«ومن العجب، كما يحدثنا التاريخ، أنهم خرجوا لجريمتهم بعد أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح.. !! أصحيح أنهم صلوا وقرأوا في آخر صلاتهم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.؟» إذن ما بالهم ينفلتون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم آل محمد[1].

* * *

وقبل أن نلتقي مع الطالبيين في حملتهم الجماعية، عندما وقع عبء المعركة عليهم، نود أن نشير إلى الخلاف بين المؤرخين في حصر عدد أصحاب الحسين، فقد اختلفت الروايات. فمن قائل: إنهم نيّفٌ وسبعون، ومن قائل: إنهم أكثر من ثمانين وأقلّ من المئة، هذا ما عدا أهل بيته.

وواقع الأمر الذي تبيّن من مسيرة النهضة، أن العدد كان أكثر من كلّ ذلك؛ لأن الحسين قدم من مكة ومعه جمع من الناس يسايرون ركبه، وفيهم من كانت مرافقته منوطة بنتائج نجاح الدعوة في الكوفة، وليس في نيته التضحية، إن اقتضى الأمر ذلك.

ومنهم من هو مصمم على الموت مع الحسين لأنه آمن به إيماناً صادقاً، فوطن نفسه على التضحية في سبيله.

وقد أجرى عليه السلام التمحيص في (زبالة) حين علم بمقتل سفيره مسلم بن عقيل فكشف الأمر ليظهر ما انطوت عليه ضمائر الجميع فقال:

«أما بعد فقد أتانا خبر فظيع: قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن بقطر، وقد خذلتنا شيعتنا، من أحب منكم الانصراف ليس عليه منا ذمام[2].

فتفرق عنه كلٌّ من لم يصمم على تحمل الكوارث التي تعترض سبيل

---

(١) الرسول في كربلا ١٦٠.

(٢) الطبري، ٦/٢٢٦.

الثورة، وهؤلاء هم غير الذين الْتحقوا بالحسين ورافقوه حتى آخر لحظة من حياتهم.

وما ورد على لسان بعض الرواة تعقيباً على ما ذكر آنفاً: من كشف الحسين الحالة للناس وجعل الاختيار إليهم في الانصراف وفي البقاء.

فقالوا: وتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة.

وهذا خلاف الواقع فإن جملة ممن الْتحق بالحسين في الطريق أو الذين رافقوه من مكة لم يتفرقوا عنه، بل واصلوا مسيرتهم وبذلوا نفوسهم حتى آخر قطرة من دمائهم أمثال: زهير بن القين وعابس بن شبيب وبرير بن خضير الهمداني وغيرهم.

* * *

وعلى أي حال فالمصادر الوثيقة التي انتقيناها ليست علىٰ إحصاء واحد فالمسعودي في مروجه وهو من أقدم مصدر يقول:

عدل الحسين إلى كربلا وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل[١].

ومصادر أخرى ذكرت أن ستين شيخاً من أهل الكوفة رافقوا ركب الحسين[٢] ليوصلوه إلى الكوفة وبعد أن تبدل الوضع لم ينفصل منهم أحد بل قتلوا كلهم معه.

وهناك جماعة الْتحقوا به أثناء المعركة بعد أن الْتحق الحرُّ هو وأخوه، وولده، ومولاه وكان عدد هؤلاء يربو على الثلاثين.

---

(١) ٣/ ٧٠.

(٢) ابن عساكر في تاريخه الكبير خط.

كما أن جماعة تسللوا من عسكر ابن سعد والْتحقوا بالحسين، ومنهم أبو الشعثاء وجماعة آخرون، وقد أحصى العلامة السيد الأمين عدد من عرف من أصحاب الحسين عليه السلام بـ(١١٤).

والعلامة المعاصر السيد إبراهيم الزنجاني ذكر منهم عدداً يربو على ثلثمائة بتراجمهم وعشائرهم[١] ولعل سرعة اللحاق وحراجة الموقف لم تسمحا بالتعرف على من انكشف له الزيف الذي موّه به الأمويون على الناس دينهم فأثار عندهم الشعور بالإثم مما ارتكبوا في حقّ أهل البيت فالْتحقوا بالحسين ليتداركوا أنفسهم من خطر ما ارتكبوه فكان نصيب أكثرهم أن يُهمل اسمه ولم يثبت في سجل تاريخ الشهداء.

ولعل ذلك عن قصد متعمد من قبل السلطة عندما قدمت لهم قوائم الجيش المفقود لنيل الجائزة أو التعويض عن حياتهم لأهلهم.

وإن الموقف مهما رافقه من عوامل التمويه والدجل والخداع، فإنا لا نطمئن إلى الأقوال التي تجعل ذلك المجتمع خالياً ممن يشعر بالإثم ويتحسس بقبح العمل.

وإذا كان المجتمع الكوفي قد خضع لسلطة الإرهاب عندما أصبحت القيادات بيد الذين يعيشون على موائد الدولة، فهو لا يخلو من عوامل تبعث بعض الأفراد على الشعور بالإثم، إذ تقاعدوا عن نصرة الحسين بعد أن وعدوه النصرة، وعاهدوه على الثورة كما فعل البعض في الخروج إليه متكتماً فالْتحق قبل بدء القتال وأراح ضميره الديني من التبكيت والعذاب.

وعلى أي حال فالموضوع بحاجة إلى بحث شامل موسع يكشف بعض الحقائق التي نحن بحاجة إلى معرفتها.

---

(١) وسيلة الدارين في أنصار الحسين خط.

الطّالبيُّون

ووقع عبء المعركة على أهل البيت من أبناء علي، وجعفر وعقيل.

ودارت رحى الحرب على الصفوة من الطالبيين، عندما خلا الميدان من الفتية المجاهدين دونهم، بعد ذلك الموقف الذي سجلوا فيه دروساً للأجيال في الولاء لأهل البيت، والتضحية للحق الذي وجب عليهم أن ينصروه.

لقد خاض أهل البيت معركة ضارية، تستعر نارها بصلابة إيمان، ونفاذ بصيرة، وثبات عزيمة، ورفعوا شعار الجهاد في سبيل الله والدفاع عن دينه.

إنهم فتية ما على وجه الأرض لهم من مثيل، في شرف النسب وطيب المحتد.

استعرت نار الحرب، وتتابعت جيوش ابن زياد وأوامره المشددة في المبادرة والسرعة للقضاء على الحسين وأهل بيته، إن لم يستسلموا.

فاشتدت المضايقات من الجيش، وأحاطوا بمعسكر الحسين من كلّ جانب ، فهذا يحاول أن ينهب رحله، وهذا يريد أن يحرق فسطاطه وهو في سبعة عشر من أهل بيته، فتبادروا للحرب وحملوا حملة واحدة، يشد بعضهم إزر بعض.

* * *

لقد برز إلى الميدان أبناء علي وهم عبد الله وجعفر وعثمان، وقال لهم أخوهم الأكبر العباس بن علي تقدموا يا أبناء أمي.

* * *

إنهم أشقاء من أم وأب، أبوهم علي بن أبي طالب، وأُمهم فاطمة بنت حزام الكلبية، المعروفة بأُم البنين.

وكان أكبرهم سناً وأعلاهم شأناً هو أبو الفضل العباس، ولقد كان في يوم الطفّ مضرب المثل في البطولة والإقدام، وهو حامل اللواء، وهو يراقب حركة الجيش وسير القتال.

وقد أمر إخوته أن يتقدموا أمامه فقال: تقدموا يا أبناء أمي حتى أراكم نصحتم لله ورسوله، وأحتسبكم عند الله.

فتقدم أولاد علي في طليعة الصفوة من آل أبي طالب في تلك الحملة.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى ما ذكره الإسفرائيني، في كتاب نور العين في مشهد الحسين ص٢٤:

إن الحسين قام ينادي واغوثاه بك يا الله، فخرج من الخيمة غلامان أحدهما ابن العباس، والثاني أخوه القاسم، وحملا. ويصف حملتهماويذكر لهما أراجيز، وأن القاسم قتل ثمانمائة رجل، وأخوه ـ الذي لم يذكر المؤلف اسمه ـ قتل مائتين وخمسين ثم قتلا.

وهذا أمر ينفرد فيه الإسفرائيني، إن صحت نسبة الكتاب إليه؛ لأن هذا الكتاب هو من وضع القصاصين ـ على ما أعتقد ـ الذين هاجموا المجتمع الإسلامي بالأباطيل، وملأوا الأدمغة من الخرافات، وقد ورد في هذا الكتاب مما يناقض الحقيقة ويشوه وجه حادثة الطفّ الناصع.

والإسفرائيني وهو من كبّار علماء الشافعية ومن المبرزين فنسبة هذا الكتاب إليه غير صحيحة؛ لأنه يضمّ وقائع لم تقع،

ويصف حوادث لم تحدث، وهو من الكتب التي قصد واضعوها أن يحطوا من مقام الحسين، ويرفعوا مقام معاوية وابنه كما جاء في مقدمته: أن الحسين وأخته زينب تربيا في بيت معاوية، إلى آخر تلك الأساطير ومن الغرابة بمكان أن يعاد طبع هذا الكتاب في بغداد من دون التفات لما فيه من نقص.

* * *

علي الأكبر

وأول قتيل من الطالبيين هو أبو الحسن علي بن الحسين الأكبر، ولد في حدود سنة ٣٣ من الهجرة.

أمه ليلى بنت أبي مرة، بن عروة بن مسعود الثقفي، أمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية، وقد أحاط الغموض في تاريخ وفاتها، فلم يفصح عن السنة التي توفيت فيها، فهل كانت قبل واقعة الطفّ أو بعدها.

وُلقّب علي بالأكبر لأنه أكبر أولاد الحسين، كما نصّ على ذلك أكثر علماء النسب وكتّاب السير.

وكان يشبه رسول الله في خلقه، وخُلقه ومنطقه، كما أوضح الحسين ذلك، عندما برز علي، رفع يديه إلى السماء، وقال:

> اللهم اشهد عليهم أنه برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلقاً، ومنطقاً برسولك، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه[1].

وهذه الكلمات تعبر عن حزن عميق مما حل بالحسين من هذه الكارثة، كما أنه يريد أن يعرّي من يدّعي الصّلة برسول الله بذلك المجتمع، فإن

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص٥٦.

هؤلاء الذين يدعون أنهم من أتباع محمد، كما غرر بهم دعاة السوء يجتمعون على حرب ابن محمد، ويشرعون سيوفهم ويسدّدون سهامهم ليقتلوه، ويتقدم لهم الآن من يشبه رسول الله، في خُلقه وخلقه، ومنطقه، كما أن في جمعهم من يعرف ذلك، وأراد أن يعرّيهم عن كلّ ما يدعونه، ومنذ بداية مسيرة النهضة كان شأنه إيضاح الحال، لتوجيه ذلك الركب السائر في ظلام الوهم، والذي حدى فيه غير حاديه

* * *

تقدم علي الأكبر، وهو في نضرة شبابه، وحسن طلعته، يمتطي فرساً يدعى ذو الجناح، وهو يرتجز ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي[1]

فهو عليه السلام في رجزه يعبر بأوضح تعبير عن تقرير مصير معركة الإباء، فيحدد الموقف، وأنه لا سبيل إلى ما طلبه القوم منهم، وما تحكمه الظروف القاسية عليهم، فهم أقوى من ذلك، وأمنع جانباً من الخضوع، لما تفرضه عليهم الحوادث، والظروف وهو بهذا الشعار يقطع طريق من يحاول أو يأمل في الاستلام.

ويمضي علي الأكبر في جهاده، ودفاعه عن كلمة الحق، بعد أن قتل أبطالهم فبصر به مُرة بن منقذ فقال: علي آثام العرب إن مر بي هذا لأثكلن به أباه، فمر به علي الأكبر، وهو يشد على القوم، وهم ينهزمون بين يديه، فاعترضه مرة بن منقذ فطعنه، وصرع واحتوشه الناس فقطعوه بأسيافهم[2].

* * *

---

(١) الحافظ النيسابوري الروضة، ج١، ص١٨٨.

(٢) الطبري، ج٦، ص٢٥٦، وابن الأثير ج٤، ص٣٢.

ووقف عليه أبوه الحسين بتلك الحالة، فأبّنه بكلمة، ذهبت مثلاً لأعظم ما يتصور من عظمة الموقف، وسمو الهدف، وهي تعبر عن أقصى ما يتصور من تحمل النكبات، والصبر، أمام الكوارث، طلباً لمرضاة الله، ورغبة لإعلاء الكلمة.

قال الحسين مخاطباً ولده وهو مسجّى أمامه، وقد ألبسته الدماء حلل الفخر:

«لقد هوّن عليّ ما نزل بك يا بني أنه بعين الله».

ثم أمر فتيانه أن يحملوه، فحمله آل أبي طالب من المعركة، وهو مقطع إرباً إرباً.

آل الحسن

أما آل الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فهم الحسن بن الحسن المعروف بالمثنى، والقاسم بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن، وعبد الله ابن الحسن.

وأكبرهم سناً الحسن المثنى، حضر واقعة الطفّ وجاهد جهاد الأبطال، وسقط جريحاً في المعركة وفيه رمق من الحياة، فحماه أسماء ابن خارجة من وطء الخيول لجسده وحمله، فعالجه وبرىء، ثم لحق بالمدينة وعاش إلى سنة ٩٧هـ.

وأمه خولة بنت منظور بن سيار بن عقيل بن هلال بن سمي بن غالب بن فزاره، ومن هذا كانت القرابة والخؤولة لأن خولة فزارية، ولهذا قال عمر ابن سعد عندما شفع أسماء بن خارجة للحسن: دعوا لأبي حسان ابن أخته.

وتزوج الحسن فاطمة بنت الحسين، وولدت له ثلاثة أولاد هم: عبد الله بن الحسن[1]، وإبراهيم بن الحسن، وكلهم أعقبوا ذرية طيبة.

---

(١) عبد الله فهو المعروف بالمحض قتله المنصور بالسجن بالهاشميات وأعقب ستة أولاد محمد وإبراهيم وموسى الهادي وادريس وسليمان ويحيى.
ومحمد هو ذو النفس الزكية العلوي الثائر ومن له البيعة في الأبواء وذلك في الاجتماع السري الذي عقده العلويون والعباسيون حول انبثاق الثورة وقد بايعه المنصور

القاسم بن الحسن:

هو أكبر أخويه الشهيدين أبو بكر وعبد الله، وكان الحسين يحبه حباً شديداً.

ولقد حاز فخر البطولة والإقدام، وأصبح مضرب المثل في الشجاعة، وتقدم للحرب في ذلك اليوم، وقد وصفه أحد مشاهدي الموقف بقوله:

برز إلينا غلام في يده سيف وعليه قميص وإزار، وفي رجليه نعلان، فمشى يضرب بسيفه، فانقطع شسع إحدى نعليه، لا أنسى أنها كانت اليسرى، ووقف ليشدها، فقال عمرو بن مسعدة بن نفيل الأزدي والله لأشدن عليه فقلت له: سبحان الله، وما تريد بذلك، يكفيك قتله هؤلاء الذين احتوشوه من كلّ جانب، فقال: والله لأشدن عليه، فما ولى حتى ضرب رأس الغلام بالسيف، فوقع لوجهه وصاح: يا عماه، قال: فوالله لجلى الحسين عليه كا يجلي الصقر، ثم شدّ شدة الليث إذا غضب، فضرب عمرواً بالسيف فاتقاه بساعده، فأطنها من لدن المرفق، ثم تنحى عنه

والسفاح ولكنهم نقضوا بيعته وحارب الدولة العباسية فقتل لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن هو الذي ثار في وجه المنصور وقاد جيشاً لحربه وناصره الفقهاء وكاد المنصور أن يهزم أمامه وقارب إبراهيم الفتح وانتصر عدة مرات على جيش المنصور ولكن عاجله الأجل فقتل لخمس بقين من ذي القعدة.

وأما أبو عبد الله موسى المعروف بالجون فانه توجه لمكة بعد قتل أخويه محمد وإبراهيم واختفى هناك إلى أن أمنه المهدي، ولموسى الجون ذرية أصبحوا أمراء مكة المكرمة في القرن الثالث والرابع الهجري.

وأما أبو محمد يحيى بن عبد الله بن الحسن صاحب الديلم مات في حبس الرشيد ببغداد وقالوا: إنه وجد ببركة عاضاً على حمئة وطين ومات جوعاً وقيل: إن الرشيد بنى عليه أسطوانة فقتله وقيل: إنه حبسه في دار السندي بن شاهك في بيت فيه نتن وردم الباب عليه حتى مات.

فحملت خيل ابن سعد ليستنقذوه من الحسين، فاستقبلته بصدورها، فجالت فوطئته حتى مات.

* * *

أما عبد الله بن الحسن بن علي، قتل في معركة الطفّ بدون قتال لأنه صغير السن، برز عندما رأى عمه أحاط به القوم، ووقف إلى جنبه ولم يمتنع عن ذلك، وقال: والله لا أفارق عمي، وأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: ويلك يا ابن الخبيثة، أتقتل عمي؟ فضربه بحدّ السيف فاتّقاه الغلام بيده، فأطنّها إلى الجلد، فإذا هي معلقة، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في حجر عمه الحسين عليه السلام.

* * *

أما أبو بكر بن الحسن بن علي فقتل يوم الطف، قتله عقبة الغنوي وإياه عنى سليمان بن قتة بقوله:

وعند غني قطرة من دمائنا سنجزيهمو يوماً بها حيث حلّتي

تزوج عبد الله الأكبر المكنى بأبي بكر بالسيدة آمنة بنت الإمام الحسين عليه السلام الملقبة بسكينة، لقبتها بذلك أمها الرباب، لما اتصفت به من الهدوء والآداب، وكانت من المتعبدات وتتصف بالأخلاق الفاضلة، وكانت تحظى برعاية أبيها الحسين، لعبادتها، ونسكها، وقد خصها بمزيد عناية مما يدل على عظيم منزلتها وعلو شأنها.

شهدت السيدة سكينة واقعة الطف، وعاشت مع أحداث تلك المأساة، وتجرعت مرارة آلامها، بحلاوة الإيمان، وثبتت أمام النوائب بقوة العقيدة وسمو المبدأ، وقد ساهمت في نشر أهداف الثورة.

قُتل زوجها عبد الله بن الحسن بين يدي عمه الحسين.

ووقفت السيدة سكينة إلى جانب عمتها زينب تشاطرها الأسى، وتشاركها في الجهاد لنشر الدعوة[1].

آل عقيل

وتقدم آل عقيل بعد أن صُرع علي الأكبر، ووقفوا أمام الحسين وقد هاجت أحزانهم، والتهبت قلوبهم بناره.

وقفوا أمام الحسين يعزونه، يسألونه الإذن، ليتقدموا للقتال مع الفتية من آل أبي طالب، الذين تقدموا وكل منهم لا يهاب الموت، ولا يحسب للحياة حساباً، بثبات قلب، ورباطة جأش، وليس في الموقف إلّا التضحية، وتقدم عبد الله بن مسلم وهو يقول:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي ... وعصبة ماتوا على دين النبي

---

(١) موضوع البحث عن حياة سكينة يستلزم البسط والإيضاح لما أحيط بتاريخ حياتها من أمور لا ترتبط بواقع الحال لأنها استهدفت لحملة ظالمة، وتحمل شائن من أعداء آل محمدﷺ، فأهمل المؤرخون الرسميون ذكر كثير من مواقعها المشرقة، ذات المغزى المشرف.
كما تعمد من تربطه أواصر النسب بالأمويين، فأورد في سجل التاريخ أموراً مفتعلة، وأكاذيب منحولة بل هي أساطير سمر في ليال الشتاء، وحكايات هي من وحي الخيال والتي صيغت بعبارات جذابة، شارك فيها كلّ من يحاول الوقيعة بآل الرسول، وكان أبرزهم في هذه الحملة، وأشجعهم في هذه الجولة، هو الزبير بن بكار، أحد أجهزة أعلام الباطل وهو المعروف باختراع القصص ووضع الأحاديث، ونشر الخرافات.
ولا يختلف اثنان بأن الزبير بن بكار كان من أشد الناس عداء لأهل البيت.
وتناول أبو الفرج الأصفهاني تلك الخرافات فوسع الدائرة، وتزيد واختلق وأبو الفرج الأصفهاني هو ذلك الأموي في النسب والنزعة، وتلقف تلك المفتريات أناس مأجورون، يعيشون تحت الظلام، من مستشرقين وتلامذتهم، فكانت هناك مجموعة مفتريات وأكاذيب حول سيرة هذه السيدة الطاهرة.
وقد تسابق لرد هذه المفتريات جماعة من العلماء الأعلام والفوا كتباً قيمة ومع ذلك فالموضوع بحاجة إلى مزيد من التحقيق وتسليط الأضواء لفضح تلك الأكاذيب ومحو تلك المفتريات.

وتبعه أخوه محمد بن مسلم، وتقدم أعمامه أولاد عقيل: عبد الرحمن ابن عقيل، وجعفر بن عقيل، وعبد الله بن عقيل، وقتلوا بأجمعهم بين يدي الحسين عليه السلام.

أما محمد بن سعيد الأحول بن عقيل، فإنه قتل بعد أن سقط الحسين وكان صغير السن[1].

كما تقدم معهم أولاد عبد الله بن جعفر وهم: عون ومحمد.

* * *

وتكامل الطالبيون في حومة الوغى، وكل في جهة قد انحاز بجماعة من المقاتلين يشد عليهم كالليث، والعسكر يتجمع على كلّ واحد منهم.

وكان الحسين ينظر إليهم وهم وسط الجموع، ويلازمه أخوه أبو الفضل العباس، وهو يراقب سير القتال، ويرعى المقاتلين، فإذا تجمعت الرجال على واحد منهم، وجالت الخيل حوله، حمل أبو الفضل وفرقهم عنه، فهو دائماً إلى جنب المقاتلين، يشد عضدهم ويشجعهم لمواصلة الكفاح، وإذا اشتملت هجمات القوم على معسكر الحسين، عاد ليكشف عن المخيم.

* * *

لقد نزل إلى الميدان صفوة آل محمد، وهم سادة الهاشميين ومفخرة قريش وفرسان العرب، وكل واحد منهم، ببسالته وبطولته، يتحدى جموع أهل الكوفة، ويستهين بكثرتهم، ولا يبالي بوحشيتهم، فخاض الطالبيون غمرات الحرب، وثار النقع، وجالت الخيل، واستكت الأسنة، وارتفعت الأراجيز، وتتابعت القطعات المتفرقة.

هذه هي المعركة الحاسمة، التي تدور رحاها في كربلاء بحملة

---

(١) الطبري ٦/ ٢٥٨.

جماعية، وقد جالت خيل الأمويين، واشتركوا في الحرب، فكانوا يتحسسون مواقع الفرص، للقضاء على من ينفرد من تلك الفتية، فحمل عبد الله بن قطبة على عون بن عبد الله بن جعفر، فقتله.

وحمل عامر بن نهشل التميمي على محمّد بن عبد الله بن جعفر فقتله.

وشد عثمان بن خالد الجهني بمشاركة بشر بن سوط الهمداني على عبد الرحمن بن عقيل فقتلاه.

ورمى عبد الله بن عزرة جعفر بن عقيل بسهم فقتله[1].

وشدّ هاني الحضرمي على عبد الله بن علي بن أبي طالب فقتله، ثم شدّ آخر على جعفر بن علي فقتله وجاء برأسه.

ورمى خولى بن يزيد الأصبحي، عثمان بن علي بن أبي طالب بسهم، ثم شدّ رجل من بني أبان بن دارم فقتله، واحتز رأسه، وجاء به إلى عمر بن سعد، فقال: أثبني، فقال عمر: عليك بأميرك يعني عبيد الله فسله أن يثيبك[2].

وكان ابن زياد في النخيلة يراقب الحركات، وهو على رأس القيادة العامة.

وانتهت هذه الجولة بعد أن تساقط أولئك الفتية الأبرار في حومة الوغى، وعانقوا الشهادة في سبيل الحقِّ، لم يبقَ مع الحسين في مركز دفاعه، إلّا حامل لوائه، ومناصره الأول أخوه أبو الفضل العباس عليه السلام.

* * *

وحين انفرد الحسين تقدم ذلك البطل وهو يرفع شعار حماية الدين وأنه

(١) الطبري، ج٦، ص٢٥٦.
(٢) الدينوري الأخبار الطوال ص٢٣٠.

يموت دون مقدساته وها هو يشعر الأعداء برفع شعاره، عندما قطعت يمينه إذ يقول:

والله إن قطعتموا يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين

ومن أجل هذا خاطبه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله عند زيارته:

لقد انتهكت في قتلك حرمة الإسلام فنعم الصابر المجاهد، المحامي الناصر والأخ المدافع المجيب إلى طاعة ربه..

إذ المعلوم أن الشعارات العقائدية، ترتبط بعظمة المبدأ والعقيدة، فالاستهانة بالشعار إنما هو استهانة بالمبدأ، وتحدٍ لقدسيته وعظمته.

وحماية الدين من أعظم شعائره، فالاستهانة بحماة الدين استهانة بالدين، وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب فمن لم يعظم شعائر الله لم يكن له من التقوى نصيب.

وجاء في زيارته: إنك قد مضيت على ما مضى عليه البدريون، والمجاهدون في سبيل الله المناصحون له في جهاد أعدائه.

أشهد لقد مضيت على بصيرة من أمرك، مقتدياً بالصالحين، ومتبعاً للنبيين. وقال الإمام الصادق أيضاً: كان عمي العباس نافذ البصيرة صلب الإيمان.

* * *

وتقدم العباس عليه السلام للمعركة وهو فارسها المحنك وبطلها المشهور

وكان صوته مجلجلاً يهدر كالأسد وهو حامل لواء معركة الطفّ الخالدة واشترك في جميع حملاتها وكان إلى جانب الحسين في كلّ الحملات ومعه في شدة المقابلة وتتابع الهجمات.

وقد أخذ العطش منه مأخذاً وقد جاء في وصفه : بأن قلبه كزبر الحديد من الظمأ وتهون عليه كارثة العطش عندما ينظر إلى مجتمع العافية فيرى وجوهاً مصفرة وشفاهاً ذابلة وأصواتاً قد بُحَّت من البكاء والظمأ فقرر وهو في آخر مرحلة من مراحل الحياة أن يأتي لهم بالماء مهما كانت الموانع وشدة الحراسة ولكن المنية حالت بينه وبين تلك الأمنية عندما عاد من المشرعة حمل الجيش عليه وقدم كلّ ما يمكن.

فكانت معركة حامية بينه وهو بمفرده وبين تلك الجموع وانجلت المعركة وإذا به يتشحط بدم الشهادة مقطوعة يداه بعيداً عن مخيمه قرب نهر العلقمي حيث قبره الآن فسلام الله عليه ورحمته[١].

وخلت المعركة من أبطالها، والميدان من أولئك البررة فها هي جثثهم موزعة، والحسين ينظر إليهم، وقد انفرد في ميدان كفاحه وهو فارس الحلبة، وبطل النهضة، وهو طلبة القوم وها هو معهم بمفرده وجهاً لوجه، وليس له من يقف إلى جنبه فقد ذهب أحباؤه وأنصاره وإخوته شيوخاً وكهولاً وشباباً.

كما سجلت معركة الطفّ شهداء لم يكن مثلهم في تاريخ جميع الحروب، فكما اشترك الشيوخ من صحابة، وتابعين، والشباب من أهل البيت وغيرهم، كذلك اشترك الأطفال الصغار فقد سجل لهم التاريخ أعظم الأثر في تلك الآونة.

---

(١) لضيق المجال عن الاستمرار بالحديث عن مواقف هذا البطل وما يلزم من بيان حول شخصيته ومواقفه اقتصرنا على هذا القدر.

فهذا عبد الله بن الحسن عندما نظر إلى عمه وحيداً تقدم نحوه كما يصفه أحد مشاهدي المعركة بقوله:

خرج غلام يشتد وكأنه البدر، وفي أذنيه درتان[1] فأهوى بحر ابن كعب إلى الحسين بالسيف فقال الغلام يا ابن الخبيثة أتقتل عمي؟![2].

إذ أهوى عليه بالسيف فرفع الغلام يده فضربه على يده فقطعها إلى الجلد فإذا يده معلقة فنادى الغلام يا أبتاه. وفي رواية الطبري: يا أمتاه، فأخذه الحسين وضمه إلى صدره وقال:

يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين. برسول الله، وعلي بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن بن علي[3].

والطفل في حجر عمه مغمى عليه، وكانت حالة مؤثرة وكارثة لا يتحملها إلّا من امتحن الله قلبه للإيمان، وهنا توجه الحسين إلى ربه رافعاً يده نحو السماء قائلاً:

اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض.
اللهم فرقهم تفريقاً واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلونا[4].

كما يتقدم أصغر جندي إسلامي، ليخوض معركة الصراع بين الإسلام وخصومه، ويكون موقفه أعظم موقف شهدته الحروب، وهو عبد الله الرضيع.

---

(١) البداية والنهاية، ج٨، ص١٨٦.
(٢) الطبري ج٦، ص٢٥٩.
(٣) الطبري، ج٦، ص٢٥٩.
(٤) نفس المهموم القمي ص١٩١، اللهوف والطبري، ج٦، ص٢٥٦.

حمله أبوه الحسين عندما أشرف على الموت من العطش، فتقدم فيه إلى القوم، وهو مصفر اللون من الظمأ.

وقال: يا قوم إن كنا بزعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيع، فقد جفت محالب أُمه.

فلم يجد‌عليه السلام استجابة من أولئك الجفاة الذين طبع الشيطان على قلوبهم فأنساهم ذكر الله.

وقال بعضهم بهمس وتخوف: إن أوامر ابن زياد بمنع الماء عن الكبار دون الصغار، فهم غير مشمولين.

ورفع الآخر صوته بقوله: إن الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ والضرورة فإن صبرتم عن سقايته سويعة أسلم أمره إليكم وتنازل لكم.

ودار هذا الحوار والكل بانتظار أمر القيادة، وهناك أمر ابن سعد بقطع الحوار، وقال لحرملة بن كاهل: ارمِ الطفل واقطعْ نزاع القوم، فرمى السهم وأصاب نحره فأدركته المنية علِى صدر أبيه، في ساحة المعركة، فكانت صرخته من حرارة السهم صواعق تنصبّ على أولئك المجرمين، ولعنات تلاحقهم على تعاقب الأجيال ومرور السنين، وكانت مأساته أعظم مأساة تقع في العالم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

مع الحسين في وحدته

نحن الآن وسط معركة حامية، تدور رحاها بين آلاف من المقاتلة وأخرى على أهبة الاستعداد للحركة، وبين رجل واحد ولكنه أكثر من العدد، وأكبر من عدتهم وقد أحاطوا به كما وصفه عبد الله بن عمار البارقي وهو أحد مشاهدي المعركة إذ يقول:

فشد عليه الرجالة عن يمينه وشماله، فحمل عليهم حتى ابذعرّوا عنه، وعليه قميص من خزّ وهو معتمٌّ، فوالله ما رأيت مكثوراً قط، قتل ولده وأهل بيته، وأصحابه، أربط جأشاً، ولا أمضى جناناً منه، ولا أجرأ مقدماً، والله ما رأيت قبله، ولا بعده مثله إن كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب[1] وهو يقول:

أنا الحسين بن علي آليت ألا أنثني

ووصفه آخر بقوله: أنه كان يقاتل راجلاً. قتال الفارس الشجاع يتّقي الرمية ويفترض العورة ويشدّ على الخيل وهو يقول:

أعلى قتلي تجتمعون؟[2]

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٥٩.

(٢) ابن الأثير ج٤، ص٤٠.

أما والله لا تقتلون عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم منكم من حيث لا تشعرون، أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دمائكم، ثم لا يرضى لكم بذلك، حتى يضاعف لكم العذاب[1].

ولما أخذ منه العطش مأخذه، فاتجه نحو المسناة، وانكشفوا منه، فنزل إلى المشرعة، ولكن أعداءه وجدوا الملازمة بين منع الماء عنه، وبين أمر ابن زياد، لأنه يرى، أن منع الماء له أثره في اختصار وقت المعركة، ولهذا فقد شدد أوامره.

وامتثالاً لتلك الأوامر، تجمعوا بكل حماس وقوة، وتنادوا: حولوا بين الحسين وبين الماء[2].

وتقدمت الرماة فرشقوه بالنبال، فأصابه سهم في حنكه، فتفجر دمه من فمه وقد اخترمه السهم، وهو يحاول أن يأخذ جرعة من الماء.

ففار الدم، فتلقاه بيده، ثم رفعهما إلى السماءوهما مملوءتان دماً، ثم رمى به إلى السماء. وقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحداً[3].

وتجمعت قوى الشرّ وتنادوا بكل ما يملكونه من جرأة وصلافة ما تنتظرون بالرجل؟ وركب الشمر وهو الخصم اللدود، وما تمخضت المعائب عن مثله، مع جماعة ممن يشاركونه طباعه، وقرب من عيال الحسين، وحال بينه وبينهم، فلما نظر إليهم الحسين نادى بضعيف صوته:

ويلكم إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن الوردي في تاريخه ١ ـ ٢٣.

(٣) البداية والنهاية، ج٨، ص١٨٧.

في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم[1].

وتراجعوا فيما بينهم وانكشفوا عن المخيم ولكن شمراً حرضهم على الإحاطة بالحسين عليه السلام والحملة عليه من كلّ جانب.

فقال أبو الجنوب لشمر: وما يمنعك أنت من قتله؟ فقال شمر: إليّ تقول ذلك؟ فاستبّا ساعة. فقال أبو الجنوب، وكان شجاعاً لقد هممت أن أخضخض هذا السنان بين عينيك[2].

ورجع الحسين لمخيمه ليلقي عليهم آخر نظرة في آخر لحظة من حياته.

ولا نتعرض هنا لمآسي ذلك اللقاء الأخير، وآلام ذلك الاجتماع الذي شهد أعظم صور المشاعر وأعلى أشكال الطاقة على تحمل المصائب في جنب الله لقد كانت عودة الحسين عليه السلام. تنذر بنهاية اللقاء، ودنوّ الأجل ووقوع الفرقة، ولم يسمح له أعداؤه بإطالة المكث مع أهله، ولم تداخل الرحمة قلوبهم، فيكفوا عنه، حتى يوصي أهل بيته بل ضايقوه وقربوا من مخيمه، وسيوفهم متعطشة لدمه.

وعاد الحسين لميدان جهاده، في ساحات العزّ والشرف وتقدم لإكمال رسالته وإلقاء حجته.

* * *

عاد الحسين للمعركة وعادت النساء إلى الحسرة واللوعة الصامتة، والدموع الخرس ولهنّ بصيص أمل بعودته مرة أخرى.

وعاد للدفاع عن مبادئه، بأروع ما عرف البشر من بطولة وإقدام، وأعظم ما عرف التاريخ من صدق في العزيمة، واستهانة بالموت، ولقد كتب بدمه أسمى معاني التضحية، والتفاني في سبيل الحق، وإقامة العدل،

---

(١) الطبري ج٦، ص٢٥٩، وابن كثير ج٨، ص١٧٨.
(٢) ابن كثير ٨/ ١٨٧.

وأوضح لأباة الضيم منهجهم، ورفع شعار الدعوة إلى الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعندما انفرد وأحاطت به الخيل رفع يديه إلى السماء فقال: اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر ثقة وعدة. كم من همّ يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك، وشكوته إليك، ورغبت فيه إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيته، فأنت ولي كلّ نعمة وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ غاية[1].

* * *

ولقد كان يحمل فيهم. وقد تكاملوا زهاء ثلاثين ألفاً، فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم يعود إلى مركزه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم[2].

وهذه المرحلة من أحرج المراحل التي مرت بها معركة الطفّ فالنهاية أصبحت منوطة بمصرع الحسين

وأضحى يدير السبط عينيه لا يرى سوى جثثاً منهم على الترب ركّد

فتجمعت القوى على قتله وتجاوبت في الفضاء أصواتهم: ماذا تنتظرون بالرجل؟ إحملوا عليه من كلّ جانب، وهنا تجول الخيل بعد أن توقفت الغالبية إذ كان يتقي بعضهم ببعض ويحبّ هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء، وارتفعت الأصوات، وعلت الصيحات بالنداء ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم اقتلوه[3]. فاحتوشوه من كلّ جانب وهو يذبّ بسيفه يميناً وشمالاً.

---

(١) تاريخ ابن عساكر مخطوط ٦٦/١٢.
(٢) الأعيان، ج٤، ص١٣٢.
(٣) تاريخ ابن عساكر مخطوط ٦٦/١٢.

مصرع الحسين

وكانت خاتمة الحرب الطاحنة في أرض كربلاء ونهاية المأساة الدموية، بعد أن غدا يحارب وحيداً ويواجه جيش أميّة وقد فقد الأهل والأحبة ولم يعد له من ناصر يقف إلى جانبه في ساحة الحرب وتلك نهاية يعلمها عليه السلام ويقبل على الشهادة بنفس مطمئنة راضية وهو يكتب بدمه انتصار دين محمد صلى الله عليه وآله.

وكان الإمام الثائر سيد الشهداء يعاني من العطش ويصارع فرأى الأخوة والأبناء والأنصار وقد طرحوا قتلىٰ وقد أخذ الإعياء منه مأخذه فجراحاته تشخب دماً وكلاب أمية تحوم حول خيام عياله ولا تجرأ أن تجتاز إليها ما دامت يده على قائم سيفه.

حدث مسلم بن رياح مولى الحسين عليه السلام قال: كنت مع الحسين يوم قتل، فرمى في وجهه نشابة. فقال: يا مسلم أدن يديك من الدم، فأدنيتهما فلما امتلأتا، قال: اسكبه في يدي فنضح بهما إلى السماء وقال: اللهم أطلب بدم ابن بنت نبيك[1].

ويصفه المشاهدون للمعركة: أن جلده كالقنفذ من كثرة السهام والنبال،

---

(١) ابن عساكر التاريخ الكبير مخطوط.

والدرع بان عليه بنياناً من الدم، لكثرة جراحاته التي كانت تشخب دماً عبيطاً، وما رفع قدماً عن قدم إلاّ وامتلأ موضع قدمه دماً.

ووقف أمام أعدائه موقف بطولة وإقدام وقوة عزيمة، يجاهد في سبيل الله ويصول على قطعان البغي وعبيد الأمة الذين مني الإسلام بسلوكهم وتصرفاتهم بأضرار ونتائج وسعت شقة الانحراف وأحيت الفساد.

* * *

كان يقاتل فارساً فضعف فقاتل راجلاً قتال الأبطال، يتقي الرمية ويفترض العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول. أعلى قتلي تجتمعون؟ ثم خاض المعركة راجلاً.

ولما ضعف عن المشي أو الوقوف جثا على ركبتيه فتكاثروا عليه ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، ورمياً بالسهام، ورماه أبو الحتوف في جبهته، فسألت دماؤه على وجهه حتى أصبح لا يبصر أعداءه فرفع ثوبه فرماه حرملة بسهم، وتكاثروا عليه فطعنه أنس في ترقوته ثم انتزع رمحه. وطعنه في ديوان صدره فسقط صريعاً إلى الأرض وارتفعت الغبرة بعد أن اشتد الزحام، وعلا الضجيج وإذا برأس الحسين بيد قاتله.

ووقع أمر الله ولا رادّ لأمره وحلّت بالمسلمين كارثة كبرى ومصيبة عظمى فارتعدت الفرائص، واهتزت الأرض.

قتل الحسين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فعلَت الأصوات، بالتكبير، الله أكبر قتل الحسين، الله أكبر، وكأن الشمس قد كسفت، واغبر الأفق أو نزل بأهل الأرض بلاء عظيم، وارتفعت الأصوات المتقطعة من الدهشة والرعب: قتل الحسين، قتل الحسين عليه السلام[1].

* * *

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ج٢، ص٣٤٧ والطبري ج٦، ص٣٦٠.

سقط الحسين ويده على قائم سيفه وقتل والحرب دائرة والغبرة قد غطت مكان الحادث فلما انجلت وإذا بالحسين يتشحط بدم الشهادة. سقط الحسين عليه السلام وانتهى كلّ شيء. وهنا جالت الخيل جولة الظفر الموقت.

تجاوبت الدنيا لهذا الحادث، واهتزّ العالم لتلك الداهية وعلَتْ صرخة الاستنكار، فهزّت عروش الظالمين.

نعم تجاوبت الدنيا لهذه الصرخة، وإلى الأبد ستبقى صرخة الحق ويبقى صوت الحسين مدوياً: (ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، فليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً).

لقد نشر الحسين رسالته وأدى مهمته الملقاة على عاتقه وشجب أعمال الظالمين بدمه فسلام عليه يوم ولد ويوم قتل ويوم يبعث حياً.

بعد مصرع الحسين:

سقط الحسين وقد أظلمت الدنيا وارتجّت الأرض بأصوات التكبير.

ولا يستطيع القلم وصف ما حلّ بآل رسول الله من هول المصاب وعظيم الرزء ويعجز البيان عن ذلك.

فزعت الأطفال وذهلت النساء، وعلت الصيحة فإنا لله وإنا إليه راجعون إلى أين يذهب الهارب من الأطفال، وإلى أي جهة يتجه، وهل هناك من يؤوي أولئك الصغار المذعورين.

وقد حدث التاريخ عن مشاهد الموقف بما لم تشهد الأيام مثله، ولم يجر على ممر الزمن من الفوادح، كما جرى في ذلك الوقت، من قساوة ووحشية. فمن ذلك ما حدث به التاريخ، عن أحد مشاهدي المعركة قال:

لما صُرع الحسين عليه السلام خرج غلام مذعوراً يلتفت يميناً وشمالاً فسألت عنه فقيل هو محمد بن سعيد بن عقيل فشدّ عليه لقيط بن إياس فضربه وقتله[1].

وحدث هاني بن ثبت الحضرمي: قال: إني لواقف عاشر عشرة لما صرع الحسين عليه السلام إذ نظرت إلى غلام من آل الحسين عليه السلام عليه إزار وقميص وفي أذنيه درتان، وبيده عمود من تلك الأبنية، وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالاً، فأقبل رجل يركض حتى إذا دنا منه، مال عن فرسه وعلاه بالسيف فقطعه[2].

وكان هاني هو القاتل ولكن لما عيب عليه كنى عن نفسه[3].

وأضرمت النيران في المخيم، ونهبوا ثقل الحسين، وأفزعوا العيال وتشتت ذلك الشمل.

---

(١) العيون العبرى، ص١٨٤.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٨، ص١٨٦.
(٣) الطبري ج٦، ص٢٥٨.

وعند الغروب

وغربت شمس يوم العاشر، وقد سبق الخبر لابن زياد وهو في معسكره بالنخيلة، وجاء البشير بقتل الحسين عليه السلام فارتحل منها مسرعاً ليحكم أمر الكوفة، ويتخذ تدابير للمحافظة عليها، فأصدر أمره إلى حراس البلد، وكان عددهم عشرة آلاف فارس بمنع حمل السلاح على كلّ أحد، ونادى مناديه في الكوفة بذلك، وطلع القمر وأشرق على أرض كربلاء المصبوغة بالدماء. والمعسكر الكوفي يتهيأ للرحيل عند الصباح، والزعماء يستعدون لملاقاة ابن زياد ليتقدموا بولائهم له وبات مخيم الحسين عليه السلام صامتاً كصمت ساحة المعركة حوله، والكآبة قد أحاطت بجميع جوانبه، وهدأت تلك الأصوات التي كانت ترتفع بالمناجاة وخلت أمكنة صلاتهم، وتلك المخدرات تندب قتلاها بصمت ووقار، وتذري الحزن بحرارة وأنفاسها تتردد كالهمس وقلوبهن تخفق كجناح الطائر.

ووقفت زينب بنت علي عليه السلام موقف البطولة والثبات، فكانت ترعى العائلة، وتحرس المخيم وتتفقد الأطفال، وتجمع شملهم بعدما ذعروا من هول الخطب، بعد قتل الحسين عليه السلام وهجوم الخيل فقد وصفهم مشاهدو المعركة بأنهم ذعروا ولاذوا بالفرار.

وبعد أن أدّت واجبها في الرعاية، خرجت إلى المعركة لتصل إلى الجسد الطاهر والضحية الكبرى، وهي تخطو بوقار، وتتعثر بأذيال الأسى، وقد أرخى الليل سدوله.

ووصلت إليه وهي صامتة إلاّ عن ذكر الله، وشكره وقد سلّمت أمرها إليه تعالى وجعلت ما نزل بها، في جنبه وصبرت على بلائه.

وعدلت نحو مصارع القتلى فنظرت إليهم على ضوء القمر وقد بلغت الحالة لهول المنظر وعظم المصاب، الأمر الذي لا يقر معه الصبر، ويخون عنده الجلد، ولكنها كانت أقوى من الحوادث، وأصلب عوداً من أن تلين أمام الكوارث، فما استولى عليها حنان الأم، فتميل إلى جسد ولدها فتندبه أو تستولي عليها شفقة الرحم فتجلس عندهم تبكي مصارعهم وتندبهم، إنها احتسبت ذلك في جنب الله وتدرّعت بالصبر، ومرت في طريقها وهي تلتفُّ بأبراد المأساة، ثم توجهت إلى مصرع أخيها الحسين عليه السلام، فأكبت على جسمه الطاهر، وجلست عنده تنظر إليه بحسرة وتخاطبه بعبرة وحرارة.

أكبت على جسده الشريف وهي تحاول أن تجد موضعاً يسمح لها بتقبيله، لكثرة النبال وجمود الدم على جسده الطاهر. فلم تجد.

* * *

يا لها من وقفة مؤلمة، ومنظر محزن. جلست زينب وهي الثاكل المروعة ومدت يديها المرتعشتين من ألم الخطب، وشدة الوقع، وبسطتهما تحت جسده، ورفعت طرفها إلى السماء، ونظرتها نظرة خضوع مزيجة برجاء وقالت بحرقة وحرارة:

اللهم تقبل منا هذا القربان. ولم تطل المكث عنده لأن مسؤوليتها الكبرى تحتّم عليها سرعة الرجوع إلى العائلة التي ليس لها كفيل غيرها، ولم

تستطع البقاء عنده فودعت الجسد الطاهر، وعادت للمخيم الموحش، الذي ترتفع منه أصوات الأطفال وأنين الثواكل.

وقامت في جوف الليل، تؤدي وردها من صلاة الليل، ولكن خانتها قواها، فقد استولى الضعف على بدنها، فأدتها من جلوس ولم تنم لها عين فهي تحرس العيال وتتفقد الأطفال، وتقف إلى جنب المريض تمرضه، وتجلس مع الثاكلة تسليها وتصبرها.

* * *

وبات معسكر ابن سعد تغمره فرحة النصر الموقت، وهم يسمرون ابتهاجاً بانتهاء المعركة من جانبهم ولم يبق أمامهم إلاّ عرض الولاء لابن زياد، لنيل الصلة.

وها هم على ضوء المشاعل يحصون الرؤوس التي قطعوها، ويميزونها ليأخذ كلّ قاتل رأس من قتله، ووزعت على العشائر، وفي تلك الليلة اتجه موكب الرؤوس إلى الكوفة يسبق ركب السبايا، وقد اقتسمت القبائل تلك الرؤوس فيما بينها وهم يعدّون ذلك فخراً.

اليوم الحادي عشر

ذهب ليله بما فيه من حوادث وآلام، وطلع فجره وهو يحمل لآل محمد مآسي لا تقل فظاعة عما ذهب من قبل.

طلع فجر ذلك اليوم، والجيش الأموي يغط في سبات عميق فقد أنهكه التعب، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ومضى الحسين مجاهداً، ومات عزيز النفس لم تلن قناته، ولم يترك لأعدائه إلاّ الحسرة والندامة. وكان النصر حليفه.

وأفاق آل الرسول صبيحة ذلك اليوم وفتحوا عيونهم على أخبية استعرت فيها النيران فخلّفتها رماداً وقد سُلب جميع ما فيها من متاع.

ولم تمضِ برهة من الوقت حتى عاد أولئك الأشرار إلى نشاطهم في الهجوم على مخيم الحسين، لإدخال الرعب، ونهب ما بقي في المخيم، من أثاث، وجالوا قرب المخيم وأحاطوا بعلي بن الحسين وهو على فراش المرض، فنادى الشمر اقتلوه، ولا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية وهمّ بقتله فاعترضه آخرون، واختلفوا فيما بينهم وجاء عمر بن سعد فمنعهم من قتله(١).

---

(١) أبو الموفق الخوارزمي المكي، ج٢، ص٣٨.

وعاد ابن سعد لمقر قيادته لتنفيذ أوامره وليعدّ العدّة للرحيل وكان ابن زياد قد أصدر أمره إليه من قبل: إن قتلت حسيناً فأوطىء الخيل صدره وظهره. وهذه مهمة يقوم بها ابن سعد ويصعب تنفيذها وعرض الأمر على جماعة فامتنعوا وبعد ذلك استجاب له عشرة هم:

١ ـ أسيد بن مالك.

٢ ـ هاني بن نبت الحضرمي.

٣ ـ واضح بن ناعم الحضرمي.

٤ ـ صالح بن وهب الجعفي.

٥ ـ رجاء بن منقذ العبدي.

٦ ـ سالم بن خيثمة الجعفي.

٧ ـ عمر بن صبيح الصيداوي.

٨ ـ حكيم بن الطفيل السنبسي.

٩ ـ الأخنس بن قيس بن مرثد.

١٠ ـ إسحاق بن حوبه.

قال أبو عمر الزاهد: سبرنا أحوال هؤلاء العشرة، فوجدناهم كلهم أولاد زنا وجرت خيولهم وتقدموا بكل جرأة وصلافة، فداسوا صدر الحسين عليه السلام وظهره[١].

---

(١) الطبري، ج٦، ص٣٦١.

من كربلاء إلى الكوفة

وفي أصيل اليوم الحادي عشر تأهب الجيش للارتحال من كربلاء إلى الكوفة، وأصدر ابن سعد أوامره بالارتحال، واستعد ثقل الحسين إلى الرحيل من أرض المحنة، ومحل الكربة، وهو ثقل يقف القلم عن وصفه أو إعطاء صورة عن كيفية ارتحاله. فقد تحرك ذلك الركب الحزين، وقد امتزج حداء الحداة وأهازيج الرجال بصراخ الأطفال وعويل النساء، وأنين الجرحى، فكان يوماً مشهوداً وموقفاً مؤثراً، تجسدت فيه المصائب، وبرزت فيه صور الآلام إذ كان الركب مثقل بالآلام وفجائع المصاب وهو يضمُّ نساء ثواكل وصبية صغاراً قد رُبطت بالحبال، ورجالاً جرحى كالحسن المثنى، وعقبة بن سمعان، وكان الإمام زين العابدين مريضاً لا يستطيع الركوب فقيدوه من تحت بطن الناقة.

هاجت العواطف وارتفعت أصوات الاستغاثة، من الأطفال بآبائهم ومن النساء بأزواجهن عندما شاهدوا أجسامهم في العراء من دون مواراة، وقد كستها الدماء حللاً.

وأصبح المكان عند الرحيل وفي ساعة الوداع كأنه: مأتم حزنٍ.

وقد وقفت بنت علي زينب الكبرى تهدّىء الروعة وتخفف آلام العائلة

وتحنو على الأطفال بكلّ مرارة وتمسح دموع اليتامى، وتجفف العرق عن تلك الوجوه التي أثرت حرارة الشمس فيها فشفاههم ذابلة. وهم خمص البطون لم يتناولوا شيئاً من الطعام.

* * *

وسار ركب الحسين الحزين تاركاً وراءه أجساداً عارية، قد ضرجتها الدماء الطاهرة وهشمتها حوافر الخيول، أجساداً لم تجر لهم مراسيم التشييع ولا واجبات الدفن، تصهرهم الشمس وتكسوهم الرمال فمدت زينب بصرها وقالت بعبرة وإنكسار استودعك الله السميع العليم يا بن والدي.

فبينما هي في محنتها هذه نظرت إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وهو بتلك الحالة من شدة المرض ينظر بعينه إلى تلك الأجساد الموزعة، والمناظر المحزنة فدنت منه وقالت:

مالي أراك تجود بنفسك يابن أخي فوالله إن هذا لعهد من الله، ولقد أخذ ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماء، إنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطفّ علماً، لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يمحي رسمه على كرور الليالي والأيام. وليجتهدنّ أئمة الكفر، وأشياع الضلال في محوه فلا يزداد أثره إلّا علواً[١].

ونتخطى هنا مناظر محزنة ونطوي صحائف حوادث مفجعة، ونلتحق بالركب في اتجاه الكوفة؛ تحت القوة والسيطرة الغاشمة، بين أهازيج الجند، وصرخة الأطفال، وبكاء النساء وأنين الحرجى.

---

(١) كامل الزيارات ص٢٦١.

اتجه الركب نحو الكوفة، عاصمة الإمام علي ومصد ر أحكامه، ومنطلق نهج بلاغته.

* * *

أفاقت الكوفة في صبيحة الحادي عشر من المحرم على أصوات الجنود، ونداء الأمير بمنع حمل السلاح، ومنع التجمع في الأندية والطرقات، ومُلئت الشوارع بالجند المسلحين.

كلّ هذه الإجراءات استعداداً لوصول الرؤوس، وركب سبايا أهل البيت، وبقيت الكوفة في موجة إرهاب، وحزن، عندما انتشر خبر قتل الحسين وأصبح الناس يتهامسون، قتل الحسين. قتل الحسين. وماذا يكون بعد ذلك؟

ودخلت الكوفة في اليوم الثاني عشر مجموعة من الجند المدججين بالسلاح يقدمهم قاتل الحسين، وهو يحمل الرأس ويرتجز مفتخراً.

إملأ ركابي فضةً أم ذهبا　　إني قتلت السيّدَ المحجّبا

قتلتُ خيرَ الناس أُماً وأبا

وتأتي من بعده مجموعة من الجند تتألف من عشرة فرسان يقدمهم إسحاق بن حوبه، وهم يرفعون شعارهم، ليعرفهم الناس ويقدر الأمير موقفهم، وإخلاصهم لأمية. واخترقوا الشوارع يرددون أهازيجهم:

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر　　بكل يعبوب شديد الأثر

وهؤلاء هم الذين داسوا ظهر الحسين وصدره كما أمر ابن زياد قائده عمر بن سعد بذلك.

ثم قدمت الرؤوس على أطراف الرماح تحملها القبائل كلّ قبيلة تحمل

رأس بطل من أبطال الطفّ، وفزع الناس لعظيم الخطب، وهول المنظر. يا لها من حادثة مروعة تحلّ بأرض البطولات وجمجمة العرب «الكوفة».

ولنقف هنا ملياً ننظر لقبائل الكوفة وهي تعود من أرض المعركة في كربلاء حيث قابلت آل محمد بكل صلافة، وتحدث أبسط قواعد المروءة، وصفات الإنسانية.

تعود القبائل بشكل منظم يسيرون في الشوارع وهم يحملون حصيلة أتعابهم، ويعودون بسلبهم الذي سلبهم العزة وألبسهم العار.

هذه كندة يتقدمهم قيس بن الأشعث وهم يحملون ثلاثة عشر رأساً من رؤوس فتيان بني هاشم وسلالة النبوة. وهذه هوازن تتقدم باثني عشر رأساً من رؤوس شهداء المعركة يتقدمهم شمر بن ذي الجوشن.

وتقدم تميم بسبعة عشر رأساً وتتبعها بنو أسد بستة عشر رأساً، وتقدم مذحج بسبعة، ثم تقدم بقية القبائل بما تبقى من رؤوس تلك الصفوة[1].

* * *

الرجال في ذهول والنساء في صراخ وعويل، وازدحمت السكك بالجند، كأنهم ينتظرون أمراً، ويتوقّعون حدوث حادث عظيم. هذا وابن زياد قد جمع العرفاء ورؤساء الأرباع، وذوي النفوذ من أهل الكوفة، وملأ الطرق بحرس الدولة، وبقية الجنود الحمر، ومن حثالة العرب.

ومر موكب الرؤوس بين صيحات النساء، وأهازيج الجند، فكان يوماً مشهوداً، وازداد التجمع في الشوارع المؤدية لقصر الإمارة؛ إنهم ينتظرون ركب الأسارى من عيال الحسين المقبل والذي أناخ قريباً من الكوفة حتى

---

(١) حديث كربلاء للمقرم ص٣٦٢ نقلاً عن عمدة القاري في شرح البخاري، العيني ج٧، ص٦٥٦ والطبري ج٦، ص٢٦٩.

يتم تجمع الناس، إظهاراً لإرهابهم وضرباً لحفيظة العرب ونخوتهم، وضياعاً لحقوق الرسول وهتكاً لحرمة الإسلام.

وبعد انتظار طويل ظهرت معالم وصول الركب، وقد ضاقت الشوارع بالجموع، فهرع الناس لاستقباله، وكان الركب محاطاً بجند أقوياء، وجيش يمنع امتزاج الناس بالركب، ولكن الكثرة الساحقة والعواطف الملتهبة اخترقت ذلك الحصار واستهانت بقوة الجند، واستقبلت الركب بصراخ وعويل، وندب لشهداء الطف.

فقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «أتنوحون وتبكون فمن ذا الذي قتلنا؟!» وقد بعثت هذه الكلمة روح الحماس، وضاعفت الموقف حزناً.

وتتقد جذوة الحق، ويرتفع صوت الفضيلة المنتصرة فتظهر زينب ابنة علي في ميدان الجهاد، بثبات قلب ورباطة جأش، فتعلن هنا أهداف ثورة الحسين، وترجع الناس ببليغ بيانها إلى أيام الإمام علي، لأنها ببلاغتها كأنما تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين كما وصفها شاهد الموقف[١].

* * *

إنها لم تقف موقف المرأة التي استولى عليها التأثر أو الحزن العميق فيملك مشاعرها فتكون أسيرة حزن، وحليفة ذهول، ورهينة فجيعة، لعظم المصاب وفداحة الرزء الذي أصابها.

وإذا كان موقف زينب موقف جزع فمن يكفل لهذه العائلة سلامتها؟ ومن يرعى أطفالاً صغاراً لا كافل لهم سواها؟ إنها ابنة علي قد تخطت عهود التفجع واجتازت عقبة الأحزان التي تقعد بها عن أداء واجبها، فلم يجد الضعف إلى عزيمتها سبيلاً، مثلت دور البطولة في جهادها، وثبتت أمام

---

(١) الجاحظ. البيان والتبيين.

المكاره ثبوت الجبل أمام العواصف، وتحمّلت المصائب والنكبات طلباً لمرضاة الله تعالى وجهاداً في سبيله وإعلاء لكلمته. . ولقد خاطبت ذلك الجمع الذي استقبلها بالبكاء والعويل فقالت تؤنبهم:

«أتبكون وتنتحبون، أي والله فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً. فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنّى ترحضون، قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، ومدار حجتكم، ومنار محجتكم، وملاذ حبرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون.

فتعساً ونكساً وبُعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله وضربت عليكم الذلة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم، لقد جئتم شيئاً إدّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.

ولقد أتيتم بها خرقاً شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا يحفز بالبدار. ولا يخاف فوت الثار إن ربكم لبالمرصاد.

* * *

وكان المشهد عظيماً وسبقت أخباره لابن زياد، وقد اجتمع الناس في مجلسه وتوافدوا لتهنئته، ولعظيم الوقع وفداحة المصاب، فأصبحت السيطرة لنساء الكوفة، اللواتي ملأن الفضاء بالصياح والعويل وخرقن ذلك الحصار وأحطن بالركب وأصبح المجال واسعاً أمام أهل البيت لإلقاء الحجج وتوعية الناس، ولكن جنود الدولة بادروا بكل ما لديهم من قوة لتفرقة الناس والإسراع بالركب فالأمير بانتظاره.

في مجلس ابن زياد

كان مجلس مكتظاً بوجوه الناس وكبار أنصار الأمويين ووفود القبائل ورؤساء ألأرباع، وتقدم قواد جيش معركة الطفّ بولائهم، وتقربوا إليه بالحديث عن أحداث المعركة، وما أظهروه من بطولة ادعائية، واخترعوا مواقف بطولية.

وكان ابن زياد قد جمع الناس ليظهر عظمة موقفه، وقد وضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه، ولعظيم سروره جعل ينكث ثنايا الحسين بمخصرته، ويقول: لقد كان جميلاً.

وكان المجلس يضم بعض الصحابة والتابعين. منهم أنس بن مالك وهو أحد رواة هذه الحادثة إذ يقول:

لما أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين، جعل ينكث ثناياه ويقول: لقد كان جميلاً.

فقلت والله لأسوئنك إني رأيت رسول الله يلثم حيث تنكث[1]

ولما رأى زيد بن أرقم ذلك فقام وسط المجلس ورفع

---

(١) ابن كثير ص١٩٠ ج٨ وابن عساكر ج١٢، ص٢٤.

صوته ويبكي: ارفع عن هاتين الشفتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هذين الشفتين يقبلهما ثم بكى فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك والله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك.

وخرج زيد وهو يقول: «يا معشر العرب أنتم العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابنَ مرجانة فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لكم»

وبينما الناس في ذهول لذلك المنظر المؤلم إذ سمعوا جلبة حراس ركب الأسارى، الذي سيقابل ابن زياد، ودخل مع ذلك الموكب الأمام زين العابدين مثقلاً بالحديد وهو ينقل الخطى بصعوبة من شدة المرض وثقل قيوده، ينظر إلى السماء ولسانه يلهج بذكر الله.

* * *

ارتاع الناس لهذا المنظر وانحازوا جانباً حيث أجلس السبي قريباً من منصة ابن زياد، وجلس الإمام علي بن الحسين مجهداً يجر أنفاسه.

أما زينب فقد تنكرت، وجلست بمعزل وحفّ بها إماؤها[1] فنظر ابن زياد إليها نظرة تكبر وتجبر وقال:

من هذه الجالسة؟ فلم تجبه احتقاراً له، واستهانة به، فأعاد السؤال ثانياً فلم تجبه. وفي الثالثة قالت له إحدى إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة[2].

وهنا يجري في عروقه الدم الجاهلي ويأخذه الطيش والغرور فيقول مخاطباً لها:

---

(١) الطبري ج٦، ص٢٦٢.

(٢) ابن الأثير، ج٤، ص٤٣.

الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم، فقالت زينب: الحمد لله الذي اكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا[1].

وغاظه هذا الموقف، إذ نظرت إليه زينب نظرة احتقار وسخرية، فتصاغرت نفسه، ولكنه أراد أن يرفع من كيانه بمقابلة جريئة فقال:

كيف رأيتِ صُنعَ الله بأخيك وأهل بيتك؟

فقالت: ما رأيت إلّا جميلاً. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن يكون الفلج يومئذ هبلتك (ثكلتك) أمك يا ابن مرجانة[2].

وكانت تجيبه بشجاعة واتزان، ثم ترفّعت عن مقابلته، احتقاراً له واستهانة به.. وأراد هنا أن يظهر بمظهر المنتصر وصاحب السلطان المقتدر، فراح يتأمل وجوه الأسرى حتى استقرّت عيناه إلى الإمام علي ابن الحسين الذي استغرب سلامته من سيوف جنده لأنه أوعز إليهم بالإبادة، فسأله: ما اسمك؟

فأجابه: أنا علي بن الحسين.

وعجب ابن زياد وأعاد السؤال وقال:

أوَلم يقتل الله علي بن الحسين؟

أعرض الإمام عنه محتقراً له، مترفعاً عن رده، فأعاد ابن زياد قوله فقال: مالكَ لا تتكلم؟

فقال الإمام: الله يتوفى الأنفس حين موتها.

---

(١) الطبري ج٦، ص٦٢.
(٢) الكامل، ج٤، ص٤٢.

فاستشاط ابن زياد غيظاً ودارت الأرض فيه عندما سمع الإجابة فقال وهو مرتبك لشدة غيظه: ألك جرأة على جوابي؟ إذهبوا به فاضربوا عنقه[1].

لقد حاول ابن زياد أن ينفذ إرادته في إبادة أهل البيت ولكن الله حال بينه وبين ما أراد، فسلم الإمام زين العابدين من تهديده ووعيده؛ وبقي علماً للأمة، ومناراً للدين.

* * *

توقع ابن زياد أن يشفي غليله في هذا المجلس، ولكن كلمة الحق وقوة الإيمان خيبت أمله، وخشي سوء العاقبة فأراد أن يصبَّ جام غضبه أمام الناس، فأمر مناديه بالصلاة جامعة، فاجتمع الناس من كلّ مكان، وازدحموا في المسجد الجامع، وصعد ابن زياد وهو مملوءٌ غيظاً من قرنه إلى قدمه، فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل...[2].

وماج المجلس عند سماع هذه الكلمات التي تدل على منتهى الجرأة والتحدي للقيم والموازين العربية، فجعل ينظر بعضهم بعضاً ويكتمون أنفاسهم، وطأطأوا رؤوسهم. فمن يا ترى يستطيع أن ينكر على ابن زياد، ومن يتعرض له في مثل هذه الساعة.

إن الأمر يحتاج إلى تضحية وإقدام وقوة عربية، وذلك مربوط بالقيادة، وأين القادة؟ وأبطال العرب وفرسان المصر كلهم في السجون والمعتقلات، والحضور منهم أفراد لا يقدرون على شيء، والزعماء الذين حضروا هذا المؤتمر هم قوم باعوا ضمائرهم، وتجردوا عن دينهم، وتنكروا لعروبتهم. فمن يا ترى يقوم بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم.

استمر ابن زياد في هجماته، وهو نشوان بخمرة الظفر، وقد هيمن بأسلوبه على ذلك الجمع الغفير.

---

(١) أعلام الورى، ص٢٥٢.

(٢) الطبري ج٦، ص٢٦٣.

رجل الساعة

ماج المجلس موجةَ حذرٍ ورعبٍ فقد قام رجل الساعة البطل الجريء عبد الله بن عفيف الأزدي، وأطلقها صرخة حقّ مدوية، وقال: كلمة صدق صريحة ونادى بأعلى صوته المنبعث عن قوة إيمان واعتقاد صحيح، ورفع يده لجهة ابن زياد:

ابن مرجانة، إنما الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، يا ابن مرجانة؟ أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصدّيقين[(١)]؟

ويدهش ابن زياد لهذه اللطمة الشديدة والمفاجئة الغريبة. إنها لجرأة وإقدام وبسالة، فوق حدّ التصور.

* * *

شخصت الأبصار نحو الرجل المتكلم وتطاولت الأعناق لهذا البطل الذي صدع بكلمة الحق، وأزال حُجُب التمويه والخداع الذي استعمله ابن زياد. إن هذا الموقف أعظم على ابن زياد من كلّ المواقف، فقد أُزيل الستار وظهرت للناس حقيقته. فمن هو هذا؟.

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٦٣.

ومن يكن وإلى أي عشيرة ينتمي وإذا به عبد الله بن عفيف الأزدي، وهو من الشيعة ذهبت عينه يوم الجمل وكان من أصحاب علي عليه السلام فلما كان يوم صفين خرج لحرب معاوية فضرب على رأسه ضربة وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى وهو لا يفارق المسجد الأعظم يصلي إلى الليل ثم ينصرف[1].

لقد كانت مقالة ابن عفيف شرارة حرب وعلامة ثورة فصاح ابن زياد: من هذا المتكلم!!

فقال: أنا المتكلم يا عدو الله. أتقتل الذرّية الطاهرة، التي أذهب الله عنهم الرجس كما جاء في كتابه، وتزعم أنك على دين الإسلام، واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من هذا الطاغية، اللعين ابن اللعين على لسان رسول رب العالمين[2]

فاستشاط ابن زياد غيظاً وقال: عليّ به، فتبادر الجلاوزة إليه فنادى بشعار الأزد، وكان شعارهم يا«مبرور» قال عبد الرحمن ابن مخنف الأزدي: ويح نفسك أهلكتها وأهلكت قومك، وكان حاضر الكوفة يومئذ من الأزد سبعمائة مقاتل فوثبت إليه فتية، منهم فانتزعوه بالقوة، وانطلقوا به إلى منزله.

ووقع ابن زياد في خطر لأن هذه البادرة تنذر باندلاع حرب واتساع شقة الخلاف، فنزل مغضباً ودخل القصر، واجتمع بأهل مشورته، ومجلس دفاعه، وتسابق الأشراف والعرفاء إليه فقال:

أرأيتم ما صنع هؤلاء؟ أي الأزد.

---

(١) الطبري، ج٦، ص٢٦٤.

(٢) الفتوح، ج٥، ٢٣٠.

فقالوا: أصلح الله الأمير! شُدَّ يدك بساداتهم فهم الذين استنقذوه من يدك.

فأرسل عبيد الله بن زياد إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، وإلى جماعة من أشراف الأزد فحبسهم وقال:

لا خرجتم من يدي أو تأتوني بعبد الله بن عفيف[1].

لقد أصبح حديث عبد الله الأزدي مع ابن زياد تردده أندية الكوفة ويتحدث به جميع أهلها.

* * *

وأول عمل بدأ به أن أرسل وفداً مؤلفاً من جماعة، كعمرو بن الحجاج الزبيدي، ومحمد بن الأشعث، وشبث بن ربعي، وآخرين، ليأتوه بعبد الله الأزدي، ويخذلون الأزد عن حمايته، ويعدوهم بسلامته، وأنه لا شيء عليه. وحين علم الأزد بقدوم الوفد اجتمعوا وانضمت إليهم قبائل من اليمن، ليمنعوا صاحبهم. ورجع الوفد خائباً.

وهنا يقف ابن زياد على حافة هوة خطر عظيم، فلجأ إلى استعمال المادة التي اتخذها الأمويون سلاح دفاع في جميع حروبهم، وهي: فَرِّق تَسُدْ؛ والآن هو بحاجة لهذه الخطة؛ فأثار الروح القبلية بين المضريين والأزد، لما بينهم من خلافات، ومنها كما يقال أن الأزد هم الذين تولوا قتل مسلم بن عقيل، واشترك منهم العدد الكبير في حرب الحسين، وبهذا وجد ابن زياد طريقاً لزجّ المضريين في حرب الأزد.

وثارت الحرب بين القبيلتين، واقتتلوا قتالاً شديداً، وبلغ ذلك ابن زياد

---

(١) الخوارزمي ج٢، ص٥٣.

فأرسل إلى قواده يؤنبهم، فأرسل إليه عمرو بن الحجاج يخبره باجتماع الأزد من اليمانيين.

وبعث إليه شبث بن ربعي يقول له: أيها الأمير إنك بعثتنا إلى أسود الآجام فلا تعجل.

واشتد القتال بين الأزد وبين المضريين حتى قتل جماعة من العرب، فتفرق الأزد لما تكاثر جيش ابن زياد، وبقي ابن عفيف وحده، فاقتحم الجيش داره وطوّقها.

وصاحت ابنته: يا أبتي أتاك القوم.

فقال: لا عليك. ناوليني سيفي. فناولته السيف، فجعل يذبُّ عن نفس وهو يقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر   عفيف شيخي وأنا ابن عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر[1].

وكانت بنته تشجعه وتقول: ليتني كنت رجلاً فأقاتل بين يديك. وضايقه القوم، وكان يشد عليهم ويذب عن نفسه ويقول:

والله لو يكشف لي عن بصري   ضاق عليكم موردي ومصدري

ووقفت ابنته تسانده وتقول: جاءك القوم من جهة اليمين، جاءك القوم من جهة الشمال. وما زال يقاتل حتى تكاثروا فاستولوا عليه، وأسروه، وحاول بعض أفراد عشيرته تخليصه فما استطاعوا ذلك.

وسيق عبد الله الأزدي إلى ابن زياد، فلما أدخل عليه قال ابن زياد:

الحمد لله الذي أخزاك.

---

(١) الفتوح، ٥/ ٢٣٢.

فقال ابن عفيف: يا عدو الله بماذا أخزاني؟

قال ابن زياد: ما تقول في عثمان؟

فقال: يا ابن مرجانة ما أنت وعثمان أحسن أم أساء، أصلح أم أفسد والله خلقه ويقضي بينهم بالعدل والحق، ولكن سلني عنك وعن أبيك وعن يزيد وأبيه.

فقال ابن زياد: لا أسألنك عن شيء أو تذوق الموت.

قال ابن عفيف: الحمد لله رب العالمين كنت أسأل الله أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمك مرجانة، وسألته أن يجعل الشهادة على يد ألعن خلق الله وأشرّهم وأبغضهم إليه، ولما ذهب بصري آيست من الشهادة، أما الآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرفني الاستجابة من قديم الزمان.

فقال عبيد الله. اضربوا عنقه[1]. ثم صلبه في السبخة.

وهكذا تكون نهاية هذا البطل الذي أعلن انتصاره للحق، وقال كلمته. فهو أول من أطلق شرارة الثورة على الأمويين، وأزال غشاوة الدعاية الكاذبة.

أحس ابن زياد بخيبة أمل وعدم النجاح العسكري. وبدأ الضعف يدبّ في سلطانه، بسبب الاستنكار العام، فقد تلاقت الناس بالاستنكار والندم، وأحسوا بالإثم الكبير لتركهم نصرة الحسين، وبالأخص أولئك الذين كاتبوه، وتقاعدوا عنه، وكانوا يأملون أن يستمر الأمر مدة من الزمن يدركون فيه الحصول على ما طلبوا من مراسلة الحسين، والكل لا يدري أن الأمر سينتهي بهذه السرعة ويقتل الحسين ويحدث ما يحدث.

---

(١) الخوارزمي ج٢، ص٥٤ ـ ٥٥.

فحصل هناك تمرد على السلطة، ثم كانت مقابلات تحولت بعد مدة إلى ثورات مسلحة، وشعارها (يا لثارات الحسين)[1].

وأياً كانت الأحوال فإن ابن زياد سارع بإرسال أهل البيت إلى الشام بعد أن سجنهم في دار بعيدة عن أي اتصال بأي أحد.

وأراد أن يسلب استقرار تلك العوائل وهم في السجن إذ كتب إليهم كتاباً يقول فيه:

أوصوا واعهدوا فاني انتظر البريد يوم كذا وكذا وراجع يوم كذا وكذا فإذا سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل، وإن لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله[2].

وجرت في الكوفة حوادث وأمور بعد قتل الحسين، وبقاء أهل البيت في الكوفة لا يسع المجال ذكرها هنا.

---

(١) سيأتي إن شاء الله بيان ذلك في الحلقة الثانية من هذا الكتاب.

(٢) الطبري، ج٦، ص٢٦٦.

مع الركب الى الشام

اختلفت الأقوال في تحديد اليوم الذي انفصل فيه ركب آل محمد من الكوفة إلى الشام، كما اقتضت سياسة الدولة بأمر يزيد. كما اختلفت الأقوال في يوم ورودهم إلى الكوفة. فلا نعلم بالضبط مدة بقائهم في سجن ابن زياد بالكوفة.

وقد ذهب البعض إلى القول بأنهم لم يمكثوا أكثر من أسبوع لأن ابن زياد أحس بالفشل في سياسته، وجابه مصادمات عنيفة، كما اشتدت عليه مطالبة القواد في جوائزهم التي وعدهم بها عند قتلهم للحسين.

وهي أموال طائلة تعجز خزينة الكوفة عن تسديدها، فقرر أن يرسل أولئك القوم إلى يزيد، ويقدمهم قاتل الحسين الذي ارتجز أمام ابن زياد بقوله:

إملأ ركابي فضةً أم ذهبا   إني قتلت السيّد المحجّبا

قتلتُ خيرَ الناس أماً وأبا

كما أنه وعد الآخرين إلى حين ورود الأموال من خزينة الشام.

وعلى أي حال فالركب لم يطل مكثه في الكوفة، لأنها أصبحت غير

مستقرة فالنساء العربيات أقمن النياحة على الحسين وأنكرن على أزواجهن أفعالهم.

كما تقابلها النياحات على من فقد من جيش الكوفة وهم كثرة.

وسار ركب آل محمد وليس فيه من نساء الأنصار الذين جاهدوا مع الحسين إذ تشفع كلّ بعيال من يتصل به. وبقيت عيال الرسول ﷺ وهم يقطعون الفيافي والقفار متجهين إلى الشام.

ومن الأمور المؤلمة أن الدعاية الأموية اتخذت خطة التمويه على الناس، فاشاعوا هناك: أن جماعة من الخوارج خرجوا على الأمير فقطعوا الطريق وقد انتصر عليهم الأمير يزيد، فأبادهم وسبى عيالهم، وسيقدمون الشام.

فخرجت الجموع من نساء وأطفال، وقد وصل الركب الحزين وأوقفوه عند باب الساعات، وأقيم في محل أو خربة مدة من الوقت حتى يتمَّ استعداد البلد لإظهار معالم الفرح وإقامة الزينة.

وازدحم الناس في الطريق، وهم لا يعرفون عنهم شيئاً إلّا أنهم خوارج، لذلك قابلوهم بهذه الكلمة إذ أثرت الدعاية السياسية.

وأوضح موقف لذلك هو محاورة الرجل الشامي مع الإمام زين العابدين عليه السلام عندما دنا الشيخ الشامي فأسمع الإمام كلاماً يدل على جهله.

فقال له الإمام زين العابدين بلطف: يا شيخ هل قرأت القرآن؟

فقال: ما أنت والقرآن؟!!

فقال الإمام: أسألك هل قرأت هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فمن هم؟

قال: هم آل محمد.

فقال الإمام عليه السلام: نحن والله هم.

وهنا يقف الشيخ موقف الحيرة، ويحدّ النظر في وجه الإمام ويقول: بالله عليك أنتم هم؟

قال الإمام: والله نحن هم.

فأخذ الشيخ بالاعتذار من الإمام وأظهر الندم.

في مجلس يزيد

توجه الركب نحو مجلس يزيد، ذلك المجلس الذي ازدان بالأعلام الملونة، واحتشد بالوفود المهنئة بالظفر، وقد جلس يزيد والفرح ملأ إهابه، لأنه منتصر كما يزعم، وقد انتهى كلّ شيء في طريق خلود السلطة وبقائها لآل أبي سفيان، كما يتصور.

ودخل ركب آل محمد وقد سبقته الرؤوس، ووضع رأس الحسين بين يديه، وأقيمت العائلة على درج الجامع حيث يقام السبي، وجعل يزيد ينظر إليهم، وقد أخذته نشوة الفرح بأخذ الثأر، فأنشأ يقول:

صبرنا وكان الصبر منه عزيمة   وأسيافنا يقطعن هاماً ومعصما
نفلق هاماً من رجال أعزة   علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[1]

واستمر يزيد في كبريائه إذ تصور خطأ بأنه حقق الهدف، ووقف على قمة النصر، النهائي، ولم يبق أمامه أي شيء.

كان المجلس تغمره موجة من التفكير، والموقف يتصف بالغموض والأمر يحتاج إلى كشف الواقع وإظهار ما خفي على الناس، وليس إلّا زينب والإمام زين العابدين.

---

(١) مرآة الجنان، ج١، ص١٣٥.

وكانت زينب تتوخى الظرف المناسب، لكسب النصر في خوض المعركة في هذه المرحلة وهي إيضاح أهداف الثورة التي قام بها أخوها الإمام الحسين.

وهنا يتقدم رجل شامي يطلب من يزيد شيئاً وهو يظن أنه هين، ومطلب سهل؛ لأن يزيد سلطان، وهؤلاء أسارى يحكم فيهم كيفما يشاء فقال:

يا أمير هَبْ لي هذه الجارية تخدمني في بيتي، وأشار إلى إحدى البنات الصغار؛ ولا أستبعد أن يكون هذا الرجل ممن عرف حقيقة الأمر الذي خفي على أكثر الناس وهو بهذا الطلب يجعل يزيد في موقف حرج ومأزق ضيق وهو يحاول أن يكون طلبه مفتاحاً للكلام وكشف ما خفي على الناس أمره.

واتجه الناس بكل مشاعرهم نحو الشامي وهم في انتظار جواب الخليفة المنتصر والأمير الظافر. وبينما الناس في صمت وكلهم آذان صاغية لاستماع جواب الخليفة، وإذا بكلمة الحق تدوي في ذلك المجلس، وصوت الإسلام يقرع أسماع الحاضرين:

«كذبت والله ولعنت ما ذلك لك ولا له».

وهنا تغمر المجلس موجة من الاستغراب والتعجب، من هذه البطولة والإقدام ويتجهون بأبصارهم إلى مقام السبايا، وإذا بها زينب الكبرى، بطلة كربلاء، إنها تقف موقف الاعتزاز والكرامة، رغم كلّ ما قابلها به يزيد وأعوانه من ظلم.

ويغضب يزيد من هذه المفاجأة الغريبة وهذه المجابهة التي حطت من مقامه، واستهانت بعظمته فلا بدّ أن يسترجع ما خسره في هذه اللحظات من كرامته فأجاب بقوله:

«كذبت والله، إن ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت».

وكان يظن أنه انتصر وضرب سلطانه على الموقف، وإذا به يجابه بالرد الذي جعله في حيرة وارتباك، إذ جابهته العقيلة بقولها:

«لا والله ما جعل الله ذلك لك إلّا أن تخرج عن ملتنا، وتدين بغير ديننا» ويستولي الذهول على يزيد ويموج المجلس فقد بدت في الأفق أنوار الرسالة، وظهرت معالم النبوة.

وحاول يزيد بكل جهده السيطرة على الموقف، فتظاهر بالثبات والقوة وقال:

إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك.

فأجابته العقيلة بما ضاعف المشكلة وقالت:

بدين الله ودين أبي اهتديت أنت وأبوك، إن كنت مسلماً.

فماج المجلس من هذه المقابلة التي أزالت غشاوة التمويه، ورفعت حجاب الدجل.

وفي هذه اللحظات دارت محاورات وأسئلة، وقام يحيى بن الحكم وهو يقول لمروان:

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد وتهتزّ بشراً والسبايا عقائل

وفي هذا المجال ألقى الإمام زين العابدين خطبته البليغة، فعرّف نفسه للحاضرين، وذكر فيها ما لا يحب يزيد أن يسمعه، فأراد يزيد أن يغير اتجاه المجلس، فأظهر تجبره وأعاد إلى الأذهان عصر التطاحن بين الجاهلية والإسلام، فأنشد أبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وراح يردد الأبيات، ليثير العصبية الجاهلية، والأحقاد القبلية. وكان لا بدّ من رده وإلزامه عند حده، فقامت زينب ابنة علي فألقت ذلك الخطاب البليغ الذي عبرت فيه عن أعظم موقف بطولي، أمام حاكم متسلط، وسلطان جائر، وهي تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين عليه السلام فقرعت الأسماع، وأزالت حُجُب التمويه، وفضحت تلك الدعايات المغرضة، وقلبت صفحة التاريخ، فارتبك يزيد، واختلّ حبل استقامته، فأخرس الحقّ منطقه، فقالت:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين. صدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾... أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هوانا، وبك علينا كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا، وسلطاننا، فمهلا مهلاً، أنسيت قول الله تعالى، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أمن العدل يابن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف ليس معهن من حماتهن حمي، ولا من رجالهم ولي، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يستبطأ في بغضنا ـ أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

إلى آخر خطبتها إذ تقول: ولأن جرت عليَّ الدواهي مخاطبتك، فإني أستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك لكن العيون عبرى، والقلوب حرى...

ثم قالت: فكذْ كيدك، واسعَ سعيك، وناصبْ جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا... الخ.

وهكذا ينتصر الحق على الباطل وتظهر أهداف الثورة، ويتضح للناس أسرار حمل النساء في هذه المعركة، التي خاضها الحسين وخطط منهجها، وحدد أبعادها، ودرس الأثار التي تخلفها عندما تكمل أدوار تنفيذها. أن ابنة علي كانت تحمل عبء رسالة الحسين ومتابعة أهدافه.

إنها تقف موقفاً يمثل البطولة الهاشمية، والتضحية الإسلامية والاستهانة بالموت في سبيل العقيدة والكرامة، إنّها تسير على الخط الذي سار عليه أبو عبد الله من الاستهانة بيزيد ونوعية الناس لمحاربته.

لقد وقفت زينب وهي تنظر إلى يزيد نظرة استخفاف واحتقار، رغم أنها أسيرة وتقف وسط مجلس عقد للتهنئة بنصره، وهو سلطان طائش، ثمل بسكر الشباب ونشوة النصر، وهو المتحلل من قيود الآداب، المقترف للآثام والمعاصي، صرح بكلمة الكفر فيما أنشده من الشعر الذي حاول بانشاده إعادة ذكريات عهود الجاهلية في صراعها مع الإسلام.

لقد احتقرت شخصية يزيد، واستهانت بعظمته التي تظاهر فيها يوم خفت جموع المهنئين إليه بقتل الحسين، وأحيط قصره بكتائب الحرس، وزينت أبواب القصر بزينة الفرح وازدحم سواد الناس على بابه يظهرون ولاءهم ويرفعون أصواتهم بالتهنئة له والعداء لهؤلاء السبايا الذي لم تكشف الدولة عن هويتهم، وأنسابهم والناس لم يعرفوا عنهم إلّا أنهم خوارج خرجوا على الأمير، أو أنهم قطاع طريق حسب ما أذاعته أجهزة إعلان

الدولة وفي خضم هذه الأوضاع وفي معترك الوقائع، وحيرة الأفكار رفعت زينب صوتها بدعوة الحق، لتزيل الغشاوة عن الأبصار، وتنير العقول ببليغ بيانها عن قوة إيمان وثبات جنان.

وخاطبت يزيد وهو الظالم المتجبر بخطابها الذي ترك يزيد يتضاءل بكبريائه وكأنه عبد أساء لسيده، وهو يؤنبه على أخطائه فلا يجد جواباً.

وهكذا يهزم يزيد بباطله أمام جولة الحق، ويلجأ إلى المكر والخداع والتمويه على الناس، فيظهر البراءة والتراجع، ويلعن عبيد الله بن زياد، وأنه لم يأمره بذلك.

ويقال: إنه اعتذر من الإمام زين العابدين وخيّره بين الإقامة عنده أو الرجوع إلى المدينة فاختار الرجوع.

وكلها ظنون وأوهام خدع بها البعض بمزيد الأسف وغاب عنهم الغرض من إظهار يزيد بمظهر النادم أو المتراجع للإبقاء على آخر ستر يضعوه عليه محافظة على اسم «الخلافة» الذي أهين وانتهك نظامه .

وتقدم إليه مروان بن الحكم فأشار عليه بإرجاع أهل البيت إلى المدينة بسرعة، لخطر وجودهم في الشام، فقد أفاقت الأمة من رقدتها وعرف الناس الواقع، وتحدثوا بذلك ولمسوا ما كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الأسارى هم من الخوارج.

وعلى كلّ حال فلنترك حديث الشام وحوادثه، وما جرى على أهل البيت فيه ومدة إقامتهم فيه، ونعود مع ركب آل محمد الذي انفصل عن الشام متجهاً شطر مدينة الرسول.

ولا بدّ لنا من وقفة على مفترق الطريق بين الحجاز والعراق، لنتساءل: عن اتجاه الركب، فهل استمر في سيره؟ أم غيَّر اتجاهه إلى ناحية العراق؟!

فقد ورد أن العقيلة زينب قالت للإمام زين العابدين: يابن أخي قلْ للدليل فليعرج بنا على أرض كربلاء، فامتثل الدليل أمرها.

وذلك غير بعيد لما تحمله زينب من آلام وآمال، وكأنما القدر الحكيم أراد أن تكون ذكرى الأربعين أو رجوع الأسارى من الشام تستمر على مرور الزمن، وتعاقب الأجيال، دروساً وعبراً، لعظمة التضحية، والتفاني في نصرة الحق، وكان ورود زينب في ذلك الوقت المحدد هو ما أراده القدر الحكيم لتقف زينب فوق منصة الطفّ الشاهقة لتلقي العظات وتذكّي جذوة الحماس المتوقدة، التي أذكاها الحسين في ثورته[1].

(١) وبقيت الذكرى على ممر السنين، وهي ترتفع بسموها على الزمان والمكان، ولم يعترض سيرها خمول أو إهمال، وهي لا تزال وإلى يومنا هذا، تزداد وفود المشتركين بإقامة الذكرى، من جميع الاقطار الإسلامية، ويرتفع عدد المواكب في كلّ سنة من جميع محافظات العراق، وحدثت مسيرات المشاة على الأقدام بكثرة ومن مسافات بعيدة بشكل يدل على عظمة الهدف، وسمو المبدأ.

في المدينة المنورة

عاد ركب الحسين إلى المدينة بعد غياب دام أكثر من ثمانية أشهر، كلها محن وأحزان متواصلة فصار لدخوله رنة أسى ولوعة تملأ الأجواء، وقد وصل نبأ الفاجعة إلى المدينة بوسائل متعددة، وكان أسرعها بإيصال الخبر هو رسول ابن زياد الذي أرسله ليبشر عمرو بن سعيد الأشدق، بقتل الحسين عليه السلام:

قال عوانة بن الحكم: لما قتل الحسين عليه السلام وجيء برأسه إلى ابن زياد دعا عبد الملك بن الحارث السلمي وقال:

انطلق حتى تقدم المدينة، على عمرو بن سعيد بن العاص فتبشره بقتل الحسين، لا يسبقك الخبر، ولا تعتلّ، فإن قامت بك راحلتك، وإلّا فاشتر راحلة غيرها.

قال عبد الملك: فقدمت المدينة، فلقيني رجل من قريش فقال. ما الخبر؟

قلت: الخبر عند الأمير ـ وذهبت مثلا.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ قتل الحسين بن علي.

قال عبد الملك. فدخلت على عمرو بن سعيد.

قال: ما وراءك؟

قلت: ما سرَّ الأمير، قتل الحسين بن علي.

قال: نادِ بقتله. فناديت، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية بني هاشم في الدور على الحسين. فقال عمرو بن سعيد وضحك.

عَجَّتْ نساء بني زياد عَجَّةً كعجيج نسوتنا بيوم الأرنب

ثم قال: هذه واعية بواعية عثمان بن عفان. وصعد المنبر فأعلم الناس بقتله.

ولم يفصح التاريخ عما قاله من ألفاظ الشماتة، وعبارات التهجم المعبرة عن فرحه وحقده، فقد أسدل الستار على ذلك.

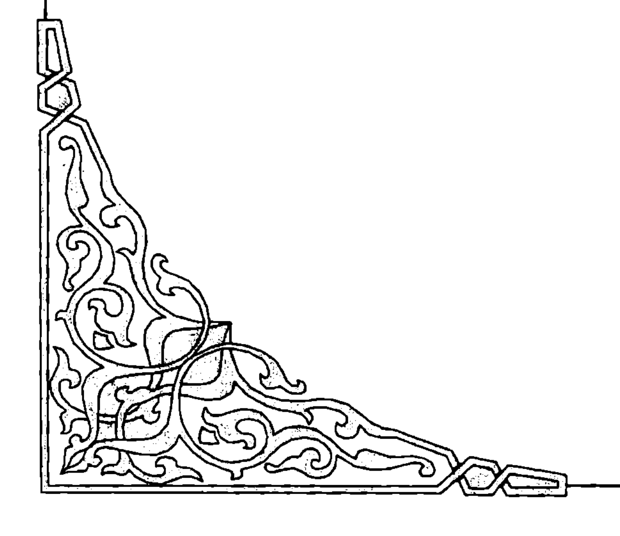
وعلى كلّ حال فالمدينة عندما وردها نبأ قدوم زين العابدين، برزت الرجال والنساء والصبيان بصراخ وعويل، وخرجت نساء بني هاشم، وأقيمت النياحة العامة ثلاثة أيام بلياليها ونساء بني هاشم وأهل المدينة مجتمعون للعزاء.. كما حدَّث بذلك الحسن بن الحسن عليه السلام.

ولم يكن ذلك الاجتماع يقتصر على إقامة شعائر الحزن، ومجالس العزاء، بل كان مجالس حديث عن تلك الأحداث المروعة، والفجائع المؤلمة، التي حلت بأهل البيت.

وكانت الحلقات في ذلك الدار الفسيحة الأرجاء تعقد هنا وهناك، وتجتمع النساء حول واحدة من العلويات فيستمعن لأحاديث الواقعة، وما شاهده أهل البيت هناك، فترتفع الصرخة، ويحمل النساء لأزواجهنَّ تلك الأنباء المحزنة فتبعث روح الحماس، وتتأجج شعلة الثورة وتتحين فرصة الانفجار.

زينب الكبرى

في خاتمة الطاف



وفي النهاية نقتصر على مواقف زينب الكبرى، في خاتمة المطاف، وآخر مراحل الجهاد المتواصل في حياتها، فهي عندما دخلت المدينة، واستقبلتها جموع المعزين، اتجهت إلى مسجد النبي ﷺ ووقفت على باب المسجد وقالت:

«يا جداه يا رسول الله أنا ناعية إليك ولدك (أخي) الحسين» وهذه الكلمة هي جذوة حزن تتقد وشرارة حرب على الأمويين. وعندما دخلت الدار لم تشغلها ذكريات الماضي، ولم يغلب عليها الحزن عندما شاهدت خلو أمكنة أهلها، ومحاريب العبادة التي كانت ترتفع منها أصوات المناجاة وهي موحشة.

ومهما يكن للذكريات من ألم يحز في النفس، ويؤثر على الجوارح ربما يؤول إلى الجزع فإن زينب عليها السلام كانت تطفىء حرارة وجدها بالتصبر، وإجراء دمعة الحزن التي لا يمكنها حبسها.

أقامت في المدينة تواصل جهادها بعزم وتصميم على أداء رسالتها وجمع حصيلة الثورة، ونشر أهدافها، فكانت تؤلب الناس على الطلب بثأر الحسين عليه السلام. وخشي عامل المدينة من وجودها في المدينة، أن تفجر ثورة في المدينة ومكة؛ لأن ابن الزبير رفع شعار الطلب بثار الحسين عليه السلام وهياج

المدينة يدعم ثورته ضد يزيد، لأن ابن الزبير أعلن خلع يزيد ودعا الناس إلى ذلك.

وكتب عامل المدينة إلى يزيد يخبره بالأمر ويحذره من خطر دعوة زينب، وجاء الأمر من يزيد بلزوم إخراجها، ولكنها أعلنت أنها لا تخرج حتى يراق دمها.

وقالت: قد علم الله ما صار إلينا، قتل (يزيد) خيارنا، وحملنا على الأقتاب، فوالله لا خرجنا، وإن أهرقت دماؤنا.

فقالت لها زينب بنت عقيل: يا بنت العم قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء، فطيبي نفساً، وقرّي عيناً، أتريدين بعد هذا هواناً؟ ارحلي إلى بلد آمن.

ثم اجتمع إليها نساء بني هاشم وتلطفن معها في الكلام.

وهاجرت زينب هجرتها الثانية، وهي تشق طريقها بالعزم والتصميم على المضي في جهادها.

وتتضارب الأقوال حول اتّجاه ركب العقيلة الذي ألزم بالخروج من المدينة، ولكن الاختيار ليس بيد السلطة، ما عدا المنع من الاتجاه إلى العراق والرجوع إلى المدينة.

فهل وقع الاختيار على الشام أو التوجه إلى مصر؟ وكانت خاتمة المطاف هناك، وتوفيت بمصر ودفنت في تربتها حيث مشهدها الآن.
أم أنها أقامت بدمشق مع زوجها عبد الله بن جعفر في محل إقامته في الراوية لأن له أملاكاً هناك، فوافتها المنية، ودفنت في مشهدها المعروف ومزارها المشهور.

أو أنها اختارت الذهاب إلى مصر مع بقية أهل البيت كما ورد أنها

خرجت إلى مصر ومعها فاطمة وسكينة بنتي الحسين. وكان خروجها في سنة ٦١.

وقد استقبلت استقبالاً مهيباً كما حدثت رقية بنت عقبة بن نافع الفهري قالت:

كنت ممن استقبل زينب بنت علي، عندما قدمت مصر فتقدم إليها مسلمة بن مخلد، وعبد الله بن الحارث، وأبو عميرة المزني، فعزاها مسلمة فبكى وبكى الحاضرون فقالت زينب: هذا ما وعد الله ورسوله، وصدق المرسلون.

وذكر النسابة العبدلي: أن دخول السيدة زينب كان أول شعبان سنة واحد وستين، وأقامت بمصر وهي شاكية لانحراف صحتها إلى سنة ٦٢ وتوفيت يوم الأحد ليلة الاثنين لأربعة عشر يوماً خلت من رجب للسنة المذكورة ودفنت بمحل سكناها.

* * *

ثم بعد مرور عام على وفاتها وفي نفس اليوم الذي توفيت فيه اجتمع أهل مصر وفيهم الفقهاء، والقراء، وغير ذلك وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة، ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا الموسم إلى وقتنا هذا من يوم وفاتها إلى الآن وإلى ما شاء الله، وهذا الموسم هو المعبر عنه بالمولد الزينبي، يبدأ من أول شهر رجب من كلّ سنة، وينتهي ليلة النصف منه وهي ليلة الختام، وتحيا هذه الليالي بتلاوة القرآن الحكيم والأذكار الشرعية ويكون لذلك مهرجان عظيم وتفد الناس من كلِّ فجٍّ عميق إلى زيارة ضريحها الشريف.

وكذلك تقصدها الناس للزيارة بكثرة لاسيما يوم الأحد وهي عادة قديمة ورثها الخلف عن السلف.

والتزم الأمراء والقواد قبرها فكان كافور الإخشيدي يتعاهد زيارتها وكذلك أحمد بن طولون، وكان الظافر الفاطمي يزورها، وإذا أتى إلى مقامها الشريف يأتي حاسر الرأس، مترجلاً يتصدق عند قبرها، إلخ[1].

وبقي القبر يتعاهده الناس بالزيارة والهدايا، وهو موضع احترام العامة والخاصة.

وقد نظمت الأشعار في تاريخ بنايات قبرها في مصر كما ألف العلماء في ترجمة السيدة زينب رسائل ولعل أقدمها رسالة السيد يحيى بن الحسين المعروف بالعبدلي بن جعفر الحجة بن الأمير عبيد الله الأعرج، بن الحسين الأصغر، بن علي بن زين العابدين.

وهو أول من جمع الأنساب بين دفتين، ونشر هذه الرسالة الاستاذ حسن محمد قاسم في ضمن رسالته (السيدة زينب) وقدمها بكلمة.

قال في مقدمة الرسالة ص٥ ـ ٦:

فلئن كان في النساء شهيرات فالسيدة زينب أولاهن، وإذا عُدَّت الفضائل فضيلة فضيلة، من وفاء وسخاء، وصدق وصفاء، وشجاعة وإباء، وعلم وعبادة، وعفة وزهادة، فزينب أقوى مثال للفضيلة بكل مظاهرها.

إن اشتهارِ فضائل السيدة زينب، والآثار المروية فيها وعنها في كتب التاريخ ليغني عن التوسع في ترجمتها الشريفة، وبوجه إجمالي فهي ينبوع فضائل باقية الذكر (ولا عجب) أن عدت المثل الأعلى لرمز الحق، ومثال الفضيلة، وشأن الحق أن يستمر، والفضيلة أن تشتهر، وقد طبع آل علي عليه السلام على الصدق حتى كأنهم لا يعرفون غيره، وفطروا على الحق فلا يتخطونه قيد شعرة، فهم مع الحق والحق معهم يدور حيثما داروا.

---

(١) السيدة زينب ٥٨ ـ ٦٠ للاستاذ حسن محمد قاسم.

ولقد كانت حركة أخيها الحسين المظهر الأسمى للحق، وكانت هي في هذه النهضة داعية للحق، هاتفة باسمه، ونور الحق لا يطفأ وروح الصدق لا تبيد.

ولقد كانت مواقفها بين أمراء الظلم أمثولة الحق والعدل حيثما كانت مواقف الظَّلمة أمثولة العسف والجور.

فكانت تجيب بكل ثبات وإقدام، الأمر الذي لم يقم به أحد من البشر، فإنها في مجلس يزيد، وقد أحيط بها وهي في موقف رهيب، ناداها منادي الحق فهتفت باسمه، وأجابت تلبيته عندما شمخ يزيد بعطفه وارتكس في مهاوي غروره، وسوَّل له شيطانه بأنه المنتصر، وأنه لا شيء يقف أمامه، ولا أحد يستطيع كشف سوء سريرته. اهـ[(١)].

* * *

أما قبرها في دمشق ومزارها المشهور هناك فعليه المعوّل وإليه يذهب جماعة من العلماء، وإليها تشد رحال المسلمين من البلدان النائية. وقد حصل خلاف بين المؤرخين: هل بمصر كما قدمنا أو بدمشق، وقالوا: إن القبر المنسوب لزينب في دمشق أنه قبر زينب الوسطى بنت علي بن أبي طالب، وهي المكناة بأم كلثوم.

قاله الهروي في الإشارات، وابن الجوزي في المزارات الشامية، والعز بن شداد في الأعلاق الخطيرة، والصيادي في الروضة البهية، في

---

(١) وقد ألف العلماء والكتاب في حياة العقيلة زينب كتباً ورسائل كالسخاوي والمؤلف ابن طولون. وللسيوطي رسالة وقد اختصرها في كتابه الحاوي وغيرهم.
ومن المعاصرين الاستاذ السيد عبد العزيز سيد الأهل والاستاذ الخطيب السيد علي ابن الحسين الهاشمي، والاستاذ حسين الأديب وغيرهم. وإن تاريخ حياتها حافل بالعظات والعبر.

الكلام على مزارات الجهة الشرقية من دمشق: ومنها قرية يقال لها الراوية، قبلي دمشق، فيها قبر السيدة زينب المكناة بأم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب... توفيت بغوطة دمشق عقب محنة أخيها الحسين ودفنت في هذه القرية.

وهذا لا يمنع من نسبة القبر المشهور لزينب الكبرى، إذ في دمشق في الجهة الشرقية يوجد قبر مشيد، يقصده الناس للزيارة، وعليه قبة، وهو منسوب لأم كلثوم ابنة الإمام علي بن أبي طالب، وتقابلها قبة وفيها ضريح، وهي ملصقة بقبة السيدة أم كلثوم، وتنسب القبة والضريح إلى سكينة بنت الحسين عليه السلام، وهناك مزارات أخرى لأهل البيت.

ولا يستبعد ذلك فإن يزيد أمر بإخراج أهل البيت من المدينة، وإخلاء دارهم من الرجال والنساء، وليس فيها من الرجال إلّا الإمام زين العابدين عليه السلام، والحسن بن الحسن المثنى، فخرج الحسن إلى البادية. ويقال: إنهم سمحوا للإمام بالبقاء، لانصرافه إلى العبادة.

وهناك من يقول أنه خرج إلى البادية مع الأعراب، والصحيح أنه بقي في المدينة ليكون تحت مراقبة الدولة، لأنه بقية أهل البيت عليهم السلام.

* * *

وهكذا ينتهي ركب آل محمد، بعد تلك الرحلة الشاقة ذات الفجائع والمآسي، وكانت حصيلة ذاك الجهاد، وحصاد ذلك البذر أن أصبحت الثورة شعلة تتأجج ونوراً يزيل الحُجُب التي ضربها أولئك الدجالون في طريق دعوة الإصلاح.

لقد نجحت الثورة، وإلى الأبد ستبقى وحليفها النجاح وكان نصيب أولئك الذين تورطوا بانتحال الأمرة على المسلمين، وحاولوا القضاء على دعاته، وحملة رسالته، أن تفرق شملهم وخسرت صفقتهم.

وكان جميع الذين اشتركوا في قتل الحسين، قد نالهم الذل والهوان، وماتوا أسوأ ميتة، فقد قتلوا وديست جيفهم بالأقدام، بعد أن شردوا وأصبحوا مطاردين.

* * *

فابن زياد على قوته وتجبره، ونفوذ سلطانه أصبح مشرداً فهو عندما عاد إلى البصرة، طلبه أهلها فاستجار بأحد الزعماء وأخفاه، ثم هرب ليلاً على حمار، وقلبه يخفق خوفاً من الطلب، حتى قتله الثوار، الذين رفعوا شعار (يا لثارات الحسين) وبقيت جيفته للكلاب بعد أن سحقت بالأقدام.

وعمر بن سعد قتل على فراشه. وهكذا فقد شردوا وأهينوا، وهذا ما وعدهم به الحسين إذ قال:

إني لأرجو الله أن يكرمني بهوانكم.

ولقد لقي جميع من اشترك في قتل الحسين حتفهم على أبشع الصور، وأشدها مذلة وهواناً، وشردوا في البلاد وتتبعهم الثوار، فقتلوهم أينما وجدوا حتى قتلوا منهم في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً، ولم يفلت من زعمائهم أحد، كعمرو بن الحجاج، وشبث بن ربعي، وشمر بن ذي الجوشن وغيرهم.

كما ابتلى أكثرهم بعاهات وأمراض قضت عليهم بعد بلاء شديد وعذاب أليم.

أما يزيد فعاش تعساً بآلامه وآثامه، فاستحق لعنة الله وغضب الأمة. وينهض بقية الصحابة من أبناء المهاجرين في وجهه، فتقع مأساة الحرة، وفجيعة المدينة، بيد علوج الشرك من أنصاره وقادته ثم يتبعها بهدم الكعبة، حتى ذهب إلى عذاب الله وغضبه.

* * *

وبقي الحسين خالداً، والدنيا كلها تلهج بذكره، والثوار ضد حكام الجور يهتفون باسمه، والمسلمون يقيمون ذكراه، ويجددون أيام فاجعته، منذ يوم قتله حتى يومنا هذا.

وأصبح يومه منار هدى، وسبيل نجاة، ثورته دروساً للأجيال، وعبرة لدعاة الإصلاح، وجذوة لا تخبو، ومفخرة لا تنسى.

> ويموت يزيد بحسرته. ويخلفه ابنه «معاوية الثاني»، وهنا يوجه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه، ليحمل شعلة الحسين، ويُزيد الجذوة ضراماً، حين يجمع الناس ليوم مشهود، ثم يعلن فيهم.. أن جدّه وأباه، اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جنت أيديهما... وإنه يربأ بنفسه وبتقواه من أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة.
>
> ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه، ويعتكف في بيته، حتى يأتيه الموت، فيلقى الله تقياً نقياً سعيداً[1]

وبه انقطعت سلسلة خلافة آل أبي سفيان، وتحوَّل الأمر إلى ابن الحكم. ولقد خابت مساعي معاوية، وباءت جهوده بالفشل، إذ حاول حصر الخلافة في ذرّيته، عندما أخذ البيعة لولده يزيد، كما فشل يزيد في مسعاه للانتصار على الحسين عليه السلام وبذل كل إمكانياته، واستعمل أقصى قدرته، واتخذ جميع وسائل الانتصار في صراعه مع الحسين، ذلك الصراع الموروث والتخاصم الحاد منذ عهد الجاهلية الأولى، بين هاشم وأميّة، ومحمد صلى الله عليه وآله وأبي سفيان، وعلي ومعاوية، والحسين ويزيد، وهو الممثل لنزعات بيته الأموي، وكانت آمالهم تحوم حوله في القضاء على خصومهم،

---

(١) خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء ص١٩٣.

وفي كربلاء كان تقرير المصير ونهاية المعركة المستمرة وتصفية الحساب هناك.

وظنَّ يزيد أنه بلغ قمة النصر بقتله الحسين بن علي عليه السلام ولكنه أخطأ الهدف، وانتصرت الثورة التي رفع لواءها الحسين عليه السلام لأن رسالة محمد لم تنل منها سيوف أمية بل كان دم الحسين وأصحابه وأجسادهم دريئة ودرعاً.

ووقع الأمر الذي لا بدّ منه، وصوت زينب تردّده أمواج الأثير وهي تقول: فكد كيدك واسعَ سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا.

وإلى هنا تنتهي مسيرتنا مع الحسين في نهضته وحركته في كربلاء مع الغلّ والفساد والبغي، ولم تنته رغبتنا من مواصلة الحديث، وسنلتقي مع القرّاء إن شاء الله في الحلقة الثانية (مع العلوي الثائر)، وهي دراسة عن ثورات العلويين التي هي امتداد لثورة الحسين، وشعلة من تلك الجذوة.

ثورة الندم

حسب الذين قتلوا آل محمد على أرض الطفّ وشتتوا عيالهم وسبوا نساءهم أن المعركة التي ابتدأت بنزول الوحي على النبي قد انتهت. وأن ما أصابوه من ثأر جديد في كربلاء يغير من صفة الانهزام أمام دعوة محمد ويمهد لهم الأمر على ما أعدوه من ظاهر البقاء الشرعي والحكم الديني الذي يتصل بالإسلام والإسلام منه براء.

انتهت مأساة آل محمد وفرغ المنهزمون أمام عقيدة الإسلام من جريمتهم وكانت الوقائع توحي بأنهم حققوا ما أرادوا وقاربوا النتيجة الحاسمة التي تتيح لهم تنفيذ ما خططوه بتوجيه الأمة وفق ما يبغون بإرجاع سيطرة الماضي وإعادة كيان الزعامة الجاهلية من جديد.

فقد نالوا مرادهم وبلغوا الغاية في قتل الحسين وهو الرمز الديني الذي تتمثل فيه مكانة سيد المرسلين الذين سحق فلول الجاهلية وتتجسد فيه العقيدة والمبادئ.

ولا نريد أن ندخل في النتائج التي أخذت تظهر في كيان الحكم والمجتمع الأمويين بعد ثورة الحسين فالنظرة التي تنبعث من الالتزام الديني تبيّن التحول في السياسة والسلوك فإذا كان ابن بنت رسول الله قد ذُبح

وسبيت نساؤه وأسروا عياله وهو المنزه من كلّ طمع في الدنيا المعروف بالحفاظ على العقيدة ورعاية مصالح المسلمين فمن يرتد عنه بعد ذلك سيف الحكم الأموي؟!

ها هو الحرم تنتهك حرمته..

ها هي دار الهجرة تستباح..

هاهم أصحاب محمد يُهانون وتختم جلودهم كالأسرىٰ..

وعلى ذلك مضت سياسة الحكم فأيّ نتائج تظهر إذا كان المنظور إسلامياً دينياً كما هو منظور ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

ولكننا ندخل إلى الكوفة.. بعد ثورة الطف.. وعودة المقاتلين الذين نفذوا الجريمة وهم من أشرافها ووجوهها ومرور موكب أهل البيت بتلك البلدة وما كان قد حدث من مواجهة بين الأسرىٰ وهم سلالة النبيين وبين أهل الكوفة الذين كانت دموعهم تسبق كلماتهم.

وعاود أهل البيت النظر في أهل الكوفة أهؤلاء حقاً هم الذين كتبوا إلى وليهم أن أقبل؟

وهل غيرهم من قتل حاميهم وذبح أبناءهم وأصحابهم؟ وهنا كانت عقيلة بني هاشم تعبر عن رفضها لما بدر من أهل تلك البلدة وأعلنت عن غضبها فقالت زينب بنت علي:

«لا يدخلن عربية إلّا أم ولد أو مملوكة فإنهن سبين كما سبينا».

فانظر إلى صاحبة المصاب وسليلة الشرف والدين كيف تدفع مجتمع القبائل والأحساب بالجريمة وترفض أن تستقبل من النساء من كانت من تلك البيئة حتى ولو كانت قد أظهرت من التفجع والألم ما يكشف عن ودها لآل البيت.

وقد أعلن الإمام زين العابدين بخطابه إلى أهل الكوفة ما كان يصعب

على التصديق: «انا ابن من انتهكت حرمته وسلبت نعمته وانتهب ماله وسبي عياله. أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث أنا ابن من قتل صبراً، وكفى بذلك فخراً. أيها الناس فأنشدكم الناس هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه، فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوءة لرأيكم بأية عين تنظرون إلى رسول الله ﷺ إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي.

وكانت زينب بنت عقيل بن أبي طالب عليه السلام تواجه أهل الكوفة بندبها الحسين قائلة:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهل بيتي بعد مفتقدي ... منهم أسارىٰ ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

هكذا ضجت الكوفة بهذا الموقف الذي اتخذه أهل بيت النبي وعلت ضجة هذا الموقف على ضجيج أهل الكوفة بالبكاء والنوح ونتف اللحى في ذلك اليوم الذي لم ير باكية وباك أكثر منه.

وبيد آل محمد أغلق باب الندم بسهولته وقد وجد الناس أنفسهم ـ وهم يشاهدون مظهر أهل البيت الذي كان على المتخلفين شديداً ـ فيدفعون إلى أعتاب الندم ليعالجوا بما ثار بداخلهم بأمور نفسية تهدىء المشاعر اللاذعة التي هاجت.

نعم بيد آل محمد دفع أولئك عن درب اللجوء إلى الحسرة. لأن أسباب العذرة كانت واضحة وعوامل نكبة الإسلام بقتل الإمام الحسين قد أسهم بها هؤلاء الذين خدعوه ونكثوا بيعته؟ فلا يجدي الدمع ولا ينفع البكاءفليس ما حلّ بالإسلام من رزء ومصيبة من الأمور والأحداث العادية التي يلجأ فيها الإنسان إلى ما منحه الله من وسائل يخفف بها وقع الحوادث عليه.

لأن هؤلاء البقية من آل محمد معهم الإمام زين العابدين وعمته العقيلة المجاهدة وبقية النسوة والصبيان كانوا يرون أن المعركة لم تنته. هي أحقاد زمنية كانت منها هذه الجولة. وهي مواجهة صريحة بين الإيمان والشرك كان آخرها ما وقع في كربلاء.. ورسالة النبي خالدة وسيرة محمد ثابتة وما كان نهوض الحسين من أجل شيء آخر.. فإذن.. على آل البيت وفي مقدمتهم صاحب الأمر والولاية الإمام زين العابدين والحوراء البطلة أن يقيموا نداء الثورة ويبقوا شعارها وإلّا لعمل الأمر في النفوس عمله، واستسلم الإمام زين العابدين وهو المريض المنكوب ولانت البطلة زينب وصمت الأخريات. ولكنهم تصدوا للمجرمين بمنطق الهدى ومواقف الحق.

وفي ذلك الموقف.. كان لا بدّ من رفض ما بدر من القوم وأشعارهم بأن الجريمة التي أقدموا عليها لا تمسحها الدموع..

وفي المواقف الأخرىٰ.. كان لا بدّ أن تبقى مجالس العزاء منصوبة، وقد كانت مدينة جدهم تختلف في وضعها عن الكوفة فلما كانت المناحات ومجالس العزاء كان طيف الحسين خالداً وحملت المأساة بوجوهها على ألسنة أهلها وأصحاب الأنساب فيها إلى نوادي دار الهجرة وعوائل المهاجرين والأنصار.

فتصاعد الشعور بالخطيئة في الكوفة وعظم الإحساس بالذنب وبدأت تلتقي نتائج مرور سبايا آل البيت النبوي بما يحدثه وجود القتلة والمجرمين.

واحتفظت الكوفة بأصداء التقريع والتوبيخ التي أطلقها آل البيت النبوي فكانت سبباً في استيقاظ عقول وضمائر آخرين منهم من وضع الأمويون على عيونهم عصابة الدجل والتمويه أيام المحنة ومنهم من حملته ظروف الكوفة وتحولات البيئة إلى مواقع من العيش يبعد فيها التأثير.

وهناك ـ وغيرهم ـ أناس لم يحسبوا أن الأمور ستبلغ هذا الحد ولم يخطر ببالهم أن تكون الواقعة على مثل هذه الصورة.

لقد بدأت الاجتماعات وظهرت ردود الفعل منذ يوم ورد فيه نعي الحسين.

ولما ورد ركبُ السبايا والأسارىٰ من آل محمد أخذت ردود الفعل تتحول إلى لون حاد من الألم.. وقد قصد آل الرسول أن يكون ذلك..

ونحن إذا نظرنا إلى واقع الكوفة بعد دخول آل محمد إليها وقد حلت بهم النكبة وجرت عليهم المصيبة نجد الفئات التي أشرنا إليها في ما سبق:

١ ـ فئة الأشراف ممن اشتركوا في قتل الإمام الحسين وتابعيهم من الجند الذين ينقادون بالعصبية.

٢ ـ فئة لم تستجب إلى نداء الثورة أو بالأحرىٰ لم تكن على قرب من الجماعات التي دعت الحسين كما أنها لم تستجب لدعوة الأمويين إلى الالتحاق بجيش عمر بن سعد، والتعبئة ضد الإمام الحسين. ولما أفاقوا على المصيبة ظهرت عليهم آثار الغضب.

٣ ـ فئة كانت ممن قام بالدعوة والمكاتبة ومعهم المؤيدين لهذا الاتجاه.

ومهما يكن من أمر.. فإن الناس الذين آلمهم المصاب وهم على صلة مباشرة أو غير مباشرة بالحدث قد تلاقت بالندم وتبادلوا الأراء في تدارك ما فاتهم من نصرة الحسين وقعودهم عنه يوم حلَّ بساحتهم وتركوه يصارع تلك الطغمة الفاسدة من حملة معاول هدم الإيمان وأعداء الإسلام.

وبلا شك فإن مواقف آل البيت وهم في مسيرة السبي كانت تمثل نوعاً من المواجهة وعدم الرضوخ لقوة الباطل وسياسة الفساد كان لها أثرها في

دفع هؤلاء الجماعات إلى مدىً أبعد من التلاوم والنزاع وأخذت الآراء تميل إلى نهج الثورة وتفجير معركة مع الأمويين لأن عظم ما بأنفسهم من ذنب وشعور بالخذلان لا تزيله إلّا أعمال تتعدى المشاعر والعاطفة.

وبمرور الأيام وفي تلك السرية كان شعور الثورة يقترب من جماعة كاد يفنيها الألم ومعه أناس أوشكت الحسرة أن تعدمهم الحياة.

لأن مواقعهم من الناس وقدمهم في المجتمع ومنزلتهم في الدين كانت تجعلهم على رأس الشيعة الذين نمت اتجاهاتهم وأفكارهم في ظل حكم علي وخلافة بطل الإسلام فانشدّوا إليه بنفوس نقية والتقوا معه على الإيمان والصدق. وواكبوا الأحداث ولم يبعدوا عن المسيرة.

فكانت حركة التوابين أو ثورة الندم.

وثورة التوابين هي ثاني حركة مسلحة في الكوفة ضد الحكم الأموي ورد فعل مباشر لقتل الحسين.

وقولنا: ثاني حركة لأنا نعتبر حركة عبد الله بن عفيف الأزدي هي أول الحركات ولم تنل حظها من العناية والبحث. فقد كانت ثورة إيمان وهو معذر في نفسه لأنه أعمىً وقد جعل منه الإيمان مقاتلاً مقداماً لا يخشى أصحاب البأس من الحكام الذين قتلوا ابن فاطمة.

فلما صعد ابن زياد المنبر وقال في بعض كلامه: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذاب ابن الكذاب.

فما زاد على الكلام شيئاً حتى قام إليه عبد الله بن عفيف وكان من خيار الشيعة وزهادها وكانت عينه اليسرى ذهبت في يوم الجمل والأخرى في يوم صفين فقال مخاطباً ابن زياد:

يا ابن زياد الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟

فغضب ابن زياد: وقال: من هذا المتكلم؟

فقال: أنا المتكلم يا عدو الله أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام. واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقموا من طاغيتك اللعين ابن اللعين على لسان رسول رب العالمين.

ولما همَّ جلاوزة ابن زياد بأخذ ابن عفيف وقف أشراف قومه.. وانحازت قبائل اليمن إلى الأزد..

فما كان من ابن زياد إلّا أن يجمع مضر ويضمهم إلى محمد بن الأشعث أحد قادة الجريمة ورأس قومه في الفتنة والنفاق.

فوقعت بينهم حرب.. ومن صور البطولة أن يقوم عبد الله ابن عفيف نفسه بالقتال..

فكان يذب عن نفسه ويقاتل وكانت ابنته التي شهدت كلاب أمية تحيط به هي التي تعينه على معرفة الجهة التي يأتيه منها الجند حتى تكاثروا عليه.

كان بدء حركة التوابين هو من أول يوم رجع فيه جيش الكوفة من أرض كربلاء.

وكانوا يعملون في الخفاء لجمع ما تحتاجه الثورة من سلاح وكان نشاطهم وتحركهم بدوافع مزيجة من الندم والألم والحمية للدين.

وتزعّم الحركة خمسة من رجال الشيعة كان لباسهم التقوى وصفتهم الورع وسمتهم الصدق. لهم من العمر ما تجاوز حد الكهولة. وكل منهم يمتلك تجربة واسعة وخبرة كبيرة لذا كان وقع المأساة عليهم شديداً وأثرها عظيماً.

هؤلاء الرجال:

سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري ورفاعة بن شداد البجلي وعبد الله بن سعيد بن نفيل الأزدي وعبد الله بن وال التميمي.

كانوا في أشدّ حالٍ من الندم وأصعب وضع من الندامة فانضم إليهم أولئك النفر الذين مالوا إلى نهج الثورة بعدما تضافرت على هزّ مشاعرهم واضطراب نفوسهم أنباء كربلاء والمناظر التي أعقبتها والمواقف التي حدثت بعدها وكانوا بأعمار أقل من أعمار أولئك القادة النجباء عقدت الاجتماعات وتبادلوا الأراء وألقيت الخطب للتعبير عن أحاسيس الحسرة ومشاعر الندم لتأخرهم عن النصرة والمشاركة ظناً منهم أن المدة ستطول وأن القتال سوف لا ينشب بين الحسين وبين أعدائه بسرعة إضافة إلى ما كان في أذهانهم من تصور يضع حدوداً وفق المظاهر المشتركة لما يمكن أن يقدم عليه الحكم الأموي.

فلم يشعروا إلّا والأحداث تتوالى بذلك الشكل المفجع. فأُخذ على أيديهم وأذهلتهم المفاجأة وانهارت الزعامات وأصبح الأمر بين العرفاء والأفراد الذين ارتقوا إلى مواقع التأثير بقدر إسهامهم في الجريمة ودورهم في إنزال الأذى والمصيبة بآل البيت النبوي الطاهر.

ولقد كانوا يظنون أن المصلحة في التريث وأن تكون الخطوة اللاحقة معدة بعد وقوع القتال فكانوا بتريثهم قد أساؤوا لأنفسهم ووقعوا بالخطأ الذي أسلمهم إلى حال من اليأس والألم.

ومهما تكن عوامل تأخيرهم وأسباب تقاعدهم فإننا لا نفرض آراءنا ولا نتمحل في أمر يصعب علينا إزالة الحجب عنه والوصول إلى الواقع.

إن تلك الثورة التي قام بها النادمون أو التوابون أو الترابيون كما

يسميهم بعض المؤرخين لم يكن لها هدف إلّا التضحية لأن الاستشهاد وبلوغ المنية هو الذي سيزيل النظرة ويقضي على الشعور بأن تخلفهم حباً بالحياة أو تخاذلاً أو جبناً وقد كان موقع القواد الخمسة قد صبغ هذا الاتجاه بالتقوىٰ وشدّ كلّ المنتمين إليه بروح الفداء لكي يتلافوا أو يتداركوا ما كان إليه أمرهم أمام الله. وأمام المجتمع، وأمام أنفسهم.

لذا ليس من قصدهم إقامة حكومة أو تشكيل دولة بل هي حركة انتحارية أوجدتها عوامل دينية وحالات نفسية فكانت حركة موفقة وثورة ناجحة مهدت الطريق لعدة ثورات أخرىٰ وفتح ثغرة في جدار القوة والسلطان للوصول إلى الإطاحة بالحكم الأموي.

جاءت ثورة الندم وحركة التوابين بعد فترة من الزمن كانت فيها النفوس على ما قدمنا من صورة تتعرض فيها لشتىٰ أشكال الحيرة والحسرة وغيرها من وجوه الخيبة.

لقد ابتدأ الندم في الشهر الذي قتل فيه الحسين وضمت صفوف التوابين بمرور الأيام ستة عشر ألفاً.

وفي سنة ٦٥هـ ظهرت الدعوة علناً وأصبح موعد ثورة الندم قريباً فتحرك جيشها في أول ربيع الآخر من السنة نفسها بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي.

وتتضافر الروايات على أن التجاوب كان مشتركاً فإن الشيعة فزعوا إلى هؤلاء الخمسة أو أن الخمسة هم الذين تصدوا للحركة وقاموا بالدعوة إليها. فقد قلنا: إن الميل إلى الثورة كان موجوداً وقد اتّسم بالعزم الروحي المتأجج في نفوس القادة الخمسة الذين وطنوا النفس على ملاقاة المنية في النيل من الذين قاموا بقتل الحسين وأهله وأصحابه عليهم السلام.

كان سليمان بن صرد معروفاً بتدينه ومن رجال الشيعة ومن أشراف قومه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وله تجربة عاش الأحداث والوقائع في العراق وقد تخلف عن الجمل لأمور منعته وقد طلب من الحسين أن يعذره عند أمير المؤمنين الأمام علي[1] وعن سليمان بن صرد قال: أتيت علياً بعد الجمل فقال: يابن صرد تنأنأت وتربصت وتأخرت فكيف ترىٰ صنع الله؟ فقد أغنى الله عنك.

قلت: إن الشوط بطين يا أمير المؤمنين وقد بقي من الأمور ما تعرف به صديقك من عدوك[2].

لقد كان سليمان من أوثق الناس عند الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكذلك الآخرون من قادة ثورة الندم كانوا من خيار أصحاب الإمام علي ووجوه الشيعة ورجالها، وكلهم على أكتافه تجربة عمر طويل وأصداء وقائع وأحداث.

لما اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد بدأ المسيب بن نجبة[3] القوم بالكلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال:

أما بعد، إننا قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً: أَوَلم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فإن أمير المؤمنين قال: العمر الذي أعذر فيه إلى ابن آدم ستون سنة وليس فينا رجل إلّا وقد بلغه وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ شيعتنا حتى بلى الله أخيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة

---

(١) أنساب الأشراف ص٢٧٣.

(٢) نفس المصدر ص٢٧٢.

(٣) المسيب بن نجبة ـ بالنون والجيم المفتوحتين بعدهما موحدة مفتوحة ـ بن ربيعة بن عوف بن هلال بن سمح بن نزار الفزاري، أدرك النبي ﷺ وشهد حروب القادسية وفتوح العراق وروى عن النبي ﷺ وعن الإمام علي عليه السلام.

نبينا ﷺ وقد تلقينا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً وعلانية وسراً فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قويناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه أو تقتلوا في طلب ذلك فعسىٰ ربنا أن يرضى عنا عند ذلك وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن.

أيها القوم ولوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بدّ لكم من آمرٍ تفزعون إليه وراية تحفون بها[1].

وقد ظهر أن الثلاثة الآخرين كان قد اجتمع رأيهم على سليمان بن صرد وأخبره المسيب برأيهم وتوليته الأمر لأنه شيخ الشيعة صاحب رسول الله ﷺ وذا السابقة والقدم المحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه.

كانت نواة الثورة مغروسة مهيأة في قلب مائة رجل اجتمعوا في دار سليمان ثم اتسعت وامتدت تستجيب لها القلوب وتتلاقىٰ معها الأنفس التي تسبح في بحر من القلق والهموم.

وأخذوا ـ كما قلنا بجمع السلاح ـ وقد اقترح سليمان أن يخرج الثوار من أموالهم ليجهزوا ذوي الخلة والمسكنة من الذين لا يملكون مالاً ولا سلاحاً.

أما البيان الذي كان الناس يجتمعون عليه ويخاطبهم به سليمان بن صرد فهو:

أثني على الله خيراً وأحمد آلاءه وبلاءه وأشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسوله أما بعد: فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر

(١) الطبري، ٧/ ٤٨.

الذي نكدت فيه المعيشة وعظمت الرزية وشمل فيه الجور أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير أنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم فلما قدموا ونينا وعجزنا وأدهنا وتربصنا وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودرية للرماح حتى اقصدوه وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا فقد سخط ربكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا ألا الموت فوالله ما هابه امرؤ إلّا ذلّ كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم بارئكم فما فعل القوم؟ جثوا على الركب والله ومدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلّا الصبر على القتل فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه اشحذوا السيوف وركبوا الأسنّة وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى تدعوا حين تدعوا وتستنفروا أهله.

وقام خالد بن سعد أخو عبد الله بن سعد بن نفيل فقال: أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلي نفسي يخرجني من ذنبي ويرضي عني ربي لقتلتها ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونُهينا عنه فاشهدوا الله ومن حضر من المسلمين كلما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال القاسطين.

فكانت تلك بادرة استجاب لها آخرون وفرت للحركة ما هي بحاجة إليه في بدء أمرها.

لم تكن حركة التوابين مقصورة على الكوفة بل أن سليمان كتب إلى سعد بن حذيفة بن اليمان عامل المدائن ومما جاء في الكتاب:

إن أولياء الله من أخوانكم وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دعي فأجاب ودعا فلم يُجب وأراد الرجعة فحبس. . . فلما نظروا أخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد أخطأوا بخذلان الزكي الطيب وإسلامه وترك مواساته والنصر له خطأ كبيراً ليس لهم من مخرج ولا توبة دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تفنىٰ على ذلك أرواحهم فقد جدوا إخوانكم فجدوا وأعدوا واستعدوا وقد ضربنا لأخواننا أجلاً يوافوننا إليه وموطناً يلقوننا فيه. . . إلى آخر الكتاب. .

فجمع سعد بن حذيفة بن اليمان أهل المدائن وقرأ عليهم كتاب سليمان ثم خطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مزمعين على نصر الحسين وقتال. . . . أول من قتله والله يثيبكم على حسن النية وما أجمعتم عليه من النصر أحسن المثوبة وقد بعث إليكم أخوانكم ويستنجدونكم ويستمدونكم ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ فماذا ترون وماذا تقولون؟ فقال القوم بأجمعهم: نجيبهم ونقاتل معهم ورأينا في ذلك مثل رأيهم.

وكتب سعد بن حذيفة بن اليمان إلى سليمان وفيه: فقد هديت لحظك ويسرت لرشدك ونحن جادون مجدون معدون مسرجون ملجمون ننتظر الأمر ونستمع الداعي فإذا جاء الصريخ أقبلنا ولم نعرج إن شاء الله. .

كذلك أرسل سليمان كتاباً إلى البصرة وبعث به إلى المثنى بن محربة العبدي واستجاب له مع جماعة وقالوا: إنهم موافوه في الموعد.

ولما حدث التغيير في إدارة الكوفة من الجانب الأموي إلى آل الزبير والذي تم على مرحلتين كانت الأولى تمهيدية حتى وصل عبد الله بن يزيد الأنصاري أميراً وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج من قبل ابن الزبير

كان اتجاه التوابين إلى أبعد من إنزال العقوبة بسلطة الأمويين في الكوفة بل كانت بغيتهم جنود أهل الشام وقادة الأمويين الكبار وفي مقدمتهم ابن زياد.

ويقدم المختار في هذه الفترة إلى الكوفة ويطلع على انقياد الناس إلى سليمان بن صرد ولاختلاف النظرتين مع اتحاد العقيدة والهدف فإن المختار كان لا يقر ما سار عليه التوابون من منحى بتأثير مشاعر الندم وأحاسيس الذنب فكان يقول: أتدرون ما يريد هذا ـ يعني سليمان بن صرد ـ إنما يريد أن يخرج فيقتل نفسه ويقتلكم ليس له بعد بالحروب ولا له علم بها.

ولا يكشف المختار بذلك سراً فإن القوم أعلنوا عن إقدامهم على الموت للتكفير عن ذنبهم وصرحوا بأن جهاد القاسطين طريق التوبة..

ولا بدّ أن عبد الله بن يزيد الأنصاري علم ما كان عليه التوابون وما هي غايتهم فتحاشىٰ التأثير عليهم ولم يخضع المحاولات التي ترمي إلى قتالهم وسارع في الإعلان عن ذلك.

والأمر يختلف مع الشطر الثاني من الادارة الزبيرية في الكوفة التي يمثلها إبراهيم به محمد بن طلحة فهو زبيري الجوهر والعمل لا يعجبه موقف ابن يزيد الذي كان في إعلانه كواحد من الشيعة في ذكره مساوئ ابن زياد وجرائم الأمويين. فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة قائلاً:

أيها الناس لا يغرنكم من السيف والقسم مقالة هذاالمداهن الموادع والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ولئن استيقنا أن قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ولنأخذن الحميم بالحميم والعريف بما في عرافته حتى يدينوا للحق ويذلوا للطاعة.

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه كلامه وقال:

يابن الناكثين أنت تهددنا بسيفك وغشمك أنت والله أذل من ذلك إنّا لا

نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل هذا المصر حتى يثلموا بك جدك وأباك.

وتحدث عبد الله بن وآل التميمي بحديث مما قد جاء فيه: . . . فلعمر الله لئن كنت مفسداً ما أفسد أمر هذه الأمة إلّا والدك وجدك الناكثان فكانت بهما اليدان وكانت عليهما دائرة السوء.

وكيفما كان واقع سلطة ابن الزبير في الكوفة فإنها أقرب إلى قلوب الزعماء والرؤساء الذين اشتركوا بقتل الإمام الحسين، وقد كان لسليمان بن صرد ـ رأي في مصيرهؤلاء والموقف منهم. وقد غلب عليه منهج التريث في هذه المرة أيضاً.

ولما تحرك جيش ثورة الندم ليتجه إلى الموقع الذي سيكون ملتقى قوات الشيعة الآخرين في النخيلة ظهرت الرؤوس المجرمة كعمر بن سعد وشبث ابن ربعي وراحت تخطط للقضاء على الرجل الذي لم يهدأ عن ترديد نداء الثأر والعزم على قتل قتلة الإمام الحسين فقال هؤلاء وغيرهم لعبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة: إن المختار أشد عليكم من سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم وأن المختار يريد أن يثب عليكم في مصركم فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس فأتوه فأخذوه بغتة فلما رآهم قال: ما لكم فوالله ما ظفرت أكفكم فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة لعبد الله: شده كتافاً ومشه حافياً فقال عبد الله ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر لنا غدره إنما أخذناه على الظن فقال إبراهيم: ليس هذا بعشك فادرجي، ما هذا الذي بلغنا عنك يا ابن أبي عبيد؟ فقال المختار: ما بلغك عني إلّا باطل وأعوذ بالله من غش كغش أبيك وجدك[1].

(١) ابن الأثير ٤/ ٨٥.

وندع المختار في السجن.. ونتجه بالحديث إلى جيش التوابين وهو على أهبة التحرك إلى غايته.

دار سليمان في أصحابه فلم تعجبه عدة الناس فأرسل من ينادي في المسجد وفي محلات الكوفة بالنداء الذي يثير في النفوس الميتة المشاعر أو تلك التي لم تعرف بعد ما عليها.

كان الشعار الذي رفعه الثوار «يا لثارات الحسين» وقد كان هذه المرة مدوياً يخترق كلّ ناحية في الكوفة فارتجّت أنحاؤها وداخل أهلها ما لم يحسبوه من قبل وارتاع أولئك القتلة الذين ما زالوا في أثواب الشرف القبلي والرئاسة الجاهلية.

وشهدت الكوفة تحرك الحمية الدينية في قلوب الكثيرين ممن لم يلتحقوا بسليمان ويؤيدوا دعوته وهاجوا إلى حيث ينتظر بقواته.

وأوضح صورة لما كان يحدث في تلك اللحظة حين كان أصحاب سليمان بن صرد يرفعون أصواتهم صارخين بشعارهم (يا لثارات الحسين) ما يحدثنا به التاريخ عن عبد الله بن خازم: أنه كان مع امرأته سهلة بنت سبرة ابن عمر بن خازم وكانت من أجمل النساء وأحب الناس إليه فلما سمع النداء (يا لثارات الحسين) وثب إلى ثيابه فلبسها ودعا بسلاحه وأمر باسراج فرسه.

ولم يكن قد استجاب لدعوة سليمان من قبل فتعجبت امرأته وقالت:

ـ ويحك أجننت؟!!

قال: لا ولكن سمعت داعي الله وأنا مجيبه، أنا طالب بدم هذا الرجل حتى أموت أو يقضي الله من أمري ما أحب.

فقالت له: إلى من تدع بُنَيك هذا؟

قال: إلى الله وحده لا شريك له اللهم إني أستودعك أهلي وولدي. اللهم احفظني فيهم. فخرج حتى لحق بجنود التوابين.

وكثير أمثال هذا الرجل ممن استجاب لربه وفرّ من ذنبه ككرب بن نمران الذي كان يصلي في المسجد وكانت الخيل تطوف في الكوفة ويتردد النداء وجاء بعضهم إلى المسجد وهو يردد (يا لثارات الحسين) فخرج كرب حتى أتى أهله فأخذ سلاحه ودعا بفرسه ليركبه فجاءته ابنته فقالت:

ـ يا أبتِ مالي أراك قد تقلدت سيفك ولبست سلاحك.

فقال لها:

يا بنية إن أباك يفر من ذنبه إلى ربه[1].

وتتابع الناس وزاد عِدد الذين الْتحقوا بجيش سليمان بن صرد وقد كان النداء الأخير الذي وجهه سليمان إلى من بقي بالكوفة صرخة أيقظت الشعور بالذنب في تلك النفوس التي غفلت عما هي فيه وانتهت إلى أن محو صفة الغدر والتخاذل عن نصرة سيد الشهداء سيكون بالطلب بثأره والتقى الجميع تحت العمل بأمرِ أمر الله به بني إسرائيل واختاره سليمان منهجاً إذ قال الله لبني اسرائيل: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وتقدر بعض الروايات أن عددهم بعد هذا النداء بلغ عشرين ألفاً أو يزيدون[2].

لقد كانت أشكال الندم وألوان التوبة تنبعث عن إحساس قوي بتدارك وضع المؤمنين الذين وجدوا أنفسهم في دائرة مغلقة من الهواجس ومن الشعور بالتقصير والابتعاد عن الواجب.

---

(١) انظر الطبري ٧/ ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) ابن كثير ٨/ ٢٥١.

فكانت تلك النخبة التي أشعلت الدواخل وأججت الضمائر تجد في وضعها نقصاً فكيف ينتظم الولاء للنبي ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين مع القعود عن نصرة ابن نبيه الداعي إلى دعوته والمجدد لسيرته والناهض بوجه الفساد والطغيان؟

فكانت رغبة عارمة في الشهادة وثورة ميمونة للانتقام لأهل البيت من أعدائهم.

ومن يقرأ أخبار ثورة الندم وحركة التوابين يستبين منها أولاً أنها انتفاضة عربية ودعوة إسلامية اتسمت بالحس الديني العميق والإيمان الصادق اللذين يتعجل صاحبهما لقاء ربه ويعزف عن الوجود ليعالج ما يعتري ضميره.

لقد وجد قادة الحملة التي غادرت الكوفة ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الأخر أن الكثرة مع الاختلاف في الرأي وعدم الاتفاق في الاتجاه لا تجدي فقرروا امتحان الجيش لمعرفة صدق العزيمة وثبات النية.

فتقدم المسيب بن نجبة إلى سليمان بن صرد فقال:

رحمك الله أنه لا ينفعك الكاره ولا يقاتل معك إلّا من أخرجته النية فلا تنتظرن أحداً واكمش في أمرك.

قال سليمان: لنعم ما رأيت.

فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئاً على قوس له عربية فقال:

أيها الناس من كانت أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه فرحمة الله عليه حياً وميتاً ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه ولا غنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله رب العالمين. وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير وما هو إلّا سيوفنا في عواتقنا

ورماحنا في أكفنا وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا.

فقام صخير بن حذيفة بن هلال المزني فقال:

أتاك الله رشدك ولقاك حجتك والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في صحبةٍ من الدنيا همته ونيته.

أيها الناس إنما أخرجتنا التوبة من ذنبنا والطلب بدم ابن ابنة نبينا ﷺ ليس معنا دينار ولا درهم إنما نقدم على حد السيوف وأطراف الرماح.

فتنادى الناس من كلّ جانب: أنّا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا[1].

هذه الحالة يجب أن تستوقفنا كثيراً لأن وراء قيامها أسباباً كثيرة، فقادة التوابين يعرفون ماذا يضم مجتمع الكوفة من جماعات رحلت عن مواطنها الأصلية ونزحت بقبائلها والطمع يغلب على عقولها فيجعلها تظهر الدين تزلفاً وتبقي سلوكها وولائها خاضعاً للمنفعة، وقد شهدت كربلاء نماذج من أعمال هؤلاء الأجلاف الغلاظ حتى أن أحدهم كان يعالج اصبع الحسين ليقطعه ويأخذ خاتماً كان فيه وبأن آخرين كانوا ينازعون العلوية ثوبها.. فتلك مناظر للخسة والدناءة تحمل هؤلاء التوابين على مثل هذا التأكيد ومحاولة تنقية الصفوف.

وقد يكون أن هذه الهبة التي حدثت بالكوفة وجيش التوابين على أهبة التوجه إلى معسكر النخيلة قد جعلت البعض يخشى القعود مخافة أن تكون الكفة للتوابين غداً.

والأهم هو التعريف بواقع الحال وبصورة الواقع الذي عليه حركة التوابين وبمنطق واضح وصريح يجعل سليمان جيشه أمام غاية لا تؤدي لغير الشهادة فليس هناك غنيمة ولا مكسب، وهكذا يخف من يريد لقاء ربه تائباً

---

(١) الطبري.

من ذنبٍ عظيم فلا ذهب ولا فضة ولا قصور ولا رياش إنما قضية مقدسة وهدف سام ونية خالصة لوجه الله تعالىٰ.

فمن الخير أن يواجه التوابون عددهم برجال علموا مسبقاً ما هم مقدمون عليه فإن الكثرة لا تنفع وهي بدوافع الأطماع، والقلة المؤمنة خير من الكثرة التي لا تعرف ما تسعىٰ إليه وما ينتظرها. ونحن نستخلص من هذه الحالة أن صفة «الانتحارية» كانت قاعدة هذه الحركة.

مكث سليمان في النخيلة ثلاثة أيام وكان شغله أن يصفي جنده ويجعلهم أمام حقيقة الغاية التي يسعون إليها، وقد فتح الباب واسعاً لمن يريد أن يتخلف ويعود إلى أهله ولم يلتفت إلى قول من يرون أن القتلة موجودون في الكوفة فكان رأيه أن ينالوا أولاً من ابن مرجانة لأنه حبس الحسين ونفذ الجريمة وبعد ذلك يكون الأمر أهون.

وفي ذلك كان سليمان يعبر عن التبكيت وما يعاني بحيث لا ينفك من السعي إلى الموت للتكفير عن ذلك الذنب العظيم، ثم أن سليمان كان ينوي أن ينزل الأذى في صفوف جيش الأمويين والانتقام منهم وعلى رأسهم ابن مرجانة عبيد الله بن زياد...

وقد تحركت إدارة آل الزبير في الكوفة بشطريها المعتمدين الأمارة والمالية، حيث ذكرنا أن ابن الزبير بعث عبد الله بن يزيد أميراً على الكوفة وإبراهيم بن حمد بن طلحة على الخراج ولحقوا بجيش التوابين في النخيلة بوفد استثنى منه ابن يزيد كلّ رجل معروف أنه اشترك في دم الحسين فقد أخذ الاضطراب يعم حياة القتلة ويزيدهم خوفاً فكان عمر بن سعد في تلك الأيام لا ينام إلّا في قصر الإمارة مع عبد الله بن يزيد مخافة أن يأتيه التوابون في داره[1].

---

(١) الطبري، ٦٨/٧.

طلب الزبيريون أن يبقى التوابون في الكوفة وأن تتوحد الصفوف لمواجهة الأمويين فرفض سليمان قائلاً:

«لا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالاً وإنّا، إن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله وإن أصبنا فعلىٰ نياتنا تائبين من ذنوبنا».

وتوجه القوم نحو كربلاء فصبحوا قبر الحسين وأقاموا به يوماً وليلة يصلون ويستغفرون وقال سليمان:

اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي الصدّيق ابن الصدّيق. اللهم إنا نشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم».

وكانت نهاية هذه المسيرة إلى عين الوردة وكان عبيد الله بن زياد قد توجه بجيش أهل الشام وكان قوامه ثلاثون ألفاً. ولم تكن صورة الجيش الأموي وحجمه بعيدة عن أذهان سليمان وجنده فقد وصفوا: بأنهم كالشوك والشجر عددهم كثير وحدهم جديد. وأنهم قد أقبلوا في عدة لا تحصى؛ فكان جواب سليمان: على الله توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون ولما قرب أهل الشام في عساكرهم من عين الوردة حيث عسكر التوابين.

شعر سليمان بالفرح وهو يسمع هذه الأخبار فقام يخاطب أصحابه:

فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه أناء الليل والنهار تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ولقاء الله معذرين فقد جاءكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم فإذا لقيتموهم فاصدقوهم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا يولينهم امرؤ دبره إلّا متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا

على جريح ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه أو يكون من قتلة إخواننا بالطفّ رحمة الله عليهم فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة».

وسادت أجواء التهيّؤ للقتال وجعل سليمانُ المسيبَ بن نجبة أميراً إذا هو قُتل فإن أُصيب المسيب فأمير الناس عبد الله بن وآل فإن قتل عبد الله فأمير الناس رفاعة بن شدّاد.

وكان في جيش الأمويين خمسة أمراء : الحصين بن نُمير السكوني وشرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز الباهلي وأبو مالك بن أدهم وربيعة ابن المخارق وجبلة بن عبد الله الخثعمي.

أراد سليمان بن صرد أن يتلقىٰ عساكر الأمويين فيشن عليهم الغارة فبعث المسيب في أربعمائة فارس لهذا الغرض فخرجوا بحملة على الجهة التي عليها شرحبيل فهزموا أهل الشام وأصابوا وجرحوا الكثيرين حتى اضطروهم إلى ترك عسكرهم فأخذوا منه ما خفَّ.

وفي يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادىٰ الأخرة كانت التعبئة على أتمِّها في ساحة الحرب والمواجهة وجعل سليمانُ عبد الله بن سعد بن نفيل على الميمنة والمسيب بن نجبة على الميسرة ووقف هو في القلب وكان الحصين في مقابلتهم بعد أن انهزم شرحبيل وسرحه ابن زياد لقتال التوابين.

قبل أن تبدأ هذه الواقعة الكبيرة أخذت قطعان أمية الذين بعثهم عبد الملك ممن أعمت المنافع بصائرهم وسحبت المطامع عقولهم فذلّوا وخضعوا وباتوا يرددون ما يدعيه الحكام وما يرفعه المتسلطون فدعوا الجيش الذي أمامهم وهو يعيش حالة التلهف إلى لقاء الرب هرباً من

العذاب وتخلصاً من التقريع النفسي الذي أحسوه منذ مقتل ابن بنت رسول الله ﷺ. دعوهم إلى الجماعة.

أيّة جماعة يدعىٰ إليها قادة ثورة الندم وجيش التوابين وهم يبتهجون بهذا اللقاء يمنون الأنفس بقتل ابن مرجانة وأنصار الباطل والفساد ويعدون أنفسهم للذهاب إلى الجنة واللحاق بسادة الأمة وأئمة الهدىٰ.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إذ يدعون سليمان وصحبه إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان والدخول في طاعته[1].

جاء الرد صريحاً بيناً وعادلاً إذ دعاهم سليمان وأصحابه إلى خلع عبد الملك وتسليم عبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يخرجون من بالعراق من أصحاب ابن الزبير ثم يردُّ الأمر إلى أهل البيت ﷺ.

فلما أبىٰ أهل الشام..

ماجت صفوف جيش التوابين وهاجت.. وسرت همهمات ودويٌّ بآيات من القرآن الكريم، وبعبارات الحماس والرغبة في مقارعة أتباع الظلم وأنصار القَتَلة وباتت المعركة لا تحتاج إلّا إلى إشارة أو حركة بسيطة.

فحملت ميمنة سليمان على ميسرة الحصين والميسرة على الميمنة وحمل سليمان في القلب على جماعتهم فانهزم أهل الشام إلى معسكرهم[2] وما زال الظفر لأصحاب سليمان إلى أن حجز بينهم الليل.

وفي الصباح أمدّ ابن زياد جيشه المهزوم بثمانية آلاف مع شرحبيل الذي هزمه التوابون في الوقعة الصغيرة فقاتلهم التوابون قتالاً لم يكن أشد منه جميع النهار ولم يحجز بينهم إلّا الصلاة فلما أمسوا تحاجزوا وقد كثرت

---

(١) الطبري ٧/ ٧٥ وابن الاثير ٤/ ٨٢.

(٢) ابن الأثير ٤/ ٨٩.

الجراح في الفريقين والمدد ما زال متدفقاً على أهل الشام فكانوا عشرة آلاف آخرين قد انضموا إلى جيش أهل الشام.

ولا نريد أن نطيل في تفصيل الحرب التي دارت والتي تغطي تفاصيلها التي ضمتها المصادر ملاحم بطولية وصوراً من الإيمان والشجاعة الفائقة التي فرضت نفسها على رواة التاريخ وراحوا يشهدون بها.

ولكن مما تجب الإشارة إليه أن جماعات المدائن والبصرة كانت في الطريق إلى المعركة وهي تغذّ السير للحاق بجيش التوبة والندم.

استشهد سليمان بن صرد الخزاعي بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة وأبلىٰ وحثّ وحرّض ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله، فأخذ الراية المسيب بن نجبة الفزاري وكرّ على القوم وهو يقول:

قد علمت ميالة الذوائب واضحة اللبات والترائب

أني غداة الروع والمقانب أشجع من ذي لبدة مواثب[1]

وقال المسيب لسليمان:

«رحمك الله يا أخي فقد صدقت ووفيت بما عليك وبقي ما علينا».

وهكذا يخر بطل ليقوم آخر ولن تمحىٰ من الأذهان صورة البطل إنه سليمان وهو ينزل من على فرسه وينادي:

«عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فإليّ».

ويكسر جفن سيفه ويتبعه أصحابه كلّ منهم ينزل من فرسه ويكسر جفن سيفه وتروي المصادر: أن خيلهم انزوت حتى اختلطت مع الرجال.

---

(١) مروج الذهب ٣/١٠٢.

وهكذا استقتل الترابيون[1] وأقدم أصحاب ثورة الندم وحارب أهل التوبة.

وقيل عن المسيب والقول لشاهد عيان: والله ما رأيت أشجع منه إنساناً قط ولا من العصابة التي كان فيهم ولقد رأيته يوم عين الوردة يقاتل قتالاً شديداً ما ظننت أن رجلاً واحداً يقدر أن يبلي مثل ما أبلىٰ ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ لقد قتل رجالاً[2].

وحسب وصية سليمان لما استشهد المسيب أخذ الراية عبد الله بن سعد ابن نفيل وقال: رحم الله أخويَّ منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

ثم استشهد عبد الله بن سعد.

وهنا لا بدّ أن يكون الأمير صاحب الراية عبد الله بن وال وقد كان في تلك الساعة مستلحماً في عصابة فحاول ابن وال أن يبقىٰ متفرغاً للقتال وأن تبقى الراية بيد من كان يحملها ولكنه تذكر وصية سليمان.

ثم استشهد.

وانتهت الراية إلى رفاعة بن شداد البجلي وكان عليه أن يحمي ما تبقىٰ من جماعته فانسحب وفي نفسه أن الجولات لا تنقطع والصولات لا تنتهي فقد أملت الأمانة أن يعود بجماعته وأن يوقف القتال فلن ينتهي الأمر ما دام الباطل لا يكفّ عن العدوان والعتوّ.

وقد بذل رفاعة جهداً كبيراً في إقناع جنده فقد كان أكثرهم يحاول الرجوع ويخالف أمر رفاعة واستطاع رفاعة أن يقنع الذين بقوا في ساحة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الطبري.

المعركة وأيديهم على مقابض السيوف وكلهم رغبة في القتال والموت.
ويحدثنا رواة التاريخ: أن أحدهم أقبل على أهل الشام يشدّ بسيفه وانتهوا إليه وقد عقر به وهو يقول:

إنـــي مـــن الله إلـــى الله أفـــرّ رضـوانـك الـلـهـم أبـدي وأسـرّ

فقالوا له: ممن أنت؟ قال: من بني آدم. فقالوا: ممن؟ قال: لا أحب أن تعرفوني يا مخربي البيت الحرام.

عاد جيش التوابين إلى الكوفة وعلى رأسه رفاعة بن شداد وهو يستعد لجولة جديدة فلن تغيب عن مخيلته مناظر البطولة أو تهدأ حماسة الإيمان في صدره وما أن استقر به المقام حتى بعث إليه المختار من حبسه:

«أما بعد فمرحباً بالعصبة الذين عظّم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حين قُتلوا أما ورب البيت ما خطا خاطٌ منكم خطوة ولا ربا ربوة إلّا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا إن سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون وقاتل الجبارين والمنتقم من أعداء الدين المقيد من الأوتار. فأعدوا واستعدوا وأبشروا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين والسلام»[1].

(١) ابن الأثير وابن كثير.

صدرت الطبعة الأولىٰ من كتابنا «مع الحسين في نهضته» في ظروف كانت فيها شعائر إحياء الذكرى ومواكب الولاء ومجالس العزاء معالم ثابتة تتجدد سماتها بتقادم الأيام ومر السنين ولم يتمكن الحكام عبر مراحل التاريخ من تغيير واقعها أو التخفيف من تأثيرها فقد كانت مواسم إحياء ذكرىٰ الثورة وتخليد النهضة تجمعات صاخبة قد يغلب عليها التفجع والتألم إلّا أن مظاهرها وصيغ إحيائها كانت مجالات خصبة لتجديد الولاء والعهد لتلك الدماء الزكية التي أهدرت والحرمات الكريمة التي انتهكت على الثبات والسير بهدي الثورة ومتابعة النهضة.

فما بين دموع وعبرات الموالين وابتهالات وأدعية الزائرين تعيش أرض المأساة في كربلاء على مدىٰ شهرين مظاهر من المواساة والعزاء.

نداء الثأر

انتهت معركة الطفّ ووضعت الحرب أوزارها وعادت الفئات التي تآلفت واجتمعت على قتال الإمام الحسين إلى مواطنها، وقد كانت السلطة الأموية تحسب أن ذلك انتصاراً، وترى في معركة الطفّ مرحلة جديدة من تاريخها حيث تمكنت من أشدّ الصعوبات، واستطاعت أن تقضي على أهم العقبات، ولكن معركة الطفّ التي مثلت مواجهة جديدة بين مبادئ الإسلام بنقائها وجوهرها وبين تيارات الردّة وسياسات الخروج على الدين، عكست هذه المقاييس، وجعلت من معركة الطفّ انتصاراً لمبادئ وتعميقاً للقيم التي ثار من أجلها الحسين عليه السلام.

لقد خُيِّل للأمويين أن جولة تصفية الحساب التي أرجئت في زمن النبي قد دخلوها الآن، وحققوا النتائج التي عجزوا عن تحقيقها في بداية الدعوة وبزوغ فجر الرسالة، يوم اضطرّوا إلى إشهار إسلامهم وأجبروا على إعلان تحوّلهم عن الجاهلية. وظنّ قادة السلطة الأموية أن ما سيعقب المعركة فترة من الهدوء وانتهاء المعارضة السياسية للانحراف الأموي، فمن يجرؤ على الوقوف بوجه السلطة الأموية التي أقدمت على قتل ابن بنت النبي؟ ومن يتمكن من مواجهة قوتها التي ملأت بطون الأرض التي دارت عليها المعركة، وأرهبت في مسارها كلّ من وقع عليها نظره واستشهاد الإمام

الحسين بحد ذاته أصبح هدف السلطة الأموية لأنه يرمز في نظرها إلى المعارضة، فظنت أن معركة الطفّ ستنهي هذا الرمز وتقضي على مواقف الثورة والمواجهة في وجه الأمويين وتوهمت أنها حققت نصراً سيكون بداية لعودة مجدها الذي طاله الإسلام ونالت منه الثورات المحمدية.

ولكن ما أن أقفل الجند الذين تحمّلوا وزر تنفيذ الجريمة وغادر القوم الذين ارتكبوا الأعمال المشينة والأفعال القبيحة التي شهدتها أرض كربلاء بحق أهل بيت نبيهم، حتى بدأت ظواهر تأنيب الضمير وعلامات الشعور بالذنب، ولم تكن في واقع الأمر معركة الطفّ نصراً يمكّن السلطة الأموية من تحقيق أغراضها، لأن عدوها يمثل: الموقف المبدئي والرسالي والجهادي الذي يرتبط بواقع المسلمين ومبادئهم، ويعيد إلى الأذهان سيرة نبيهم، ويذكرهم بما أوصىٰ النبي من وصايا وما أبداه من رعاية لأهل البيت ليوضح لأولئك الذين أضمروا الحقد ودانوا بالإسلام من غير إيمان وقناعة لمنزلة عترته ولموقعهم في نفسه، عسى أن يرتدوا عما نووه أو يعدلوا عما أضمروه. وكانت هذه العلاقة وهذه المكانة هي موضع اهتمام الحكم الأموي فجند كلّ قواه وكان استخدام العنف وسيلة للحيلولة بين الناس وبين أهل البيت، فسخّر مرتزقته ومؤسساته الأخرى بأساليب دعائية مزورة وملفقة لضمان إرهاب الناس وإبعادهم عن آل النبي.

بدأ ابن زياد بعد انتهاء معركة الطفّ يكمل صفحات جريمته، ويعالج هاجساً أخذ يستبد به، فراح يقرب القوى المعادية للإسلام، والمناوئة لأهل البيت للوقوف بوجه آثار المعركة ونتائجها التي انعكست على مواقف الناس وسلوكهم إذ أفاقوا على هول المصاب، وعظم الحادث فمزقت الفجيعة تلك القيود التي ضربتها السياسة الأموية على حياتهم ووجودهم فأحسوا بخطأ مواقفهم وسرت في المجتمع موجةٌ من السخط والألم الذي يتناول

النفس بالتقريع والتوبيخ، واشتدت بين الناس تيارات الندم فكانت ثورة الندم التي تقدم ذكرها.

وتحرك زعماء الشيعة في أجواء الاحساس بالتقاعس والتقاعد عن نصرة الحسين التي سادت أوساط الكوفة. وبدأ الزعماء الذين حالت اجراءات السلطة الأموية دون إسهامهم في ثورة الحسين واشتراكهم في معركة الطفّ يمارسون نشاطاتهم، وكان في مقدمتهم المختار بن أبي عبيد، الذي أُلقي القبض عليه وهو يتهيأ للخروج لنصرة الحسين، وأطلق سراحه، بعد قتل الحسين، وقد عذب وأهين وقررت السلطة الأموية الحجر عليه، وعدم الاتصال به.

ولكنه استمر في العمل على ما عزم عليه من إعلان الثورة والمضي في طلب دم الحسين وأخذ الثأر من قتلته.

وقد كانت دار المختار منزلاً لرسول الثورة مسلم بن عقيل وبها كانت مبايعة أرسال أهل الكوفة قبل أن يتحول إلى دار هانيء بن عروة[1].

والمختار هو ذلك البطل العربي الذي يدفعه تحمسه لدينه لبذل كلّ ما يملك، ويستهين بالموت في سبيل عزّته ومكانته وقد شهد معركة الجسر سنة ١٣ مع أبيه، وكان في الحملة التي قادها أبوه أبو عبيد بن المثنى الثقفي إلى الجسر والتي أرسلها عمر بن الخطاب إلى العراق، واستشهد أبوه فيها.

نشأ المختار عالي الهمة طموحاً يحمل سيفه ضد الأمويين، وهو من رحالات الشيعة الذين عرفوا بكونهم خصوم الدولة الأشداء، وقد عامله الأمويون بشدة وقسوة إذ رموا به في السجون ووضعوه تحت مراقبة شديدة لا هوادة فيها، ثم قاموا بمحاسبته على حركاته حساباً قاسياً.

---

(١) ثقات ابن حبان ٢٩، ص٣٠٧.

وعاش المختار وهو البطل العربي، ينظر إلى الأدعياء وهم يتحكمون برقاب المسلمين، ويعلن غضبه على تلك الأوضاع، وحاول دفع الشيعة لمزاولة نشاطهم الثوري بعد معركة الطف، وهو في مقدمتهم فكان ممن كاتب الحسين، ودعاه إلى الثورة على معاوية، وفي بيته عقدت الاجتماعات السرية ونزل سفير الحسين ورائد النهضة مسلم بن عقيل، وقد عبر بعض الكتاب عن المختار بأنه «سيف بني عليّ ورجال الشيعة».

ولا زال المختار يفكر في تلك النكسة، ويتجسد أمامه شبح تلك الرزية ويواكب تطورات الشعور بالندم للقعود عن نصرة الحسين وعدم الإسهام في ثورته حتى وصلت الأمور بأهل الكوفة حداً اعتبروا أنفسهم مسؤولين عن دمه ودم أصحابه وأن قتله قريباً من بلدهم وتقاعدهم عن نصرته جريمة لا تغفر وضياع لحقوق النبي، وأن تغلّب ابن زياد عليهم ذلّةٌ وسلوتهم جبن، وتقاعسهم جريمة، فمأساة كربلاء ماثلة أمام أعينهم وصورها المخزية لا تبعد عن خواطرهم، وأهازيج جيش الضلال وهم يترنمون بالنصر، تصك أسماعهم، كما أن رفع شعارات الانتصار للأمويين، تجعل الحياة جحيماً عليهم وتأخذ بأنفاسهم فكانت ثورة التوابين وما انتهت إليه.

وعظم الأمر، وانطلقت أصوات الاستنكار، وحان الوقت لما يطلبه المختار، إذ أصبحت الظروف مواتية لرفع كابوس الجور الجاثم على صدور أهل الحق.

وكان وجود المختار في الكوفة يمثل خطراً على حكومة ابن الزبير الذي انتقل إليه كلّ من اشترك في دم الحسين، فكانوا يثيرون الضغائن حوله، ويحاولون أن يضعوا في وجهه العراقيل، ويثبطوا همم الناس عنه ويبعدوهم عن تأييده لكن دم المأساة وفجيعة الطفّ كانت تسم جوانب حياة الناس بالأسى وتجعلهم أمام أوضاعهم فعندما أعلن المختار ثورته

الإسلامية، وجد الكوفة تتوقد للنهضة، والتوابين قد أعدوا العدة للخروج لحرب الأمويين، ولكن بشكل لا يضمن نجاح الثورة، وتحقيق الأهداف التي يتطلبها الوضع، ويسعى إليها المختار.

إذ التوابون أُناس مستميتون، قد أخذ الندم منهم مأخذه، وحركتهم تعدُّ انتحارية، لأنها تفقد التنظيم الذي يضمن لها البقاء في المستقبل وهذا في نظر المختار يحقق كبير فائدة، والأمر يحتاج إلى تخطيط لنجاح ثورة تقابل حكومة ضربت بسلطانها على جميع الأراضي الإسلامية وهي تحكم بغير ما أنزل الله، وهو بنظرته الثاقبة وتجاربه العسكرية، يحاول توحيد قيادة الجماعات المناوئة، لاتحاد الهدف، فالجميع يدفعهم أخذ الثأر وإزالة غبار الذل بالانتقام من أعداء الأمة، وقتلهم أبناء الرسول وصلحاء الأمة.

وأيّاً كان الأمر فالمعسكر الذي تجمّع فيه التوابون لم يستجب للمختار، ولم يخضع لإرشاده وتوجيهه، وسار التوابون إلى الحرب، فكانت موقعة تاريخية كبرى، أشرنا إليها فيما سبق.

فيما بقي المختار ملتزماً بخطه ونهجه. وينظر إلى قيادة سليمان بن صرد نظرة عسكرية محضة وظل في ظلمة سجنه يتتبع الأخبار ويتسمع الأنباء وقد كان من أسباب ثباته وقوة عزمه أن لديه من الأخبار والإشارات التي وردت عن أهل البيت ما تجعله يستشعر رقة الاستجابة في الجوانح وأنها لا تعدوه وقد راح المختار يبعث برسالة من سجنه إلى رفاعة بن شداد الذي ختم صفحة التوابين وعاد بأصحابه وكانت رسالة المختار كما رأينا توضح منهجه وتدعو رفاعة وجماعة التوبة إلى التهيوء.

حول الثورة:

قامت ثورة المختار، بعصرٍ مضطرب بالفتنة تلتطمُ فيه أمواج المحن

وتصاعد فيه أصوات الاستنكار، فكانت تلك الثورة، موفقّة في تفجيرها في ذلك الوقت، لولا العوامل التي وقفت في طريقها، وغلبة مقاييس القوة والسلطة.

لقد رسم المؤرخون الرسميون، ثورة المختار بصورة شوهاء تبعد عن الحقيقة كبعدهم عن أمانة النقل، وصدق الحديث، فكانت كتاباتهم حولها كتابة تهدف إلى هدف معين، وغاية واحدة، فهي تحوم حول الدفاع عن الحكم الجائر والعهد الأسود، الذي شهدته الأمة في العراق، أيام حكم الأمويين، فهم يكتبون بالأسلوب الذي يتناسب مع الحكم القائم، ولا رابط له بالواقع فكانت كتاباتهم لا تلتزم جانب الحق ولا اعتبار فيها للحقيقة ولذلك فإن البحث عن شخصية لا تدور في فلك السلطة، أو كانت من خصومها، يواجه صعوبات تقف أمام الباحث المتتبع والذي يحاول إظهار الحقيقة وجلاء مرآة التاريخ التي صدأت من غبار الإشاعات الكاذبة.

وكم من شخصيات الأمة وقضايا التاريخ جردت من سماتها وأفرغت من مضامينها طمعاً في نوال الظلمة أو انقياداً للنص واستسلاماً للأخرين.

ولقد بذل الأمويون ـ كما هو معلوم ـ الأموال واستخدموا مختلف الوسائل لإضفاء صفة الشرعية على نظامهم فنجحوا في مقرّ ملكهم وحدود سلطانهم وأثروا على الناس الذين دانوا بدينهم أو توارث الحكام قواعد التأثير في عقول الناس واتهام أهل الإيمان والحمية الدينية بالبدع وإنزال الأذى بأعدائهم.

والمختار من ألدّ خصوم الدولة، فهو عربي طموح وعلويّ ثائر، وشيعي ناقم، فلا غرابة أن وسموا ثورته بأنها ثورة تبعد عن روح الإسلام أو هو ذاته خارج عن حظيرة الإسلام وأنه. . . . .

والسلطة ـ كما هو قانون سياستها ـ تحمل على كلّ حركة ثورية تتسم

بطابع المعارضة وتتهمها بكل قبيح، فلا بدّ لها من تجنيد قوى القمع للإبادة وتهيئة السبل المختلفة للدعاية، وبذل الجهد في تركيز تلك الدعايات لتعمل عملها.

وربما يخدع بعض القراء بما حيك حول تلك الثورة من قصص وضعها القصاصون المسخرون لخدمة الدولة، فأضاعوا الواقع وغطوا الحقيقة.

وسنحاول هنا جلاء تفاصيل التاريخ ووقائع حوادث الثورة وعندما نقف على كثير منها، لا نحكم عليها بالنفي والإثبات قبل الاطّلاع على الواقع الذي تدور في إطاره.

وأن الذين هاجموا المختار اتخذوا شكلين من أنواع الهجوم، وسيلة لنجاح دعايتهم المغرضة.

١ ـ الطعن في عقيدته.

٢ ـ الطعن في الدوافع التي دعته للثورة.

مع المختار في اتهامه:

وجهت الاتهامات القاسية للمختار، وحكموا عليه ولفّقوا حوله طعوناً كثيرة، فحكموا عليه بالكفر ونسبوا إليه أُموراً منكرة، وأوردوا في تاريخ حياته حوادث تبرز شخصيته في إطار الشذوذ والبعد عن الإسلام والانحراف عن الطريق السوّي، ولا نسرع هنا بالحكم على هذه الشخصية، ولا نجعل للعاطفة مجالاً فيما كتب وإنما نتوخى الحق كما هي عادتنا وقد عاهدنا الله على ذلك في جميع ما كتب.

فلا نسرع بالخطى مع من خف في اتهامه، ولا نقف مع الذين حكموا ببراءته بدون تثبت، وإنما نكمل الأمر للعلم ومنطق الحق، فإن أولئك الذين حكموا عليه، واتهموه اعتمدوا أموراً افتراضية لا واقع لها، وما هي إلّا من

نتاج التقليد والاستسلام لأهواء الحكام ومصالح الملوك الذين دأبوا على الإساءة للحركات والثورات التي تهدد عروشهم، وكانت صفة الشيعة وسمة واقعهم وهم ينصرون آل بيت النبي ﷺ وتدفعهم الحمية على الدين إلى مناهضة الذين تجردوا من الإنسانية وتخلّوا عن قيم الإسلام وراحوا يكيلون الضربات وينزلون المصائب بشيعة آل محمد وجملة القول أن الأمانة التاريخية والواجب العلمي يقتضيان تسليط الأضواء على تلك القضايا التي غاض جوهرها تحت ركام القدح وحملات التشويه ومنها قضية المختار.

فلو كان المختار من رجال يزيد وقادة جيش عمر بن سعد لتجنب مؤرخو الحكام ورواة مناقب الظالمين الخوض في سيرته إن لم يختلقوا له الأعذار. إلّا أن المختار لم ينحرف عن مبادىء العدل التي جاء بها الإسلام ولم يبعد عن الالتزام بوصايا محمد في أهل بيته أئمة الهدىٰ وأعلام الإيمان. ولمّا تمكن من الخروج من ظلمات سجن الأمويين وقيود احتجازه، قام بالثأر لقتل الحسين عليه السلام بعد أن حيل بينه وبين التشرف بالقتال دون مبادئ ثورته والاستشهاد بين يديه عليه السلام.

والاتهامات التي وجّهت للمختار تبدو في بادىء الأمر كأنها اتهامات قوية تسندها أدلة وتؤيدها قرائن، فقد أصدروا في حق المختار أحكاماً منها: الكفر والانحراف عن الإسلام، والكذب والزندقة وبمقتضى ما عليه ذلك العصر من الدجل والتمويه، وأن واحدة من هذه تكفي لإبعاد الشخص عن المجتمع، وفصله عن المجموعة الإسلامية، فلا يصحّ اتّباعه ولا قبول دعوته وثبوت واحدة من هذه الأدلة، يكفي للحكم عليه بذلك بدون تردد قالوا: إنّ المختار متّهم بادّعاء النبوة وبنزول جبرائيل عليه وأنه متهم بكذبه على أهل البيت وأنه انتحل حبهم[1].

(١) ابن كثير ٨/ ٢٩١.

كما أنه متهم بارتكاب المثلة التي حرمها الشارع المقدس، وهذه التهم تكفي كلاً أو بعضاً أن تبرز شخصية المختار لكلّ عوامل السخط عليه أو البعد عنه.

ولكن هذه الأحكام ليس لها أصل. وما يدّعونه ليس له صلة بالواقع.

لنقف ملياً أمام هذه التهم لأنها تحتاج إلى استعراض لتحري أدلتها والوقوف على أسانيدها وتتطلب التحقيق.

المختار، كان من قواد العرب المشهورين، وهو سياسي، محنك من الطراز الأول استطاع أن يقيم في العراق حكومة قوية، في وقت كانت الأوضاع فيه غير مستقرة والبلاد هائجة من جراء ما خلفته سياسة الحكم الجائر وأفعال رجاله.

وقد أثبت كعادته في شتى الميادين، وكان ماهراً في الدعاية السياسية والحرب النفسية، فقد كانت له شبكة قوية، تجمع له الأخبار، وتراقب حركات قتلة الحسين، وقد سمى رئيس إحدى تلك الأجهزة، باسم مستعار وهو «ميكائيل» وكان اختار رجلاً آخر يترأس جماعة أسماه «جبرائيل» فكان يعتمد عليه في مهماته ويرسله في أخذ المعلومات في البلدان فيعود إليه، بما وصله من أخبار، وهناك يعلن على الملأ بقوله: أخبرني جبرائيل، أخبرني ميكائيل بكذا وكذا....

ومن هنا وجهوا إليه التهم بأنه يدّعي النبوة، وهنا نتساءل عن مورد استعمال هذا الاسم، هل أن مجرد النطق به يدل على ادعاء النبوة؟ وهل للعاقل أن يحكم بذلك إذ لا عمل يؤديه، فالمختار يقيم الصلاة ويؤم الناس ولا يخالف شيئاً من أحكام الله كما دلت عليه سيرته.

ومن أغرب الأمور، أن الحافظ ابن حجر ذكر في ترجمة المختار أنه كان في أول أمره خارجياً، ثم صار زيدياً، ثم صار رافضياً[1].

ومن الحقّ أن هذا الأمر يبعث التعجب، ويثير الاستغراب إذ تصدر هذه الهفوة، من رجل له، باع في علم الرجال، ومعرفة في علم التاريخ، ويدٌ في علم التشريع، ولكنا اعتدنا أن نلمس أحوالاً لا يغني العلم في ستر نقصها ولا تنفع المعرفة في صيانة صاحبها منها فإن التعصب والانقياد لآراء وأفكار من تأثروا بالملوك الذين حاربوا أهل البيت وخضعوا لإرادة الحكّام الذين نقموا على الشيعة تمسكهم بالإسلام وموالاتهم أهل البيت يقود إلى الخطل ويؤدي إلى الخطأ. فابن حجر نسج على منوال جاهز وردد لحناً معداً سلفاً متى كان المختار زيدياً؟ وزيد بعد لم يخلق، ولم يتزوج أبوه بأمه، لأن أم زيد أمة اهداها المختار لزين العابدين في أيام رئاسته في الكناسة.

ثم كيف يصحّ له أن يقول كان رافضياً، وكلمة الرفض، قيلت بعد المختار، ووضعت في عصر غير عصره؟

. . . إنها كلمة انتحلها الملأ للإسلام للطعن على الشيعة وقالوا إن زيد ابن علي، سمىٰ الشيعة رافضة وكل ذلك من الأساطير المضحكة ومهازل التاريخ المؤلمة[2]

أما وصفه بكونه خارجياً فالأمر لا يحوج إلى مزيد تعب وبيان فالمختار عرف في سياسته وعقيدته أنه على طرفي نقيض مع الخوارج فآراؤه بالخلافة وعقيدته بالصحابة لا تتفق مع الخوارج ابداً فلا حاجة إلى زيادة في البيان، نعم ربما يتمسك القائلون بحضوره مع ابن الزبير عند حصار أهل الشام

---

(١) الإصابة لابن حجر ج٣.

(٢) انظر المجلد الأول / الجزء الأول من كتابنا: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

للكعبة وقد اشترك بعض الخوارج مع ابن الزبير للدفاع عن الكعبة، فربما شمله هذا الاسم وكان الأولى أن يشمل القيادة قبله، ولكن الكذب لا حدَّ له والخيال يفلت عن تصورات العقول أما الكتبي فيأتي في «فواته» بالمضحكات كأنه يحطب في ليل فيقول: كان (المختار) معدوداً في أهل الفضل والخير يتراءى بذلك ويكتم الفسق وكان يضمر بغضَ عليٍّ ويظهر فيه أحياناً لضعف عقله.

ثم يقول:

والفرقة المختارية! من الرافضة إليه تنتسب[1]. وقد نظر إلى ثورة المختار بعين التعصب وكتبوا عنها كما شاءت الأراء المنحرفة، لا كما ينطق به الواقع، واتهموا المختار بتهم متعددة حتى قالوا: إن ثورته لم تكن إسلامية، بل كانت ثورة قبلية.

ولجأوا إلى الحديث النبوي الشريف الذي ينبىء بأفعال الحجّاج وجرائمه القائمة على الكذب والتي تبير الدين والملة التي تأبى أن تقر ملحداً أو تضم مجرماً. لقد دفعه نقصه وسوء سريرته إلى أن يقدم عبد الملك على النبي الأعظم ويفضله على صاحب الرسالة فقال في خطبة له: رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله» وكان يريد تفضيل خليفة الأمويين على الرسول محمد[2]...، واستباح الحرم وقتل أصحاب الرسول وروَّع أهل الورع فقال فيه الرسول ﷺ: «أن في ثقيف مبيراً وكذاباً» وهي الرواية الأشهر عن ابن عمر وشريك وأخرجها الترمذي وأبو يعلى.

فلعبت يد الوضع وجعلته متسعاً لأهوائهم وأن لفظه: يخرج من ثقيف رجلان أو غير ذلك مما يفيد التثنية لأن المختار رحمه الله ثقفي مما يساعد

---

(١) انظر فوات الوفيات للكتبي.

(٢) انظر البداية والنهاية ج٩، ص١٣١.

على الايحاء بأن النبوءة كانت في المختار كما هي في الحجاج فانظر إلى أثر الوضع وتعرّف على الحدّ الذي بلغته نفوس البعض وكيف تحكّم فيها الانحراف وفرض التعصب حتى سمحت لهم أنفسهم أن يسووا بين شخصين بينهما من الفوارق والاختلافات ما بين كلّ كافر ظالم ومؤمن عادل.

وقصة جحدر بن مالك الذي كان قريباً من الحجاج تبين لنا مبلغ كره الحجاج للإمام الحسين حتى أنه أنكر أن يكون الحسين من ذرية رسول الله[1]. فكيف يقرن به المختار وهو الذي نذر نفسه للثأر من قتلة الحسين.

وكيف شمله الحديث، أمحبّته لأهل البيت؟ أم ولايته لعليّ؟ أم قتله أعداء الله وأعداء رسوله؟

ولماذا لا ينطبق الحديث كله على الحجاج وأنه كذاب ومبير أليس هو القائل «أنا ما أعمل إلّا بوحي»[2].

أليس هو الذي فضل عبد الملك بن مروان على رسول الله، وجرائمه أشهر من أن تذكر.

فالحديث يعنيه فهو كذاب فاسق ومبير كافر ولا محل للكذب في حياة المختار وقد أقاموا تهمة الكذب على أمرٍ هو أقرب إلى الفطنة والذكاء والظرافة كما في قضية جبرائيل وميكائيل وهما من غلمانه أو أعوانه فكان يردد اسميهما في أمور ومواقف بقصدها مستعملاً التورية.

وما كان من المختار من تصميم وعزم يدخل في مسلك العدل ويمت إلى المروءة ويتصل بالدين فعندما خرج من سجن ابن زياد قال: قتلني الله إن

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) في تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/ ٧٠.

لم أقتل ابن زياد وأقطع أعضاءه ولأقتلن بالحسين عدد الذين قتلوا بيحيىٰ بن زكريا وهم سبعون ألف».

وهو بهذا العزم يصدع بالحق فقد ورد عن ابن عباس: «أن الله أوحىٰ إلى محمدﷺ أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وأني قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً» أخرجه الحاكم وصححه.

وكان المختار يخاطب من يقع بيده من قتلة الحسين قائلاً: «يا قتلة الصالحين وقتلة سيد شباب أهل الجنة» فأي لهجة صدق تنطوي عليها هذه العبارات.

ويبدو أن السجع الذي اشتهر به المختار ـ وهو غير عاجز عن الإفصاح ببلاغة بيان وحسن أداء ـ كان وراء هذه الاتهامات مما يذكر بسجع وسخافات مسيلمة وقد يكون استعماله للسجع هو كاستعماله للتورية في جوانب من تصرفاته نراها نابعة من خصائص في الشخصية ودوافع نفسية لا تعدو فطنة وميله إلى الأساليب التي تترك أعداءه يتخبطون في أحكامهم وتصرفاتهم.

لقد جنّد المختار كلّ قواه في سبيل هدفٍ يرضى ما بنفسه من مشاعر ملتهبة، فلم يهدأ له خاطر بعد أن حجبته قوى السلطة الحاكمة عن المشاركة في ثورة الإمام الحسين، ووضع أمامه السبل التي تعوضه عما فاته فكانت فكرة الثورة هي الأرجح، ولكن عندما عرض عليه الأمر من قبل التوابين كان له رأي في إرجاء أمر إعلانها إلى مرحلة أخرى ـ ريثما يتمُّ عمله بين الناس، ويستجمع قواهم، ويغير ما اشتهروا به من رغبة عاجلة تحت تأثير مشاعر الندم تجعلهم يرغبون في الموت تخلُّصاً من مشاعرهم وقد كانت أحداث المواجهة الجديدة بين أنصار أهل البيت وبين الجيش الأموي في عين الوردة قد كشفت له عن صحة موقفه، إذا أصبح عليه أن يتناول رؤوس

الجريمة ويلتقط العناصر التي نفذت المأساة. فخروج التوابين كان رداً على ظنون السلطة في أنها استطاعت القضاء على تيار الثورة الحسينية، فأقضَّ ذلك مضاجع بني أُمية، وجعلهم يواجهون من جديد القيم التي حاربوها في ثورة الحسين، والمبادىء التي خُيِّل إليهم أنهم استطاعوا القضاء عليها.

لذا راح المختار يستكمل الخطوات المطلوبة فركز جهده على ملاحقة المجرمين ومطاردة القتلة.

وكان المجرم الأول عمر بن سعد، أشدَّ الناس تنكيلاً وتعذيباً وقد أطلق عليه المجتمع صفة «قاتل الحسين» فكان إذا مرّ بمحمله أشاروا إليه هذا قاتل الحسين.

أسرع عمر بن سعد إلى وجهاء الكوفة، ومن لهم يد عند المختار فاستعطفهم لتحصيل أمان من المختار.

فأجاب المختار وأعطاه أماناً يدل على لباقة المختار ونباهته فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمان من المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد ابن أبي وقاص، أنك آمن بأمان الله على نسلك وأهلك وأهل بيتك وولدك لا تؤاخذ بحَدَثٍ كان منك قديماً[1].

فاطمأنَّ عمر بن سعد بهذا الأمان الذي استعمل فيه المختار تورية، وكان يقصد ما لم يأتِ الخلاء.

ولما رأى عمر بن سعد عقاب من اشترك معه في الجريمة إذ أخذهم المختار بشدة حتى أصبح كلّ منهم لا يعرف كيف ستكون نهايته فازداد قلقه وتضاعف خوفه، فواصل الاتصال بأصحاب المختار لتطمئن نفسه طالباً منهم تأكيد الأمان الذي قطعه المختار على نفسه. وإن كان عمر بن سعد لا

---

(١) الطبري: ٧/١٢٦.

يطمئن إلى ذلك ولكنه كان يداري ما يساوره من مشاعر وأفكار كيفما أدار وجوهها انتهت به إلى القتل.

وفوجىء عمر بن سعد بمشكلة نكدت عيشه وضاعفت مخاوفه عندما اجتمعت نساء الشيعة على باب داره وهن يلبسن السواد ويقمن النياحة على الحسين[1] بشكل محزن وألقينَ الأشعار الحماسية. وأجرين الدموع وعلت صرختهن يندبن الحسين بن علي ويلعن قاتله.

وبدون شك، إن هذه الخطوة من نساء الشيعة بالكوفة لا يمكن لعمر بن سعد أن يتهاون بأمرها فالمنظر محزن والموقف مؤلم، وتجمع الناس على باب دار عمر بن سعد أصبح يحرك المشاعر ويثير الهمم وإن ندم الرجال وصراخ النساء وبكاءهن على الحسين لا يترك مجالاً لعمر بن سعد إلّا أن يتحين الفرصة للهرب فانتقل من داره إلى محلة أخرىٰ وبلغه أن المختار قد سجع بقوله: «لأقتلن غداً رجلاً عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين، يسر بمقتله الملائكة المقربون».

كما قد بلغ المختار انتقال عمر بن سعد من داره ومن موضع إلى موضع فقال: إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه إن يطير لأدركه دم الحسين فأخذ برجله[2].

واستمرت تظاهرة النسوة ونواحهن وندبهن الإمام الحسين على باب دار عمر بن سعد، وتذكُّر مصرعه فأرسل ابن سعد ولده حفص إلى المختار ليكلمه في أمرهن.

جاء حفص سفيراً عن أبيه، عسى أن يجد عند المختار، ما يهوِّن به

---

(١) تنزيه المختار للمرحوم الحجة السيد العاملي.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٧٣.

كربة أبيه، الذي ضاقت الدنيا بعينه، فقال للمختار: ما بال النوائح يبكين على باب أبي؟!

فقال: إن الحسين أهلٌ للبكاء عليه.

قال حفص: أصلحك الله، انهنّ عن ذلك؟

قال: نعم.

وأمره بالجلوس، ثم بعث أبا عمرة ليأتيه برأس عمر بن سعد، فإذا به وحفص واقف بين يدي المختار[1]، وكان أبو عمرة قد جعل الرأس في أسفل قناة، حتى وضعه بين يدي المختار، فنظر حفص إليه فقال: أتعرف هذا الرأس؟

قال: نعم، ولا خير في العيش بعده

فقال: صدقت، ثم ضرب عنقه[2].

وتجرد المختار لمعاقبة من اشترك في حرب أهل البيت في كربلاء، وقال: ما من ديننا أن نترك قوماً قتلوا الحسين يمشون على الأرض أحياء في الدنيا آمنين، بئس ناصر آل محمد أنا، اطلبوا لي قتلة الحسين فإنه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهّر الأرض وأنقّي المصر منهم.

وأرسل جيشاً تحت قيادة، مالك بن عمرو النهدي إلى القادسية وكان فيها جماعة من المشتركين في قتل الحسين، فقبض عليهم، حتى أدخلهم على المختار بن أبي عبيد عشاءً.

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٣٢٤.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٣.

فقال لهم: يا أعداء الله وأعداء كتابه، وأعداء رسوله، أين الحسين بن علي؟ أدوا إليَّ الحسين، قتلتم من أُمرتم بالصلاة عليه في الصلاة!

قالوا: رحمك الله بعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا.

قال: فهلّا استبقيتم الحسين وسقيتموه.

ثم قدم رجلاً سلب برنس الحسين، وأمر بقطع يديه ورجليه وأمر بقتل الباقين[1].

وأرسل المختار عبد الله بن كامل إلى زيد بن رقاد، وهو قاتل عبد الله ابن مسلم [بن عقيل] وكان من أسود الخلق.

وقد سلبت من قلبه الرقة والرحمة، حدث عن جريمته في أثناء محاكمته فقال: لقد رميت فتى عندهم (أي من أهل البيت) بسهم وأنه لواضع كفّه على جبهته، فما استطاع أن يزيل كفه على جبهته وذلك الفتى هو عبد الله بن مسلم وحين أتاه السهم قال: اللهم إنهم استقلونا، واستذلونا فاقتلهم كما قتلونا وأذلّهم كما استذلونا.

فقال: ثم رميت الغلام بسهم آخر فقتلته، ثم جئت فوجدته ميتاً، فنزعت سهمي الذي قتلته فيه من جوفه، فلم أزل أنضنض السهم من جبهته حتى نزعته، وبقي النصل في جبهته [مثبتاً] ما قدرت على نزعه.

وتتبع المختار قتلة الحسين، فلم ينجُ منهم إلّا من الْتحق بابن الزبير إذ كان ابن الزبير أقوى حصن وآمن ملجأ لقتلة الحسين بالرغم من ادّعائه بأنه يطلب ثأراً بدم الحسين، وقد وجدوا تحت سلطان ابن الزبير عندما ملك البصرة، أمناً وسلاماً، بل أصبحوا من المقربين عند السلطان فالْتحق بالبصرة من أكابر المجرمين عدد كبير، أمثال مرّة بن منقد العبدي قاتل علي

---

(١) الطبري ٧/ ١٢٤.

ابن الحسين عليه السلام الذي أفلت بعد أن أحاط به جيش المختار، فضربه ابن كامل بالسيف فاتقاها بيده اليسر ى، فأسرع السيف فيها، وعدا به الفرس وأفلت من يد ابن كامل، ولحق بالبصرة، بمصعب بن الزبير وشلّت يده.

كما التجأ إلى ابن الزبير، شمر بن ذي الجوشن، ولكنه لم يبلغ ما يرجوه من الأمان والدعة، حيث حكم ابن الزبير.

هرب هذا الرجل وهو يحمل أوزار جريمته الكبرى فقد ضاقت به الدنيا ولم يجد له فيها ملجأً، ومن الغريب أن تمنيه نفسه بالأمان تحت ظل سلطان يدعيّ الثأر بقتل الحسين، وهو قاتل الحسين. لولا علمه بأن ..... الجديد الذي لبسه بعد استشهاد الحسين.

هرب هذا المجرم تحت جنح الظلام يقطع الأودية والقفار مع جماعة قد صحبوه، ولكن خيل المختار كانت في طلبه، لحقوه في الطريق، وقتلوه مع جماعته، واحتزوا رؤوسهم وهتافات أصحاب المختار تدوي «الله أكبر قتل الله الخبيث».

ويستولي الهلع على الآخرين من القتلة والمجرمين الذين يلاحقهم المختار وأصحابه تحت شعار «يا لثارات الحسين».

فلما أحاطوا بدار خولي بن يزيد الأصبحي وهو صاحب رأس الحسين اختبأ في مخرجه ووجدوه وقد وضع على رأسه قَوْصَرَّة.

وطلب المختار عبد الله بن عقبة الغَنَوي فوجده قد هرب ولحق بالجزيرة فهدم داره وقتل المختار عروة بن كاهل وقتل عمرو بن صبيح الذي كان يقول: ما قتلت منهم أحداً ـ أي من الحسين وأهل بيته وأنصاره ـ لقد طعنت بعضهم وجرحت فيهم وكان ينام على سطحه وسيفه تحت رأسه فأخذه أصحاب أبي اسحاق المختار في هدأة الليل.

وحين ارتجت الكوفة بنداء الثأر وبدأت المشاعر المكبوتة تعبر عن نفسها وراح الناس يسارعون إلى إخماد آلام التخاذل وأوجاع التبكيت بالإقدام على إنزال العقاب بالمجرمين والقتلة ظهرت في الكوفة تحركات مضادة رأت في حملة الثأر التي يقودها المختار خطراً يسلبها مصالحها ويجردها من مغانمها ولقد كانت ثورة المختار برغم امتدادها إلى شمال العراق واقترابها من جنوبه لا تحتل رقعة واسعة في مواجهة امتداد نفوذ وقوة الذين دفعتهم مصالحهم وأغراضهم إلى الوقوف بوجه الثورة على ما هم عليه من اختلاف فالتقى قتلة الحسين مع آل الزبير وقد كان عبد الله قد ملأه الفرح إذ رحل الحسين عن الحرم لكي لا يستباح لأن شخصية الحسين تمنع عبد الله بن الزبير من تحقيق رغباته والقيام بحركته ثم لما استشهد الحسين تظاهر بالألم أو الادعاء بالثأر ولكن أخاه ورجاله وهو من ورائهم ينقلبون على العلاقة التي كانت للمختار معهم ويأوون القتلة والمجرمين. ومن الجانب الأخر كان الأمويون بتحركاتهم.

فلقد لجأ شبث بن ربعي والْتحق بالزبيريين مستنجداً وطالباً المدد وكذلك محمد بن الأشعث بن قيس وكان في قرية الاشعث إلى جنب القادسية فبعث إليه المختار حوشباً في مائة وقال: انطلق إليه فإنك تجده لاهياً متصيّداً أو قائماً متلبداً أو خائفاً متلدداً أو كامناً متغمداً فإن قدرت عليه فأتني برأسه. فخرج حتى أتى قصره وأحاط به وخرج منه محمد بن الأشعث فلحق بمصعب وأقاموا على القصر وهم يظنون أن محمداً فيه. فأمر المختار بهدم داره وبنى بلبنها وطينها دار حجر بن عدي التي هدمها زياد وفر آخرون غيره إلى صفوف مصعب وأصبحت قضية القضاء على المختار هي قضية ابن الزبير. وهكذا يلتقي الأمويون والزبيريون ويوحدهم العداء للمختار.

دلّلت أحداث ثورة المختار على أن المجتمع الإسلامي ما زال يحتفظ

بروح المبادىء والقيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام، وأن الأمة ترفض انتهاكات السلطة وجرائمها التي أعادت الواقع إلى فترة ماضية تجاوزها الناس بفضل الرسالة المحمدية.

وجاء خروج المختار وثورته تأكيداً على استمرار تلك المبادىء وروح الحفاظ على الدين الإسلامي وقدرة الأمة على إبراز عناصر تستطيع مواجهة الخطأ ومعالجة بالأسلوب المناسب والوسيلة الناجعة.

فقد كانت طريقة ملاحقة المختار لرؤوس الجريمة قد اقتضتها طبيعة الجرم الذي قاموا به والفظائع التي ارتكبوها. وإنّا لنجد في كلّ ما يتناقله الناس ـ دون سند أحياناً ـ عن عظيم انتقام المختار وعقابه للمجرمين تنفيساً عما في قلوب المؤمنين من السخط على قاتلي بيت آل محمد.

لقد كانت حركة الأخذ بالثأر تتمثل في أمرين:ـ

الأمر الأول: الحركة الفعلية في الانتقام، والتي جسّدتها حركة التوابين وأبرزتها بكل عواملها ثورة المختار في انتقامه من القتلة والمجرمين.

الأمر الثاني: في التمسك بمبادىء الثورة والعمل على تنفيذها وتطبيقها وعدم الإذعان للسلطة أو الخوف من قوتها وجرائمها. وفي هذا يكمن البعد المستقبلي ـ كما يقال ـ في نهضة الحسين إذ لم تكن وليدة ظروف معينة انتهت بنهاية المعركة، بل أنها تعبير عن وضع عام يمس المسلمين ووجودهم ومستقبلهم لذا فإن ردود الفعل التي خلقتها جريمة البيت الأموي وأعوانه في كربلاء كانت تحدد مسار الثورة.. وتطورها. فتزيد الناس اقتراباً من المبادىء التي ثار الإمام الحسين من أجلها، وتجعل البيت الأموي المنحرف أمام حالات دائمة من المعارضة والثورة.

ومن هنا فإن نهضة الحسين قد حدّدت للأجيال طريق المواجهة ضد كلّ

حكم منحرف ومتسلط، وبقيت مبادىء النهضة مناراً يهدي الثوار في كلّ حين.

كانت نهضة التوابين نهضة إخلاص وعقيدة، وندم على ما فاتهم من الفوز بنصرة الحسين، والشهادة بين يديه، عندما تقاعدوا عن نصرته، لا خيانة منهم، ولا وهناً في عزائمهم. . . . لكنهم لم يحسبوا، لما جرى على الحسين حساباً ولم يدر في خلدهم أن يجري عليه ما جرى، فالحسين سبط رسول الله، ووصاياه في الحسن والحسين، ما زالت تطرق أسماع بقية الصحابة، وألسنتهم تلهج بها، وقد حفظها التابعون، والحسين هو الشخصية التي تجسدت فيه آمال الأمة، وفيه رجاؤها في إزالة كابوس الجور والظلم ورفع ذلك الانحراف الذي جرَّ على الأمة الويلات وزرع في النفوس اليأس.

فإذا اختفت حقيقة آل أبي سفيان في الشام تحت أغشية الطمع وبذل الأموال وتمكن أولاد أبي سفيان من جعل الشام كما يرغبون من حيث أهلها وجندها ونظامها منذ يوم استلم يزيد بن أبي سفيان الأمارة في عهد أبي بكر ولما توفي قررت سلطة الخلافة في المدينة تعيين أخيه معاوية فكان هذا التعيين مشاركة في رسم الأقاليم حسب التطلعات القبلية والتي كان أخطرها وأحقرها تطلعات الأمويين والتي اشتدت لما راحت سلطة عمر توسع ليزيد نفوذه وتضم إليه أجزاء أُخرى من الشام فضلا عن إقراره في منصبه[1] وينتبه عمر إلى المؤشرات الصغيرة ولا ينتبه إلى العامل الأساس في المظاهر التي ينكرها فقد روي عن ابن عمر أنه قال: بلغ عمر بن الخطاب أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام فذكر قصة له معه وفيها[2]: يا يزيد أطعام بعد

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥، ص٤٠٦.
(٢) الإصابة.

طعام؟ والذي نفسي بيده لئن خالفتم عن سننهم ليخالفن بكم عن طريقتهم فهلا حمل الخليفة عمر مثل هذه المخالفة على إغلاق نافذة الانحراف وإبعاد آل أبي سفيان عن مقدرات الأمة الإسلامية وقد وضحت معالم مخالفتهم للسنن وهم من أصل واحد وعلى سلوك واحد فما يزيد في النهمة لأكل الطعام والتعدي على حقوق الناس ومخالفة الإسلام بأقل من خليفته معادية الذي دعا عليه النبي محمد فتحولت النهمة إلى بطنة ومرض لا يملك معاوية لها علاجاً[1].

أقول: إذا تمكن رجال. . . . الجاهلية وقادة الموتورين من أن يقيموا دولتهم ويؤثروا في طبائع الناس وأفكارهم وأقوالهم فإن مهد الرسالة ومهبط الوحي لم يداخل أهلهما شك يوماً في سوء معتقد هؤلاء الطلقاء وكذلك أولئك الصفوة والأخيار الذين ارتحلوا إلى العراق واستقروا بها بقيت حقيقة الأمويين كما هي لم تؤثر بها محاولات المتزلفين ورجال السوء وعلماء الجور الذين خلعوا الحشمة وتجردوا من قيم الأمانة والحمية على الدين وراحوا يعملون بأجرة فيصوغون بقوالب دينية إسلامية مفتريات وأكاذيب بمتون وأسانيد تترجم رغبات الأمويين في إخراج ملكهم وإظهار جورهم بمظهر ديني فويل لهم من عذاب يوم عظيم.

وقد كان الإمام الحسين يدعو إلى العمل بسنة النبي محمدﷺ وشريعة جده ويعمل على إصلاح أوضاع الأمة وتخليصها من حكم الانحراف والجاهلية وقد وضع في منهجه الدعوة أولاً وتوقي ما يعده الأمويون له من هلاك وليس الأمر بغريب عليه فهو على علم بما كان من حديث جدهﷺ إذ

---

(١) لما قدم النسائي إلى دمشق سنة ٣٠٢ سأله أشياع الأمويين أن يفضل معاوية على الإمام عليعليه السلام فقال: ألا يرضى معاوية رأساً برأس حتى يفضل علياً وسألوه عما يرويه لمعاوية من فضائل فقال: ما أعرف له فضيلة: إلّا «لا أشبع الله بطنه» وهو قول النبيﷺ وكان ذلك سبب موته.

نقل وصرح ما أخبر به جبريل من استشهاده حادثة دموع النبي الأعظم لما سمع ـ كما روتها الصحاح وجاءت في السنن المنقولة ـ في ذهنه عليه السلام لكن الأمر لا بدّ أن يتبع طريق الإصلاح لإقامة الحجة ولا بدّ أن تجري الأحداث على ضوء ما جرى به القلم وقدر لأهل البيت من مسؤوليات ونهايات يقبلون عليها بقناعة وقد كان على أبي الثوار أن يمضي بمحاولات التمهيد ليكشف للأمة ما عليه الأمويون وما خططوا وتظهر حقيقة ما عزموا عليه.

فكيف يستطيع مسلم يقول: ربي الله ويشهد أن محمداً رسوله أن يتصور أن جهة مهما كان إجرامها وانحرافها وخستها تقدم على إنزال المصيبة بأهل بيت محمد بذلك الشكل الذي يدل على كفرهم ووحشيتهم وسقوطهم.

ولذلك كانت نهضة التوابين لا ترضى بغير الموت لأن الحياة أصبحت بين أمرين يعاني منها هؤلاء الكرام: الشعور بالذنب والخطأ وتحكم بني أمية وبقائهم في الحكم فهي عملية تلاحق الطغاة والمجرمين على وقع صدىٰ دعوة الحسين ورجع صوته الذي يملأ آفاق العراق ويهز وديانه.

يقول أعشىٰ هَمْدان:

توجّه من دون الثّنية سائراً ... إلى ابن زياد في الجموع الكتائبِ
فساروا وهم من بين ملتمس التُّقى ... وآخر مما جرَّ بالأمس تائبِ
فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلاً ... عليهم فحيوهم ببيضٍ قواضبِ

ويقول عبد الله بن الأحمر:

فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى ... بغربية الطفّ الغمام الغواديا
فيا أمة تاهت وضلّت سفاهة ... أثيبوا فارضوا الواحد المتعاليا

فكشفت عين الوردة والموقعة الجديدة بين أهل الإسلام والموتورين عن حالات من الإيمان ـ كما مر بنا ـ ودوافع إسلامية جمعت خيار القوم في العراق وأفضل الزعماء فكانت ملحمة بطولية تسارع فيها الشيعة إلى الموت وفي أذهانهم طيف السبط وتهافتوا على الاستشهاد وفي عيونهم مرأى الرسول محمد ﷺ.

وكما قلنا ـ فإن المعركة الخالدة لم تكن نصراً للأمويين بكل المعاني وحتى العسكرية منها إذا أخذنا بنظر الواقع لأن أسباب معركة كربلاء لم تكن من أجل فتوحات أو انتصارات حربية بل كانت معركة بين مبادئ الرسالة المحمدية وبين عوامل الفساد والردة فلذلك فإن نشوة الظفر أو النصر التي توهّمها الأمويون وأعوانهم ليست عسكرية بل نشوة انتقام وسكرة ثأر فهذا ابن مرجانه يريد أن ينتقم من الدين الذي فضح نسبه وجلله بالعار في مجتمعه حتى راح يلتمس القوة ويتقرب إلى الأمويين ليستر بالسلطان نقصه ويجعل من الحكم وسيلة لرسم الصورة التي يريدها في المجتمع عنه.

وهذا يزيد لا ينسى أجداده وأخوال أبيه ورجال قومه وأهله المشركين في بدرٍ وحُنَين؟

فهي إذن نشوة نصر تعود بالأذهان إلى مراحل المواجهة الأولىٰ وسني الدعوة؟! حلت ظروف تساعد على الانتقام والثأر فكانت معركة كربلاء الخالدة.

خالدة برجالها، خالدة بمبادئها، خالدة بنهجها لأن المواجهة بين الإسلام وبين عناصر الفساد والانحراف قائمة؟

فكم من أمثال ابن سمية وابن مرجانة؟ ومن أمثال عمر بن سعد؟ ومن أمثال معاوية ويزيد؟

فحتى اليوم تتكالب قوى الفساد والظلم وتحشد قواها لمحاربة أنصار نهضة الحسين ورجال دعوة الطف؟

وكلهم ما بين ناقص ليس أهلاً لتولي أبسط أمور المسلمين وبين مسعور مهتز يحمله ضياع النسب ودناءة المحتد أو يهودية الأصل على معاداة مظاهر الانتصار لثورة الحق وموالاة السير على طريق كربلاء. وستبقى هذه المواجهة لأن حكام اليوم ليسوا بأقوى من حكام الأمس. وشيعة اليوم ليسوا أقل تصميماً أو عزماً من شيعة الأمس والله المستعان.

إن حركة الأخذ بالثأر في جانبها الآخر الذي نهض به رجلنا الثائر الذي بوركت حركته واستقبلت من أهل بيت النبوة بالرضا والعرفان كانت تتجه إلى أبعد مما كان يتجه إليه التوابون لأن المختار رجل قد عركته التجارب ومرَّ بمآزق كثيرة فما زاغ عن ولائه لأهل البيت وما تخلىٰ عن عقيدته وهو فارس شهد البيت الحرام بطولاته وهو يدافع عن حماه ضد الأمويين وخلاصة القول: أن المختار قد ذاق مرارة المعاناة، واطّلع على الأحوال التي تسود الأمة بعد معركة الطفّ واستشهاد الإمام الحسين.

وهو منذ خروجه من سجن ابن زياد ورحيله إلى الحجاز وضع لنفسه خطة وكان يزداد صلابة كلما تعرض إلى السجن والمطاردة والنفي.

ولقد كان يعرف منذ صباه بانقطاعه إلى أهل البيت أي منذ كان بالحجاز بعد استشهاد أبيه في معركة الجسر. ولما كان في العراق كان مع رجال الشيعة في معاناتهم وسجونهم فكان مع الشهيد ميثم التمار في سجنه عندما أخذه ابن زياد وأدخله عليه فقيل لعبيد الله بن زياد: هذا ـ أي ميثم ـ كان آثَرَ الناس عند علي قال: ويحكم هذا الأعجمي؟! فقيل له: نعم، فقال له: أين ربك. قال ميثم رحمه الله: بالمرصاد للظلمة وأنت منهم قال: إنك على أعجميتك لتبلغ الذي تريد، أخبرني ما الذي أخبرك صاحبك أني فاعل بك؟

قال: أخبرني ـ أي الإمام أمير المؤمنين علي ـ أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة قال: لنخالفنه. قال: كيف تخالفه والله ما أخبرني إلّا عن النبيﷺ عن جبرئيل عن الله ولقد عرفت الموضع الذي أُصلب فيه وإني أول خلق الله أُلجم في الإسلام فحبسه وحبس معه المختار ابن أبي عبيد فقال ميثم للمختار: إنك ستفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين فتقتل هذا الذي يريد أن يقتلك.

فلما أراد عبيد الله أن يقتل المختار وصل بريد من يزيد يأمره بتخلية سبيله لأن عبد الله بن عمر زوج أخته صفية كان قد شفع له فخلاه وأمر بميثم أن يصلب فلما رفع على الخشبة عند باب عمرو بن حريث قال عمرو: قد كان والله يقول لي إني مجاورك ـ وكان عمرو لا يفهم قصد الشهيد ميثم. وجعل ميثم يحدث بفضائل بني هاشم وهو على الخشبة فقيل لابن زياد: قد فضحكم قال: الجموه. فكان أول من أُلجم في الإسلام فلما كان اليوم الثالث من صلبه طُعن بالحربة فكبّر ثم انبعث في آخر النهار فمه وأنفه دماً[1].

بهذه الأجواء كان المختار يعيش بين ظلمة السجن وبشارات الأتقياء ويستقرّ في الكوفة التي تهزها في كلّ يوم جريمة من جرائم ولاة الأمويين.

فهو على بصيرة من أمره. ويرىٰ أن مجرىٰ الحوادث في حياته يتجه إلى غرض، وقد التقت البشارة بما كان في نفسه، فلقد غيبه السجن وأقعده عن الاشتراك بنهضة الحسين.

وبعد المعركة كان المجتمع يزداد تحللاً وتتفاقم مشاكله التي كانت من

---

(١) الإصابة لابن حجر ٣/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

جراء الابتعاد عن تعاليم الإسلام، ومن نتائج سوء أخلاق الحكام رميهم تعاليم القرآن ومبادىء الإسلام وراء ظهورهم.

غير أن في أرجاء المجتمع تبقىٰ تلك النفوس الحائرة التي تعاني من أزمة داخلية تخلقها الأوضاع العامة التي تسود البلاد.

وقد جاءت معركة عين الوردة لتقرّب الناس أكثر من واقع الحال وتجعلهم ينظرون إلى الانحراف والفساد على ضوء ما تكشفه امتدادات ثورة الإمام الحسين فليس أولئك الذين قادوا معركة عين الوردة بأناس يسهل تناسي أفعالهم أو تجاهل أعمالهم فلهم في المجتمع مكانة ومنزلة وقد هبَّ الناس إليهم وتلاقوا على ذلك النهج.

أما المختار فقد بقي في وسط دائرة الشيعة لكنه ابتعد عن اتجاه التوابين ومسيرة الندم التي يغلّفها الورع والتي تسعىٰ إلى النهاية للخلاص من الواقع بكل أشكاله.

وقد بقيت أصداء جريمة المقاتلين من أهل الكوفة الذين أسهموا بالمأساة، وأصداء حركة التوابين تثير في مجتمع الكوفة ردود الفعل وتزداد نبرة الألم والتأثير في كلّ البيوت.

وبعد أن انتهت واقعة عين الوردة أصبحت مشاعر الألم أكثر ظهوراً وتأججاً لأن صفحة أخرىٰ قد طويت من المواجهة التي يمكن أن يهرب فيها الإنسان من واقع الصمت المرفوض أو التخاذل الجبان إلى صفوف الثأر ونصرة داعي الحق.

بقي قتلة الحسين يواجهون أعمالاً تليق بما ارتكبوه من جرائم إضافة إلى ما كان من فعل الله من عاهات أصابت أبدان قتلة الحسين وآفات لحقت

بهم فمن عمي ومن يبست وتقطعت الجارحة التي اقترف بها جرمه ومن اسودَّ وجهه.

ومن مرض فلا يعرف سبب مرضه ومن تقيح ومن احترق وهم بين مجتمعهم كانوا موضع أحاديث الناس فالسبب معروف وهذه آيات غضب الله. فالمجتمع يواجه هذه الحالات ويسمع بحركات الثأر والتوبة فهو مهيّئ للدعوة التي تخرجه من حالة الانتظار والمراقبة إلى حالة الفعل والمواجهة.

في داخل البيوت ومن عوائل القتلة والمجرمين تظهر أيضاً ردود فعل وأعمال تتجاوب مع حالة المجتمع العامة فهذه العيوف بنت مالك زوج خَوْلي بن يزيد الأصبحي كانت تناصبه العداء منذ جاء برأس الحسين فلما أرسل المختار حرسه ليأتوه بخولي ـ كما تقدم ـ وأحاطوا بدار خولي اختبأ في مخرجه فلما طلبوه في الدار خرجت امرأته العيوف فقالوا لها: أين زوجك؟ فقالت: لا أدري أين هو. وأشارت بيدها إلى المخرج فدخلوا فوجدوه فيه.

ولما قضت العصبية القبلية أن تتستر بالعثمانية وأن تتجمع كان نداء يا لثارات الحسين منار أصحاب أهل الدين والنسك والتقوىٰ فعندما دخل أصحاب المختار جبانة السبيع وهم ينادون يا لثارات الحسين وتجاوب معهم الناس مجيبين أيضاً: يا لثارات الحسين» صاح الذين بدأوا بالتحرك لحماية القتلة: «يا لثارات عثمان» فقال لهم رفاعة بن شداد ـ وكان من كبار رجالات الشيعة الذين نذروا أنفسهم للأخذ بالثأر والجهاد، وكان ناسكاً عابداً: ما لنا ولعثمان لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان. فقال له أناس من قومه: جئت بنا وأطعناك حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت: انصرفوا ودعوهم. فعطف عليهم وهو يقول:

أنا ابنُ شدّاد على دينِ علي   لستُ لعثمان بن أروىٰ بِوَلي

لأصلينَّ اليومَ فيمن يصطلي بحرٌ نارِ الحربِ غيرِ مُؤتلي

فقاتل حتى قتل[1] وقد مر بنا ذكره في ثورة الندم إذ كان من قادتها وحامل اللواء الذي عاد بالجماعة إلى الكوفة.

وتمتد نتائج الثورة إلى خارج العراق فنجد شريك بن جدير التغلبي وهو من أصحاب الإمام علي شهد صفين مع الإمام وأصيبت عينه فلما انقضت أيام الإمام علي لحق شريك ببيت المقدس فأقام بها فلما استشهد الإمام الحسين عاهد الله تعالى إن ظهر من يطلب بدمه ليقتلن ابن زياد أو ليموتن دونه، فلما ظهر المختار للطلب بثأر الحسين بايعه ثلثمائة على الموت وأقبل إليه وسار مع جيش إبراهيم بن مالك الأشتر، والتاريخ يعيد نفسه في ذكر البطل مالك في قصته مع الزبير في معركة الجمل فقد حمل شريك بن جدير على الحصين بن نُمَير السَّكوني قائد ميمنة جيش ابن زياد وهو يظنه عبيد الله ابن زياد فاعتنقه وهو يصيح: اقتلوني وابن الزانية. فقتلوا الحصين[2].

لقد تجاوبت الكوفة بنداء المختار واهتزت لأخذ الثأر فكان أشراف الناس يبايعونه.، وقد جعل المختار بيعته كما يلي: تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء، قتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم فإذا قال الرجل نعم. بايعه.

ولما كان لا بدّ من التصدي لحرب الأمويين بعد أن وجهوا جيشهم وقوادهم بقيادة عبيد الله بن زياد كان إبراهيم بن مالك الأشتر على رأس الجيش الذي أعد لقتال ابن زياد وأخرج معه المختار فرسان أصحابه ووجوههم وأهل البصائر ممن له تجربة ولما ودعه المختار قال له: خذ عني

---

(١) الطبري ٣/٤٥٨ حوادث سنة ٦٦.

(٢) الطبري ٣/٤٨١ حوادث سنة ٦٧.

ثالثاً: خفِ الله عز وجل في سر أمرك وعلانيتك وعجل السير وإذا لقيت عدوك فناجزهم ساعة تلقاهم.

ومن المعروف أن وصايا الرؤساء في مثل هذه المواقف تتضمن الأمور الملحّة حتى أن صاحب الشأن الأول يصرح بما يرمي إليه ويهدف من المسير والحركة والتعبئة إلى أخر ساعة تبقيه قيادة الجيش على مقربة من قائدها الأعلىٰ ومثل هذه الحال تسمح بإظهار الأغراض والأهداف وبيان الخطة العسكرية. فالمختار هنا يقتصر على أمر بالغ الأهمية يتصل بالدين والعقيدة فتكون الأولىٰ من الثلاث التي تضم وصيته لقائد جيشه الخوف من الله عزَّ وجل في سر الأمر وعلانيته.

وتلك من دلائل إخلاص المختار لما عاهد الله عليه ومن وجوه إيمانه الشديد وتمسكه القوي بأهداب الدين، فلو نظرنا إلى وصايا الملوك الأمويين لقوادهم لرأيناهم على النقيض مما عليه المختار لا يخطر لهم الخوف من الله ببال بل كلّ ما يشغلهم ويدور في أذهانهم قتل من يقف بوجه ظلمهم وإنزال الأذى به بكل السبل.

نطلع على منهج المختار وهو يستعد لمنازلة بني أمية فلا يميل إلى منطق الظلمة أو أقوال المتجبرين بل يظل بمنطق الصدق يخاطب قواده فقال ليزيد ابن أنس: يا يزيد بن أنس إن العالِمَ ليس كالجاهل وإن الحق ليس كالباطل وإني أخبرك خبر من لم يكذب ولم يكذِّب ولم يخالف ولم يرتب وإنّا المؤمنون الميامين الغالبون المساليم وإنك صاحب الخيل التي تجرّ جعابها وتضفر أذنابها حتى توردها منابت الزيتون غائرة عيونها لاحقة بطونها اخرج إلى المَوصل حتى تنزل أدانيها . . . إلى آخر وصيته[1].

بهذه الأفكار التي تقوم على الإيمان وإلى مثل ذلك كان يدعو قواده فلا

---

(١) الطبري ٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ حوادث سنة ٦٦هـ.

تجد للقسوة ـ كما اعتاد القواد وهم يهيئون جيوشهم ـ أثراً لأن المختار يعلم أن ما يرمي إليه هو ومن يبايعه واضح معلوم فإن القتلة هم الغرض الأول ولو كانوا على رأس كلّ جند الدنيا فأولئك يجري بحقهم القضاء العادل ولا يتصف أي قضاء بحقهم بصفة العدل إلّا أن يكون مناسباً لما فعل أولئك القتلة وكل صاحب وزر في معركة الطفّ له القصاص الذي يحقق العدل ويشفي الصدور.

أما قواده فكانوا على هدى من أمرهم ويسيرون بخط الشهادة الذي يحملهم إلى الفوز بالآخرة فعندما يخبر المختار أحد قواده بأنه سيرسل له المدد ولو لم يطلب منه ذلك لأنه أشد للعضد وأعزّ للجند وأرعب للعدو يجيبه القائد قائلاً: «لا تمدني إلّا بدعائك فكفى به مدداً».

ولما سار هذا القائد والناس تقول له: صحبك الله وأواك وأيّدك وهم يودعونه يقول لهم: سلوا الله لي الشهادة وأيم الله لئن لقيتهم ففاتني النصر لا تفتني الشهادة إن شاء الله.

تلك نفسيات جند المختار وذلك تكوينهم، وقد تجاوبت الأرجاء مع نداء المختار وخطته وكان يختار لكلّ مصر رجلاً من أهل ذلك المصر ممن عرف عنه الإيمان وقدم الصدق وكانت البصرة التي عششت بها العثمانية واجتذبت هوىٰ ابن الزبير وشدت اهتمامه من تلك الأرجاء التي اخترقتها نداءات الثأر فمن قواد المختار كان المثنى بن مخرِّبة العبدي وكان ممن شهد عين الوردة مع سليمان بن صرد الخزاعي ـ كما ذكرنا ـ ثم رجع مع من رجع ممن بقي من التوابين إلى الكوفة والمختار محبوس فأقام حتى خرج المختار من السجن فبايعه المثنى سراً وقال له المختار: الْحق ببلدك البصرة فادعُ الناس وأسرّ أمرك.

فلما أخرج المختارُ ابنَ مطيع عامل الكوفة من قبل ابن الزبير من الكوفة

ومنع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام من الكوفة خرج المثنى بن مخربة فاتخذ مسجداً واجتمع إليه قومه ودعا إلى المختار وقاتل أصحاب ابن الزبير وترددت نداءات الثأر في أنحاء البصرة ثم عملت العصبية دورها وأدت إلى اتحاد الصفوف في وجه المثنى وفي الوقت نفسه كانت العصبية سبباً في أن تحسم المعركة دون أن ينال المثنى أذىٰ بتأثير مالك بن مسمع وزياد بن عمرو ومسيرهما إليه وذبهما عنه مما أطمع المختار فيهما فكتب إليهما بما كان يعتقده من وراء قتاله ورفعه شعار الثأر:

أما بعد.

فاسمعا وأطيعا أؤتكما من الدنيا ما شئتما وأضمن لكما الجنة».

إذ كان المختار يعلم ما تفعله المادة في رجال القبائل ولكنه قال صادقاً بما يفضي إليه طريق القتال وهو مضمون إلى الجنة لأن المساهمة في نداء الثأر إحياء لذكرىٰ السبط الشهيد الذي نهض لإحياء سيرة النبي محمدﷺ.

قال مالك لزياد: يا أبا المغيرة قد أكثر لنا أبو اسحق ـ أي المختار ـ إعطاء الدنيا والآخرة.

فقال زياد لمالك: يا أبا غسان أما أنا فلا أقاتل نسيئة مَن أعطانا الدراهم قاتلنا معه[1].

ولو كتب النجاح لحركة المختار لأدىٰ منهجه في الموازنة وهو يتعامل مع العقليات القبلية والنفسيات الطامعة إلى تعلق ثابت بمبادىء الإيمان والعقيدة ولخفت حدة تحكم الأهواء وظاهرة التحول والتغيير التي اتصف بها الكثير من زعماء القبائل والذين كان لهم النفوذ والسيطرة على قبائلهم لكن بمزيد الأسف انتهت كلّ أعمال هذا الثائر عندما ركب الزبيريون متن

(١) الطبري ٣/٤٦٨ حوادث سنة ٦٦.

العثمانية وطاروا بجناح العصبيات القبلية. فبادروا مواقع الثورة لتشتد نبرات التعصب القبلي والعرقي مما حاربه الإسلام ونهىٰ عنه.

ويغتبط مصعب بن الزبير وتأخذه نشوة النصر فقد حسب أن عرشاً لآل الزبير على وشك القيام وحكماً له ولأخيه دائماً ستظهر أسسه وراح برؤساء أهل العراق ممن هبوا تحت تأثير الحمية القبلية والأطماع والانتصار لأعداء أهل البيت وإن كانوا يحاربون في صف ابن الزبير فابن الزبير معروف بسريرة تشربته كرهاً لآل محمد حتى وصفه الإمام علي بـ (فتى السوء) راح مصعب برؤساء القبائل إلى أخيه عبد الله الذي يسلم عليه بإمارة المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم كلّ مطاع في قومه وهم الذين سارعوا إلى بيعتك وقاموا بإحياء دعوتك ونابذوا أهل معصيتك وسعوا في قطع عدوك فاعطهم من هذا المال.

فقال له عبد الله بن الزبير: جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله. لا أفعل وأيم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام.

والأرجح أن امتناعه كان لحبه المال وشحّه وليس لأن المال مال الله كما أنه رجل يطلب الملك وتتوق نفسه إلى مثل طاعة أهل الشام لا إلى مثل الذين جاء بهم مصعب.

قال له رجل منهم: علقناك ـ أي أجبناك ـ وعلقت أهل الشام.

يقول ابن قتيبة: ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده، لا يرجون رفده ولا يطمعون فيما عنده فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا[1].

---

(١) الإمامة والسياسية ج١، ص٢٥ ـ ٢٦ وانظر العقد الفريد ج٣، ص٥٧.

ومن الأمور التي تلفت النظر هو التحاق موسىٰ بن أبي موسىٰ الأشعري بحركة المختار وهي من الدلالات التي تظهر لنا حجم تألم الناس واستيائهم حتى رفض موسىٰ عثمانية أبيه وخرج على منهج الانقياد والاستسلام للعصبيات، ولا نرىٰ أن كون أُمه بنت الفضل بن العباس هو السبب في التحاق موسىٰ بحركة المختار قد يكون ذلك سبباً مساعداً وليس سبباً بنفسه لا تدخل معه تأثيرات ما أصبحت عليه الكوفة وما نجم عن جرائم الأمويين.

* * *

وبمرورالأيام أصبحت معركة الثأر بقيادة المختار تعمُّ كبار رجالات الشيعة وقوادها، وقد كان أبرزهم إبراهيم بن مالك الأشتر فانضمَّ إلى المختار برباط الموالاة لآل بيت النبي والاعتراف بفضلهم وما أوجب الله من حقهم.

وهنا جدّت سلطة ابن الزبير بالكوفة في مراقبة إبراهيم بن الأشتر والتضييق عليه لأن إبراهيم كان عظيم القدر والمنزلة فارساً شجاعاً مشهوراً بحبه للإمام علي وموالاته لأهل بيت النبي ﷺ وانضمامه إلى المختار واجتماعه به.

سيجعل الكوفة كتلة لا منفذ فيها لابن الزبير وأعوان الأمويين المرتزقة وسيهدد إدارة الزبيريين التي هادنتها الكوفة في ظروف مضطربة ومربكة واستمرت الكوفة على علاقتها بحركة ابن الزبير وكلما كان رجال سلطة ابن الزبير في الكوفة بعيدين عن معاناة أهل الكوفة وتحسس أوضاعهم التي نجمت عن مأساة قتل الحسين ومعركة عين الوردة.

كان أهل الكوفة يصرفون اهتمامهم عن هذه السلطة ويديرون الوجوه إلى زعماء الشيعة ورجال المصر الذين لبسوا شعار الثأر أو ثوب الندم وراحوا يبحثون عن عمل يصون أفكارهم ويحميهم مما وقعوا فيه.

كانت شرطة ابن الزبير في الكوفة قد تولت مهمة مراقبة إبراهيم الأشتر والضغط عليه وكان عليها إياس بن نِضَار العجلي فأرسل إلى إبراهيم: إنه قد كثر اختلافك في هذا الطريق ـ أي الذهاب إلى دار المختار ـ فأقصر عن ذلك فأخبر إبراهيم المختار بما أرسل إليه إياس فقال له المختار: تجنب ذلك الطريق وخذ في غيره. ففعل وبلغ إياساً أن إبراهيم لا يقلع عن إتيان المختار كلّ يوم فأرسل إليه أن أمرك يريبني فلا أرينك راكباً ولا تبرحن منزلك فأضرب عنقك، فأخبر إبراهيم المختار بذلك واستأذنه في قتله فأذن له، وركب إبراهيم في جماعة من أهل بيته وجعل طريقه على مجلس إياس فقال له إياس: يا ابن الأشتر ألم آمرك ألّا تبرح من منزلك فقال له إبراهيم: أنت والله ما علمت أحمق فقال للجلاوزة: نكسوه. فانتضى إبراهيم سيفه وشد على إياس فضربه حتى قتله[1] ثم حاول عبد الله بن مطيع أن يقبض على إبراهيم فوجه إليه بمائة فارس.

وكانت هذه الحادثة نهاية سلطة ابن الزبير بالكوفة والتي استمرت لأوضاع خاصة بالكوفة فكان ظاهر الكوفة من جنب السلطة بأنها مع ابن الزبير وواقع حالها يغلي بأمور ذكرناها فهي مدينة حبلى بأكثر من توأم.

غضب ابن مالك الأشتر وعزم على أن يلقن عمال ابن الزبير الذين أرادوا قتله درساً فأقبل نحو دار الأمارة وعندها لاحت بوادر هبة المختار لنجدة قائده إبراهيم فأقبل في سبعة آلاف فارس وهم يتهادون في موكب قوة وتهتز الكوفة بندائهم الخالد: يا لثارات الحسين فوافاه زهاء عشرة آلاف رجل ممن بايعه على الطلب بدم الحسين[2].

ولا نطيل أكثر في تفاصيل معركة طرد عناصر سلطة ابن الزبير بالكوفة

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٥٥.

(٢) نفس المصدر.

لأنا نركز على الصورة الميدانية التي تظهر عظم استجابة الناس لنداء الثأر ومعركة الإيمان وتدلل على أن المختار كان في حال يتمكن بها من الثورة إلّا أنه كان ينتظر ساعة أخرىٰ غير هذه التي تصدى بها الزبيريون وحاولوا قتل قائده إبراهيم بن الأشتر.

لقد كان فارس مذحج وبطل الكوفة إبراهيم بن الأشتر على مقدمة فرسان الثأر وتمكن أن يقضي على إدارة ابن الزبير وسأل عبد الله بن مطيع الأمان على نفسه فأخرجه المختار وأظهر إكرامه وأمر له من بيت المال بمبلغ.

ويظهر لنا أبو اسحاق في هذا التصرف خلقاً إسلامياً عَربياً راعىٰ فيه جانب ابن الزبير وحفظ له وده فلم يترك رأس إدارته وهو رمز لإمارة عبد الله ابن الزبير يُقتل أو يُهان بل حفظه وأكرمه.. فانظر أي فرق هذا الذي يحدثنا به التاريخ بينه.... قائد معركة الثأر والإيمان وبين أمير المؤمنين عند آل الزبير وتصرفاتهم.

يقول الدينوري: ثم أن المختار غلب على الكوفة ودانت له العراق وسائر البلاد إلّا الجزيرة والشام ومصر فإن عبد الملك قد كان حماها ووجه عماله في الآفاق.

* * *

اقتربت ساعة المواجهة الحاسمة وحلّ أوان الحرب مع رأس الشر وأركان الفساد في الأرض.

وكان ابن زياد قد سار في عسكر عظيم من الشام فبلغ الموصل واستولى عليها.

فسار إبراهيم وأوغل في أرض الموصل فلما دنا من ابن زياد عبأ

أصحابه وكان يرسل الطلائع حتى يبلغ نهر الخازر من بلاد الموصل ونزل بقربه. ونزل ابن زياد قريباً منهم على شاطئ الخازر.

ها قد التقت الفئات في الإسلام مرة أخرىٰ..

فئة تقاتل على التنزيل — وفئة تقاتل عن الشرك

وفئة تقاتل على التأويل — وفئة تقاتل عن الجاهلية

وفئة تقاتل على الإيمان — وفئة تقاتل عن البغي

وفئة تقاتل عن آل البيت الأطهار — وفئة تقاتل عن الأمويين الأشرار

يقف فارس الكوفة وأمير مذحج وابن الأشتر صاحب أمير المؤمنين الإمام علي الذي اقترن اسمه بعهد الإمارة ذلك العهد الذي جسد مبادئ الإسلام وأعطى صورة مشرقة وحية لنظام الإدارة في الإسلام صالحة لكلّ عهد وزمن فكان (عهد الإمام علي لمالك الأشتر) أقدم وثيقة إسلامية لنظام الإمارة القائم على أسس العدل ومبادىء المساواة.

هذا ابن مالك يقود جموع الثائرين الذين قطعوا البراري والوديان من الكوفة حتى الخازر وهي تردد نداءً تهتز كثبان الأرض إكباراً وتتمايل الأشجار إعظاماً وتقشعر الأبدان ألماً. فتأتي الأصوات مرخمة مفعمة مملوءة عزماً: يا لثارات الحسين.

إبراهيم بن الأشتر بشجاعته وإيمانه وحسبه وكرامته في مواجهة ابن مرجانة في لؤم نسبه وعدم إيمانه ودناءة خلقه وخسة منبته الذي هرب من الموت على يد أهل العراق وهو يلبس خمار امرأة واستقبله الأمويون لينزعوا عنه خمار المرأة ويضعوا فوق رأسه مغفر القائد أو ريشة المنتصر.

كانت وصية المختار الحربية أن تكون مناجزة يوماً بعد يوم لا وقعة واحدة، لأن أمية قد جندت كلّ ما تستطيعه لتقف بوجه الخطر الجديد الذي

ترك ثورة الحسين بن علي مستمرة ودائمة لم تهدأ ساعة وفي ذلك تهديد مباشر لحكم أمية الذي تحول الأن إلى فرع آل الحكم طريد رسول الله الذي أخرجه من دار الهجرة وأبى صلوات الله عليه أن يساكنه شخص مثل الحكم الذي امتلأ كرهاً للرسول ولم يعد إليها إلّا بفضل قريبه عثمان بن عفان.

لقد وضع المختار خطة المناجزة لكي يتحاشى المواجهة والاصطدام الشامل فتكون موقعة واحدة تترجح فيها الكثرة وتتحكم في نتائجها العدة. فأراد أن تكون مناجزة متكررة تظهر فيها شجاعة جنده وعزيمة فرسانه وكانت قوة اندفاعهم وإيمانهم واضحة لديه يعلم أنها ستحدث حالات من البطولة والإقدام ما يدهش جموع الباطل وقطعان المصالح التي قادتها أمية إلى الحرب لتموت دون الفساد الانحراف.

لقد كان قائد جيش الثأر إبراهيم لم يغمض له جفن حتى إذا كانت الأيام الأولىٰ عبّأ أصحابه وكتب كتائبه وأمر أمراءه ولما صلّى الصبح خرج فصف أصحابه وألحق كلّ أمير بمكانه ونزل إبراهيم يمشي ويحرض الناس ويمنّيهم الظفر وسار بهم رويداً فأشرف على تل عظيم ثم ركب إبراهيم وسار على الرايات يحثهم ويذكر لهم فعل ابن زياد بالحسين وأهل بيته من السبي ومنع الماء وحرضهم على قتله[1].

فتستجيب النفوس ويعلو الهتاف، وأراد ابن زياد أن تكون وقعة واحدة يضمن بها فعل عدة جيشه وسلاحه فمال على جيش إبراهيم بحملة من كلّ الجوانب ووضع أهل الشام هدفهم صاحب راية إبراهيم فقتلوا صاحبها مرتين وكان لذلك أثره في الميدان لأن الراية كانت تعني الثبات واهتزازها ونزولها كان يؤثر مرآه بكل الأحوال في نفوس الجند، إلّا أن البطولة والفروسية يمكن

(١) ابن الأثير ١٢٨/٤ والطبري ١٤٧/٧ وفيها زيادة يكذبها الواقع إذ يذكر الطبري أن إبراهيم في تحريضه ذكر أن ابن زياد منع الحسين أن يأتي ابن عمه فيصالحه لذا كانت رواية ابن الأثير أقرب إلى الحقيقة لأنه حذف وشذب.

أن تتغلب على الموقف فإن إبراهيم لما علم أن مخطط أهل الشام مضاد لخطته الحربية التي هو عليها وأنهم يريدون أن تكون الحرب خاطفة ليضمنوا بها رجحان كفتهم كشف هذا الليث رأسه وبقي في الميدان حاسراً.

أي إيمان هذا الذي عليه ابن الأشتر؟ أي بطولة تكمن في قلب هذا الرجل!

استطاع أن يغير ما كاد أن ينجح في تحقيقه الأمويون وكان ينادي: إليّ يا شرطة الله أنا ابن الأشتر.

وكان الثالث الذي أخذ راية إبراهيم هو عبد الله بن ورقاء بن جنادة وكان على أسمى حال من الإقدام وأنبل صورة من البطولة تخترق نداءاته وقع الحوافر والسيوف.

أخذت المعركة تتركز في شخص إبراهيم الأشتر وبرباطة جأش قاد جنده وضرب أروع أمثلة البطولات وصور القيادة والحنكة في مواجهة الجموع التي التفت حوله وأحاطت به كالجدار. قال إبراهيم لأصحابه: اقصدوا هذا السرار الأعظم فوالله لئن هزمناه لانجفل من ترون يمنة ويسرة انجفال طير ذعرت.

«فمشى أصحابه إليهم فتطاعنوا ثم صاروا إلى السيوف والعمد فضربوا بها ملياً وكان صوت الضرب بالحديد كصوت القصارين. وكان إبراهيم يقول لصاحب رايته: انغمس برايتك فيهم. فيقول: ليس لي متقدّم. فيقول: بلى فإذا تقدم شدّ إبراهيم بسيفه فلا يضرب رجلاً إلّا صرعه وكَرَد إبراهيم الرجالة بين يديه كأنهم الحملان وحمل أصحابه حملة رجل واحد واشتد القتال فانهزم أصحاب ابن زياد»[١].

---

(١) نفس المصدر.

هنا تبرز عوامل الإيمان وهنا أمام أنظارنا صورة خالدة لموقف الرجولة والبطولة والثبات، فالقيادة لا تنجح إلّا بالدعوة التي تقوم عليها، والبطولة لا تظهر إلّا بالقضية التي تقاتل من أجلها وقد كان إبراهيم مثال الدعوة التي تجعل من القيادة وسيلة ميدانية تتعلق كفاءتها وفعلها بمدىٰ الإيمان بها وابن الأشتر رجل دعوة نبت في ربوع الولاء لأهل البيت ودرج في مواطن الإخلاص للعقيدة فصاغت عقيدته نمط فروسيته وحدد ولاؤه شكل شجاعته.

انظر إليه وهو يكشف رأسه بين التحام السيوف والجحافل وغبار المعركة وأصوات المقاتلين من الطرفين. كيف يتصرف بثبات وثقة ويفشل خطة ابن زياد الحربية ويندفع أمام كتل القطعان التي أحاطت به وطوقته ويغير اتجاه المعركة. وأن يهزم جيش ابن زياد ويقتل قواده الذين ترتكز عليهم قوة الدولة الأموية وكانوا يمثلون أيادي البطش وسواعد الفتك بالنسبة لدولة أمية في الشام فقتل شرحبيل بن ذي الكلاع وأبوه كان من صناديد وأمراء العرب قاتل مع معاوية في صفين فقتل مع البغاة.

وقتل ورقاء بن عازب الأسدي وعبيد الله بن زهير السلمي.

وقبل أن تبدأ المعركة كان جنود الثأر يتوجهون إلى قطعان بني أمية بالحجة فذلك نهج الإمام الثائر أبي الفداء الحسين فلما سرّح إبراهيمُ بن الأشتر عبد الله بن زهير السلولي ليأتيه بخبر جيش أهل الشام لقيه رجل منهم وكان هذا الرجل يجسد مدىٰ الانحراف الذي أحدثه الأمويون وعلماء السوء في أذهان الناس وجعلوا الإمامة مجردة من شروطها وواقعها فإذا هم يحسبون أن الإمامة تتمثل في السلطان الذي يقوم على سفك الدماء والبغي والفجور.

قال الشامي لعبد الله بن زهير: يا عدو الله إلى ما تدعونا أنتم تقاتلونا مع غير إمام.

فقال له عبد الله: بل يا لثارات الحسين ابن رسول الله. ادفعوا إلينا عبيد الله بن زياد فإنه قتل ابن رسول الله وسيد شباب أهل الجنة حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلهم مع الحسين فإنا لا نراه لحسين ندّاً فنرضى أن يكون منه قوداً وإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جعلنا بيننا وبينكم كتاب الله أو أيَّ صالح من المسلمين شئتم حكماً [(١)].

وكانت نهاية هذه المعركة وهي جولة من جولات الحقّ على الباطل وأسفرت عن هزيمة أصحاب ابن زياد وتبعهم أصحاب إبراهيم وغرق منهم من غرق وقُتل من قُتل وأرسل إبراهيم البشارة إلى المختار وهو بالمدائن وأنفذ إبراهيم عماله إلى البلاد فبعث أخاه لأمه عبد الرحمن بن عبد الله إلى نصيبين وغلب على سنجار ودارا وما والاهما من أرض الجزيرة فولى زفر ابن الحرث قرقيسيا وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها وسميساط وناحيتها وولى عمير بن الحباب السلمي كفر توثا وطور عبدين وأقام إبراهيم بالموصل وأنفذ رأس عبيد الله بن زياد إلى المختار ومعه رؤوس قواده فألقيت في القصر.

وتجمع المصادر على ذكر رواية الحية وهي كما رواها الترمذي عن عمارة بن عمير قال: لما جيء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه نُضّدت في المسجد في الرحبة فانتهيت إليهم وهم يقولون قد جاءت قد جاءت فإذا حية قد جاءت تخلّل الرؤوس حتى دخلت في منخرَيْ عبيد الله بن زياد فمكثت هُنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[(٢)].

* * *

(١) الطبري: ٧/ ١٤٣، حوادث سنة ٦٧.
(٢) صحيح الترمذي ١٣/ ١٩٧، ح٣٧٨٠.

لعبت العصبية القبلية بعقول الناس وارتاح لها آل الزبير فكانوا ملجأ القتلة ومأوىٰ الناقمين على نداء الثأر الذي أطلقه المختار وشيعة أهل البيت، فأخذوا بإظهار العثمانية ورؤوس النكبة إلى مصعب ابن الزبير والتفّت القبائل التي لم يمضِ على إسلامها عهدٌطويل وتنادت بنداء الجاهلية ورفعت شعار التعصب.

ولقد واجهت جنود المختار جيوش ابن الزبير وتجمعات القبائل بحماس ورغبة في القتال حتى أن من المفارقات أن تتحوّل صور الإقدام والبطولة إلى عكس نتائجها فقد اندفع الجنود جميعهم إلى محاربة رؤساء أهل الكوفة ممن أفلتوا من العقاب وحماهم ابن الزبير وخاضوا كلهم في صفوف الجيش المعادي حتى بقي المختار وحده.

وهي حالة فريدة من الإقبال على القتال والموت ولقد تمكنوا من المجرمين الذين فروا وقاتل أصحاب المختار قتال الأسود ثم تغير مجرىٰ المعركة.

واضطر المختار أن يدخل القصر وأمر مصعب بأن يحاصر القصر أشدّ حصار. فقطع عنهم الماء ومنع الغذاء وظل المختار محتفظاً بكرامته وشجاعته لم يهن ولم يداخله الخور أمام هذه الهجمة فكان يخاطب أصحابه: ويحكم إن الحصار لا يزيدكم إلّا ضعفاً فانزلوا بنا نقاتل حتى نُقتل كراماً إن نحن قتلنا فوالله ما أنا بأيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله.

أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمكم في نفسي وإذا خرجت فقتلت لم تزدادوا إلّا ضعفاً فإن نزلتم على حكمهم وثبت أعداؤكم فقتلوكم وبعضكم ينظر إلى بعض فتقولون يا ليتنا أطعنا المختار ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفر متّم كراماً.

وقد تولت نساء الكوفة إمداد المختار بالطعام فكان معاش من بالقصر من النساءتأتي المرأة متخفّية ومعها القليل من الطعام والشراب.

وأرسل المختار إلى امرأته أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاري فأرسلت إليه بطيب كثير فاغتسل وتحنّط ووضع الطيب على رأسه ولحيته مستعداً للموت بإباء وشرف.

وينتهي كما انتهىٰ أبطال الدعوة الذين سبقوه على درب الشهادة فواجهوا المنية بشجاعة وأيديهم على مقابض السيوف. وسيوفهم مصلتة.

ولما استشهد المختار قال بُجير بن عبد الله المُسْلي: يا قوم قد كان صاحبكم أمس أشار عليكم بالرأي لو أطعتموه يا قوم إنكم إن نزلتم على حكم القوم ذُبحتم كما تذبح الغنم اخرجوا بأسيافكم فقاتلوا حتى تموتوا كراماً.

ويحدثنا رواة التاريخ عن رؤساء القبائل وعلى رأسهم مصعب بن الزبير وقد ارتكبوا القتل وقاموا بأعمال من القسوة والوحشية ما يندى له جبين المؤمن حتى ذكرت أن عدد القتلىٰ كان زهاء سبعة آلاف رجل ولما استشهد المختار أطلق مصعب يد أعوانه لتلعب قتلاً وبطشاً وتشريداً برجال الشيعة في الكوفة.

وأتى بحرم المختار فدعاهن إلى البراءة منه ففعلن إلّا حرمتين له إحداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري ـ ومر ذكرها والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصاري وقالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله؟ كان صائم نهاره قائم ليله قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته، فأمكنه الله حتى شفى النفوس فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله بخبرهما وما قالتاه. فكتب إليه: إن هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه، وإلّا فاقتلهما فعرضهما مصعب على السيف فرجعت بنت سمرة ولعنته

وتبرأت منه. وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرتُ، أشهد أن المختار كافر، وأبت ابنة النعمان بن بشير. وقالت شهادة أُرزقها فأتركها؟ كلا!! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته، والله لا يكون. آتي مع ابن هند فأتبرأ وأترك ابن ابي طالب؟ اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته. ثم قدمها فقتلت صبراً.

ففي ذلك يقول الشاعر [عمر بن أبي ربيعة القرشي]:

إن من أعجب الأعاجيب عندي	قتل بيضاء حرة عطبولِ
قتلوها ظلماً على غير جرمٍ	إن لله درها مِن قتيلِ
كُتبَ القتلُ والقتال علينا	وعلى الغانيات جرُّ الذيول[1]

وتبقى السمة البارزة التي لا تؤثر فيها الأقوال المغرضة ولا تنال منها الأكاذيب وهي أن ثورة المختار ثورة عربية المضمون والتكوين.

وليس القول بأنها ثورة موالي إلّا تلفيقاً يقصد به التستر على المجزرة التي ارتكبها مصعب وأعوانه من رؤوس الشر. ولا إنكار بأن الموالي قد وجدوا في عهد المختار حرية بعد أن عاشوا مضطهدين وذاقوا أنواع العذاب في الكوفة والمختار ثائر.

والثورة بحاجة إلى من يسندها وعندما وجد الموالي روحاً إسلامية ومبادئ عادلة تضمن لهم الحرية انضموا إلى جانب المختار ووقفوا إلى جانبه.

وهكذا تحلّ بالعراق نكبة أخرىٰ ويتعرض أهله إلى مأساة جديدة تحيل أحلامهم إلى هباء وتزرع اليأس والنفور في النفوس، وتجري تغييرات وتحولات ليست في الحسبان وهو أمر جدير بالاهتمام فلقد بحثنا سابقاً عن

(١) مروج الذهب ١٠٧/٣ وابن الأثير والطبري. حوادث سنة ٦٧.

التركيب السكاني لمجتمع العراق عموماً ومجتمع الكوفة خصوصاً ورأينا تباين الأصول واختلاف الأجناس ولم تكن الطوائف والأجناس بحجم صغير يمكن أن يستأنس للآخرين بل ظلت بواسطة هذه الكثرة تبحث عن استقرار وثبات في واقعها، ولكن إسهامها في كلّ أمر كان يؤدي إلى اضطراب واقعها أكثر فهي في سبيل أحلامها تشترك في الأحداث دون تمييز فلم تجمع أمرها على اتجاه بعينه ما خلا الصفوة الذين حملوا هوية الإسلام وتركوا غير سبيل محمد وحب أهل بيته الكرام وثبتوا على الإيمان والإخلاص.

لقد وجهت الطعون إلى حركة المختار لاستقطابها الموالي واندفعت القبائل ترىٰ في ذلك مساساً بكرامات الرؤوس والأشراف وأنه تسليط للموالي عليهم وانتقل القتلة إلى مصعب بحال من الألم والشكوى واجتمعوا جميعهم على حمية يأباها الإسلام وتجافي قيم الدين. ولم يشغل بالهم دوافع تلك الثورة ولا أهدافها مما يمتّ إلى الدين ويتعلق بمبادئ الإسلام والعقيدة.

في ثورة الطف كان العبد الأسود يختلط دمه الذكي مع دم الهاشمي الشريف...

وعلى أرض كربلاء يسارع المولى المؤمن وينافس العربي من أنصار الحسين ليفوز قبله بالشهادة..

فلماذا لا تكون ثورة المختار ملاذاً وملجأً للمحرومين والمضطهدين؟

لقد نادى المختار: أي عبد بايعنا فهو حرّ.

فتلك دعوة خير وسعادة جاء بها الإسلام وتميّز بها لهؤلاء الذين سمت إنسانيتهم في ظل الأجلاف الغلاظ من رجال القبائل الذين ارتفعوا

إلى مقاماتهم الجديدة على موجات الفتح وحققوا المكاسب والثروات باسم دين محمد ﷺ. يعطي لمواليهم وعبيدهم حقهم في الحياة وما ترتب لهم في ظل الإيمان.

وهكذا نصل إلى نهاية جولتنا في هذه الحلقة «مع الحسين في نهضته». ومن الواضح أننا آثرنا التركيز على الجوانب والأحداث المهمة ولم نتطرق إلى كثير من الأحداث.

وحديث ثورة الحسين حديث دائم وباق إلى قيام الساعة والمشاركة مع الحسين في نهضته هو طريق المؤمنين الذين يرون في الاستشهاد من أجل الإسلام سعادة وأن الحياة في ظل الظالمين والجبابرة هي حياة ملؤها السقم والنكد.

ولقد بقي الموقف من نهضة الحسين معيار حق وصدق كما ظلت الثورة خالدة بآثارها تبعث في النفوس قيم التضحية وتحضّ على الإيمان بانتصار العدل وسقوط الظلم والجور.

وعلى مر الزمن ازدادت مبادئ الحسين رسوخاً في النفوس وبقيت نهضة الحسين تمثل تهديداً لعروش الطغيان وكراسي الجور.

ولم تنته يوماً المواجهة بين أنصار الحق والعدل وبين أنصار الظلم والجور. كما نراها اليوم تظهر بأكثر من صفحة وفي أكثر من جهة.

الفهرس